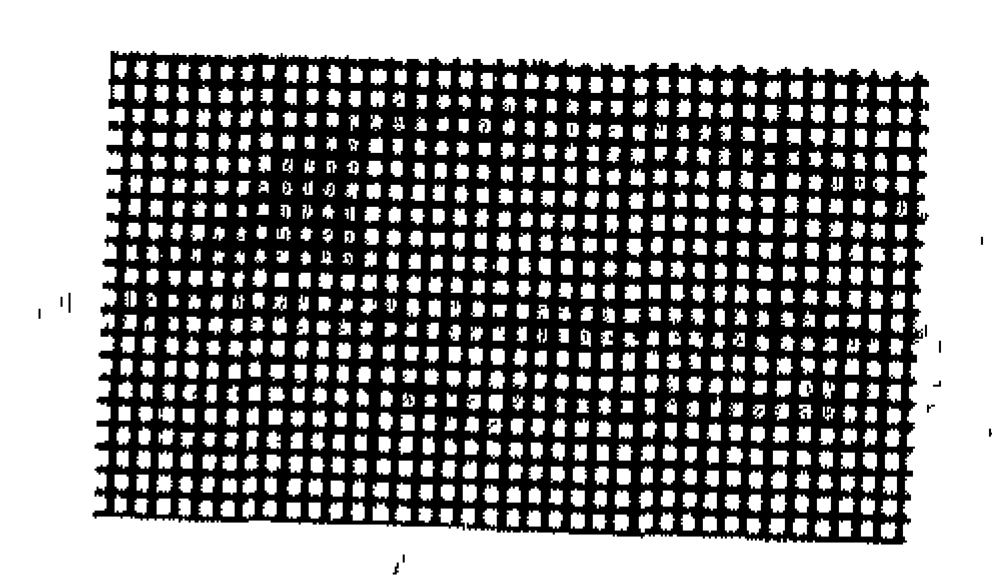
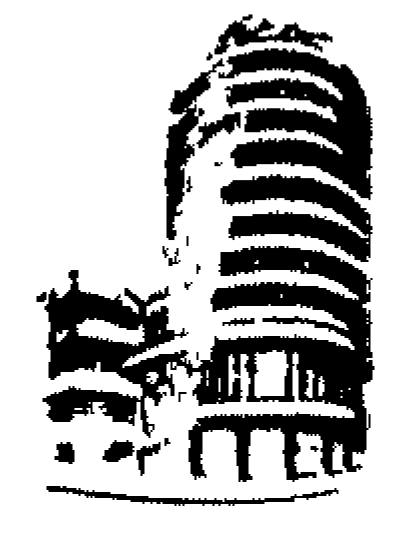
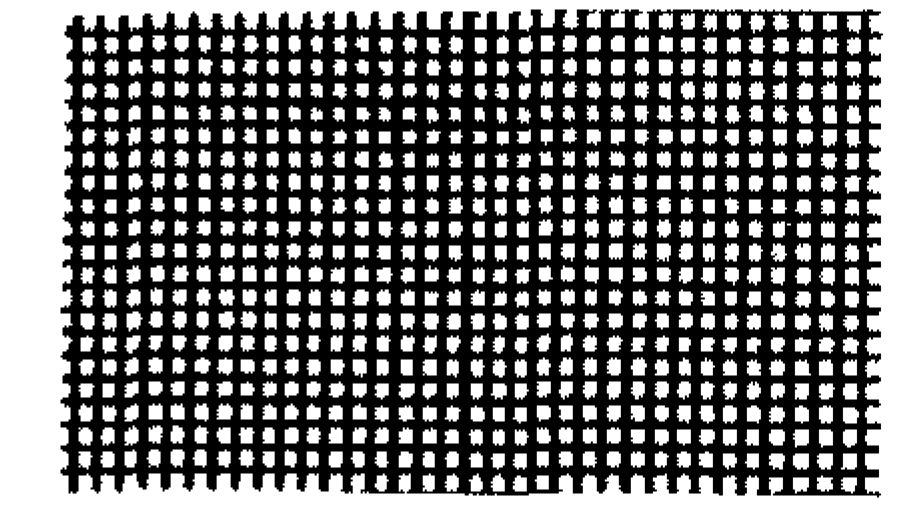


أحراش المدينة

جمال الغيطانى

جمال الغيطاني

أعراش المدينة

الغلاف بريشة الفنان
الأستاذ حسين بيكار

سكرتير تحرير تنفيذى
والرسوم الداخلية ● محمد عفت



تقـــديم

« . . أعمال جمال الغيطانى الروائية والقصصية ، يعرفها العالم الآن ، بعد ترجمة روايته « الزينى بركات » إلى الفرنسية وصدورها عن دار لوسوى العالمية ، ونقلها إلى عشر لغات عالمية أخرى ، بالاضافة إلى أعماله الأخرى التى نقلت إلى مختلف اللغات .

منذ خمس وعشرين سنة بدأ الغيطانى مسيرته الأدبية ، بالتحديد فى عام ١٩٥٩ ، وبدأ نشر إنتاجه عام ١٩٦٣ ، وعبر هذه المسافة الزمنية أثرى الأدب العربى ، وأضاف إليه ، وفتح أمامه آفاقا فى التعبير لم تطرق من قبل . لفت أنظار النقاد برواياته الخمس ، ومجموعاته القصصية الست . من خلال إبداعه يبدو كاتبا متفرد الأسلوب .

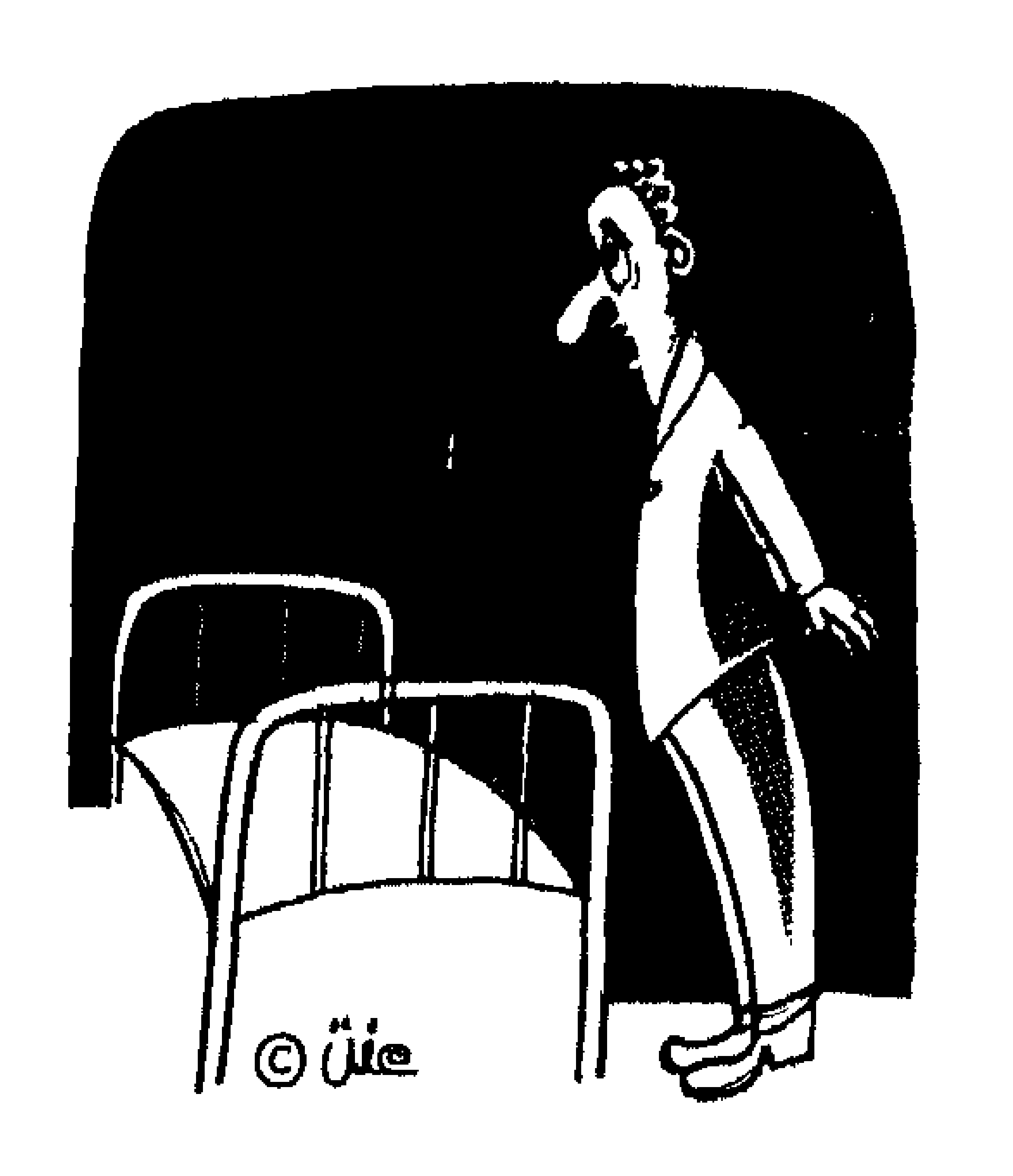
تأثر بالتراث العربى ، بالتاريخ المصرى ، بلغة المتصوفة ، أحيا أشكالا فنية كانت قد هجرت ، الأزمنة الماضية عنده سيالة متدفقة ، وهذه المختارات القصصية التى يقدمها له « كتاب اليوم » تمثل تطوره خلال ما يقرب من عشرين عاما ، نقدم فيها أجمل وأرق ما كتب منذ عام ١٩٦٢ وحتى أواخر السبعينات . مما يجعلها مجموعة بالغة الأهمية ، ممتعة للقارىء والدارس على السواء » . .

● كتـــاب اليـوم ●

المحتويات

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٢٨٧٢ / ٨٥

الترقيم الدولى ٦ ـ ٠٩٨ ـ ١٢٤ ـ ٩٧٧ ـ ISBN



زيــــارة

كان الشارع الطويل يكاد يكون خاليا من الناس . وبين لحظة واخرى تهب ريح من ناحية الجبل ، فتثير دوامات صغيرة من التراب والغبار والقش تصطدم بجدران المنازل واعمدة النور الفضية اللون وسيقان المارة القلائل . كان الهواء جافا مليئا بذارت دقيقة من الرمال . بينما اكتست السماء بلون اصفر قاتم . . وفى الشارع تنبثق من الأرض على ابعاد متساوية اشجار قد تساقطت أوراقها وتعرت فروعها . . إنه الآن بعيد عن مخزن الترام . . ويقترب من مستشفى حميات العباسية . . الذى يقع بعده مستشفى المجانين . . .

بعد مسافة ليست طويلة ، اصل الى هناك ، رائحة التراب الجاف حادة . . إنها تملأ انفى . . لها وخز نفس الرائحة التى كانت . .

. . . فى تلك الليلة . . .

. . رقدت فوق السرير ، حملقت عيناى فى السقف ، الظلام خيم فوق المدينة ، الليل خامد الانفاس ، كثيف طويل ، فى أذنى ازيز خافت لا ينقطع لم أدر مصدره . كانت هناك أصوات الليل الغامضة ، عواء كلب من بعيد ، بكاء طفل ، صوت أم يعلو . سكون . صمت . دقت الساعة جاءت أمى . وجهها شاحب ، ملىء بالحيرة . . .

— أبوك . .

— ماذا به ؟ ؟

— إنه على غير عادته . .
— كما حدث فى الأسبوع الماضى ! !
— بل ألعن من ذلك . .
— ألعن من ذلك . . ؟ ؟
شعرت بقلق وتسربت إلى أذنى أصوات غامضة مرتعشة . لم أعرف ما هى فى بادىء الأمر ، وعندما استطعت أن أرى جيدا فى الظلام ، وجدته يجلس فى السرير بحلته الصفراء التى رفض ان يخلعها عندما جاء من العمل . كان يرفع وجهه إلى السقف ويحملق بعينين جاحظتين ، ثم يعد على اصابعه . . ويقول خمسة عشر . . أربعة عشر . . ثلاثة عشر . . لم يبق فى الشهر الكثير ، ديون ستسدد . . أول الشهر اول الشهر . .
— ديونه . ؟ ؟ اى ديون يا أمى ؟ ؟
— إنه يفعل كما كان يفعل ايام بطالتك . . أتتذكر . . ؟ ؟
— نعم اذكر . . إنه كان يقضى الليل ويحسب ديونه المتراكمة عليه .
ففى هذا الوقت كنت بلا عمل ومرتبه ضئيل . .
يسند رأسه الى يديه . . ويبكى بكاء خافتا . . ثم يهمس . . ضاعت . . ضاعت . .
— هل اذهب الى حجرته . . ؟ ؟
— تعال ياولدى . . فانا لم اجىء إلا لهذا . .
إزدادت رائحة التراب الجاف فى انفى ، لم افكر فى مصدرها ، من الركن المظلم ، خربشة فار ، بلا شك ، فار . . دخلت الحجرة ، صفعنى الظلام ، توقفت انظر ناحية السرير .
— ابى . . لماذا تسهر حتى الآن ؟ ؟
— هيه . . نعم . . آه
— أبى . . اقول لماذا تسهر حتى الآن . . ؟ ؟
— ديون . . أحسب ديونى يا بنى . . ثلاثة اربعة . . خمسة . . عبد المنعم البقال . . على الجزار . .

— لكن لم يعد هناك ديون تحسبها . . فما الذى تحسبه ؟ ؟
صرخ قفز ، لوح بيده . .
— إبتعد عنى . . ساغلط فى الحساب . . ألا يكفى أنك عاطل . .
أخذت الشهادة . ولم تعمل . . فماذا تريد . . ؟ ؟
— أبى . . ؟ ؟
— اذهب بعيدا عنى . . قلت لك اذهب . . ساغلط فى الحساب
الـ . . الـ . . الجزار . . البقال . . صاحبة البيت . .
— لم يعد هناك ديون يا أبى ولم اعد متعطلا . .
— اذهب من وجهى . . انك متآمر ضدى . . تريدهم أن يقتلونى . .
الجزار . . البقال . . صاحبة البيت . . الـ . . الـ . . الـ . .
صوته يذيب سكون الليل ، منازل حارتنا متلاصقة ، اقل صوت يجعل النوافذ تفتح والانوار تضاء والرءوس تطل ثم تسأل . .
— ماذا هناك ؟ ؟ — من يتشاجر ؟ ؟ — من ؟ ؟
تستمر التعليقات ، ثم يعود الصمت تراجعت الى الخلف ، سمعت صوت بكاء أمى ، جسمها البدين يهتز . .
— ياخسارتك . .
— لا تبكى ياأمى . .
— لماذا لا أبكى ياولدى ؟ ؟ هل هذه نهاية أبيك ؟ ؟ . . مسكين . .
مسكين . . زمان . . ! ! ! ! زمان . . ! !
كنت أشرف على نهاية دراستى . بقى لى شهور ، أحصل بعدها على شهادة متوسطة ، فجأة . . جاءتنا اختى من الصعيد ، طلقت ، أولادها ، زادت نفقاتنا ومرتب أبى ضئيل لم يحتمل ، من قبل كانت عليه ديون كثيرة ، مرت شهور عسيرة جافة ، بين شهر و آخر يرحل الى القرية البعيدة . .
— هناك فى أحضان الصعيد . . باع ما بقى من الأرض الضئيلة ، ثم عاد ذات مرة قال ، لم تعد هناك أرض لتباع . بدأ يبدو شاردا ذاهلا

طوال النهار ، يعود من عمله يمسك ورقة وقلما ، تتمتم شفتاه بارقام كثيرة ، هي قروش ، جنيهات للدائنين . تخرجت فلم أجد عملا . . أصبحت في بطالة . . أختي لا تزال معنا . . أولادها أربعة . . مسكين . . أبي . . ! !

خرج الى ذات مرة ، بعد قليل غادرت المنزل خلفه . وصلت الى ميدان الحسين . . وقفت ذاهلا . . لمحته . . يضع طرف جلبابه المهترىء في فمه . . كان لايزال يدور في الميدان . . مقطب الجبين ، زائغ العينين يشير للناس باشارات من يده . . حائر .

مسكين أبي . . اقتربت يومها منه . .

— مالك ياأبي ؟ ؟

نظر الى ، لم يجب

— إنك تدور في الميدان ، ولم تذهب الى عملك . .

نظر الى مرة أخرى ، هبت ريح من ناحية جبل الدراسة . . ازداد عابرو الميدان سرعة - أعمالهم تنتظرهم - حملق أبي في وجهي ، انطلق من أمامي فجأة أسرعت خلفه ، فجأة اختفى ، ابتلعه الزحام الكبير . . مسكين أبي . .

من أسبوع لا أكثر . . ! !

كنت قد حصلت على عمل متواضع - سددت ديونه - في عصر يوم جلست في المنزل . . كنت مرهقا . فجأة . . اندفعت أمي الى صارخة . . مولولة .

— أمي . . ماذا هناك ؟

— أبوك أبوك . .

— ماذا جرى له . .

— ساع من الوزراة التى يعمل بها . . جاء في الخارج . . يرفض الكلام . . ويطلب رؤيتك . . حدث شيء . . حدث شيء

— أين هو . . أين . . أين . . ؟ ؟

أسرعت الى الخارج . . سماء معتمة تكسوها السحب القاتمة ،

النهار يحتضر . . السطح الذى نسكن فوقه بادر كئيب . . ولولت أمى . . صرخت أمى . . قال الساعى الضئيل الجسد :

— انت عماد ابن الحاج حسن . . ؟ ؟

— نعم . . نعم . .

صراخ لا ينقطع ، تجمع الجيران ، بكاء اختى ، قال الساعى . .

— قوى من عزمك . . أبوك . . ارتفع الصراخ . . الاولاد انفجروا بالبكاء . . راحت أمى تدب جدار الغرفة الخشبى بيدها . استمر الساعى . .

— كان أبوك يجلس فى الوزارة يتمتم باشياء غامضة . . لست أدرى ما هى . . فجأة نهض واقفا . . رفع قبضته الى السماء مهددا وصرخ . . ضاعت . . ضاعت . . أربعة خمس . . تسعة سبعة . . عبد المنعم البقال . . يريدنى ان أدفع . . . ليس معى . . أربعة أولاد . . مطلقة . . كان يهذى . . ويصرخ تكالبنا عليه . . ثم . .

صراخ . . صراخ. . جسد أمى البدين يهتز . . ولولت أختى . . الجيران يتهامسون . . الخبر ينتشر . . الريح أصبحت جافة . . الرائحة تملأ أنفى . .

مسكين . . أبى . .

من بعيد لاح المبنى . . غبار . . تراب . أمى المريضة الآن فى المنزل . . التراب الجاف . .

مسكين أبى . .

. . من بعيد لاح المبنى الكبير مرة اخرى . . أكثر وضوحا وحوله الاشجار الجرداء الساكنة . . وازدادت خطوات عماد وهو يقترب من الباب الكبير الذى تزدحم أمامه الناس والباعة .

حسنا . . مازال الوقت مبكرا . .

(١٩٦٢)

● ● ● ●

أحراش المدينة



كيف جئت ؟ ؟ كم إشارة مرور عبرت إلى هذا الشارع ؟ ؟ فجأة انتبهت إلى قدمى فوق رصيف شارع سليمان . آخر طريق أذكره جيدا . سور الازبكية . وقفت عند باعة الكتب . لم أجد كتبا جديدة .

وعندما عبرت منتصف السور .

واقتربت من مدخل الحديقة استنشقت بقوة رائحة فول سودانى . ودخان يتصاعد من مدخنة قصيرة . كتمت أنفاسى . . انحناءة الظهر ، كتفاها . الطرحة السوداء . والجلسة الطيبة الهادئة . وقفت خلف بائعة الفول السودانى . يد خشنة تقبض قلبى . درت حولها . ورفعت الى وجهها فول يا بك ؟ ؟ . خيبة الأمل هى هى لا تشيب ولا تصغر . شعرت إليها بحنين . فى ذقنها وشم أخضر مثلث باهت كأمى تقارب الخمسين . أمى ليس لها شهادة ميلاد .

سألتها . كم عمرك يا أمى ؟ ؟ لا أعرف . قلت كيف ؟ ؟ قالت عندنا فى البلدة لا تبلغ العائلة عن وليدها فنبقى بلاشهادات ميلاد .

اى حنين ملأ نفسى لهذه المرأة بائعة الفول ؟ ؟ لو سالتها من اى بلدة أنت ؟ ؟ كدت أفعل . كم عمرك ؟ ؟ اتعرفين انك تشبهين أمى . انطفأ نور إعلان أحمر فوق واجهة متجر ثم أضاء . وحولت عينى عن حبات الفول . تحسست جيبى . . آه لو معى قرش زيادة عن حاجتى لا شتريت منها .

. . ارتفعت ضحكة بنت تسير خلفى . وتوقف شاب يتأبط ذراع فتاة امام فترينة . عبرت إشارة مرور . . وزمجر محرك عربة وصاح جندى المرور . اسرع . . اسرع . . ظلت خطواتى بطيئة . وصلت الى الرصيف . ولم اعتقد انها تبيع الفول ؟ ؟ آه لو يوجد سجل يحوى أسماء البائعات كلهن . لو يوجد واحد كهذا . لذهبت إليه وبحثت فيه عن اسمها واذا كانت تبيع . فأى شىء تبيعه ؟ ؟ التين الشوكى ؟ ؟ وتحتمل اصابعها شوك التين وانتزاعه آخر الليل بملقاط ؟ ؟ لا أظن ربما البليلة ؟ ؟ لقمة القاضى ؟ ؟ ياه . هذه أشياء كانت تعدها لى أنا فى طبق أو اثنين . ولم لا تعدها للناس . بدلا من واحد عشرة ربما . . الحلوى امام مدارس الأطفال .

من أيام قمت مبكرا . وصباح شتاء غامق . انبعث فى الصمت صفير راديو حاد . ثم دقت ساعة ست مرات رزينة باردة عميقة كالشتاء . عند هذه الدقات أسترد حريتى . قفزت من سريرى ولم أحدث ضجة لكى لا أوقظ صاحبى الراقد بجوارى . خرجت . الجو بارد . برودة ثلجية تلسع أطراف أنفى وجبهتى وأذنى . . وقميصى خفيف . زمان . عندما كنت اقصر من طولى الآن . خمسة عشر سنتيمترا وأصغر من عمرى سبع سنين . . تقف بجسمها البدين القصير .

لا تخلع ملابسك الثقيلة . . الدنيا برد . .

فى السماء غمام رمادى متلاصق معتم . وقمم البيوت الصفراء الهامدة غارقة فى ضباب . . لم أر ضبابا اكثف ولا اشد من هذا الضباب المخيم فوق القاهرة فى الصباح . ثقيل لزج كاللبن . . من بعيد أصوات

مخنوقة مرتجفة . فكرت . بأى مدرسة أبدا ؟ ؟ وبالليل قبل ان ينام قال زميلى . .

ابحث عنها امام اى مدرسة ؟ ؟ ربما تبيع الحلوى للصغار . . أو البسكويت . يوجد عدد كبير من المدارس فى الحى . . ؟ ؟

أظن سبعا . . تسعا . . معظمها مدارس ابتدائية . . وعلى العموم أسأل . المدارس هنا حوار وأزقة . الشارع خال فى الصباح إلا من بعض العمال يسيرون بسرعة . عندما كنت أعمل فى ذلك المصنع . تبدأ « النوبة » فى السابعة صباحا . بالنسبة للسيدات والآنسات . ها . وهل اسمهن سيدات ؟ ؟ سيدات ؟ ؟ أما الرجال فالسادسة والربع أقصى حد بعدها الدقيقة بربع يوم . لم يخصم منى مليم واحد . أمى توقظنى فى الصباح . على الرغم من البرد . برد الشتاء . عربات الفول تقرقع عجلاتها الخشبية فوق بلاط الشارع المضلع . وبعض الفوانيس مضاءة . نورها يسيل . شريط رفيع مختنق من الزيت فى يوم الجمعة بالذات . زمان . انام حتى التاسعة . يوم الراحة لا توقظنى . عندما اصحو . أظل فى الفراش . مغمض العينين ، افكر فى أشياء وأشياء . اشعر بها تقترب منى . . تمد يدها لتلمس جبهتى . وتتراجع تهمس لنفسها : لينم ويشبع نوما . وتعود الى جلستها . آه يا أمى . آه لو رأيتهم فى السجن كيف تنهال عصيهم علينا لنقوم فى منتصف ليل الثلج . أى شىء كنت تفعلينه وقتئذ ؟ ؟ توقفت فجأة . مرقت سيارات عديدة ضخمة وجلس شبان على سور حديدى امام متجر ، يعلقون حول أكتافهم بلوفرات صوف ثقيلة . شعرت بوخز البرد فى جسمى . أهذى طريقتكم لارتداء الملابس ؟ ؟ مد شاب يده وغمز فتاة . نظرت إليه بغضب متهتك . كم الساعة الآن . . ؟ آه لو معى ساعة . لن أسأل بنتا . . فمنظرى لن يأتى لى بالرد . رجل انيق .

— كم الساعة من فضلك ؟ ؟

— آه ؟ ؟ آه . . الساعة . . سيكس أند هاف . .

مصرى ؟ ؟ كأنه يقول لى يابن الكلب . . أند هاف ؟؟ لو عندى القدرة على الضحك لاستلقيت على قفاى . والله حول رقبته سلسلة . لم

يتبق الكثير على القهوة . لن أفكر فيه . . كيف تعثر على أمك و آلاف منه موجودون هاف ؟ ؟ القهوة . لم يبق عليها الكثير . دقت الساعة يومها سبع دقات ، درت على مدارس الحى واحدة بعد الأخرى . بدأ الطريق يمتلىء بالصغار . وجاء بائع كشرى وبائع حمص شامى . التف حولهما الصغار . رحت أرقب وأبحث . اقتربت من تلميذ صغير أمام مدرسة اخرى فى حارة بعيدة . . ياشاطر . . ألا تأتى الى هنا بائعات ؟ ؟

أى بائعات ؟ ؟

. . نساء عجائز يبعن أى شىء . . لسن عجائز تماما . . حلوى . . دوم . . ألم تر واحدة قصيرة فى وجهها وشم أخضر .

رفع رأسه . وخفق قلبى كما لم يخفق أبدا . ملامحه بها شىء

أهناك واحدة ضائعة منك كالتى تصفها ؟ ؟

نعم . . أبحث عن واحدة مثلها . .

قال الصغير :

. . فى هذا المكان . . بجوار سور الجامع . . هذا السور الحديدى . . كانت تجلس امرأة . . أتقول إنها قصيرة ؟ ؟ كانت طيبة ولا تضحك على أحدنا وتتوصى بى عندما أشترى منها الحلوى و . . و . . و . .

— أين راحت . . أين . . أين ؟ ؟

أين راحت ؟ ؟ طردها شيخ الجامع مرة . رجعت ثانى يوم . . جلست هنا مكان وقوفى نعم هنا . . مرة واحدة . . آه . .

وعندما رجعنا من الاجازة لم نجدها . . لكن والله سألنا بعضنا عنها . . آه والله العظيم . .

— ألم ترها فى شارع . . ميدان . . حارة ؟

حارة ؟ ؟

قال عم اسماعيل بائع الفول . حارة الوطاويط . . أتعرفها ؟ ؟

طبعا . . مررت بها كثيرا . . رأيت هناك امرأة . . ترتدى ثوبا أسود تجلس باستمرار . .

حارة الوطاويط ؟ ؟ ضيقة . مبلطة .

قال صاحب دكان الورق الواقع بالقرب منها . . فى هذه الزاوية . رأيتها كثيرا . صامتة مغمضة العينين . ترتدى دائما ثوبا واحدا لا تكلم احدا ولا يكلمها احد . ويقول محمد فراش هذه المدرسة انه سمعها تبكى فى ليلة سوداء هطلت فيها الأمطار واظن اننى لم أرها بعد ذلك . سألت بأسى بعد هذه الليلة ؟ ؟ قال نعم . الا تعرف اين راح ؟ ؟ ؟ قال لا أدرى ربما تجلس حول سيدنا الحسين . فالمجذوبات ينمن هناك باستمرار .

قلت وهل بدت عليها علامات المجاذيب .

اجاب : بصراحة والله أبدا لم تذكر شيئا ابدا . . ولم تسأل هل انت صحفى .

قلت ابدا . لست صحفيا . .

درت حول الحسين اين أنت ياأمى ؟ ؟ نساء يلبسن ثيابا بيضاء وخضراء ومن كل لون . سألت عامل مقهى . قال لا اعرف . سألت خادم الجامع . قال لم أرها سألت . ودرت . الصمت .

اهكذا ؟ ؟ أهكذا ياأمى ؟ ؟ تذهبين ولا أدرى أين أنت ؟ ؟ خطاباتك وصلتنى بالعدد هناك . ثلاثة . احفظهم فى جيبى . آه لو اعرف من كتبهم لك . خمس سنوات ظللت أرى المغرب فيها أصفر كلون الرمال . السجن بصفة رجل مسلول فى صحراء واسعة مخيفة . فى وقت الراحة . أجلس ورأسى بين يدى . أخاف عليها . اى شىء تفعله الآن ؟ ؟ كيف تعيش . وتفكر ؟ ؟ وهى التى لو وضعتها على راس الحارة لاتعرف طريقة العودة الى البيت ؟ ؟

ويقول زملائى لا تشغل بالك الم تقل إنها تعرف حياكة الثياب . . ؟ ؟ وربما ذهبت الى اقاربها . وتتزحلق الشمس مختفية وراء الأفق . ويسودنا سكون كئيب . ويجلس فوقنا الصمت . والورقة ما زالت مدلاة فى يدى . ويرتفع صوت زميل مؤلما خافتا . اتعرف ؟ ؟

أشعر بها . إنها أمى ، لم يكن لى أم طوال حياتى ، لم أرها . . ان قلقى على أمك لا يقل عنك . . أسمح لى . ويقول آخر : اننا نحبها . . بعد ان نخرج لابد ان نراها . آه . . ولم اجدها . آه لو تعرفون أين هى الآن ؟ ؟ فى اى عمارة . شقة . حجرة . فى هذه المدينة الهائلة المتوحشة الضيقة ؟ ؟ فوق أى رصيف ؟ ؟ جدار ؟ ؟ بلاطة ؟ ؟ تأكل؟ ؟ تشرب ؟ ؟ تشعر بى ؟ ؟ تعرف أننى خرجت ؟ ؟ لكن لابد ان أعثر عليك . لابد . لابد . سأصل اليك مهما كان الزمان . . وفى أى مكان . سأسند رأسى على قدميك . وتعبثين بأصابعك فى شعرى . الشمس فوق السطح . وحولنا الدجاج . أى أيام بعيدة هذه ؟ ؟ دافئة مقبضة حزينة . لا تخلو ساعة من صوتها . . آه . . هل أصدق نفسى . . أصدق أنى تشاجرت معها فى يوم . بل فى يومين . الا أكثر من مرة ومرتين وبكيت . وضربتنى . وبكت هى عندما خرجت هائما على وجهى الى باب النصر متصورا أننى سأصل عند شواهد قبوره الى نهاية العالم . خرجت ورائى . عادت بى الى البيت . أنا لا أعرف الآن كيف أجدك وأرجع بك . آه لو رأيتك فجأة تدبين وسط الناس حتى لو شحاذة ، لو أى شىء ، فقط أعثر عليك ، أى فرحة ستغمر وجهك الطيب . ربما . . ربما لحقها العمى فى هذه السنين . أستشعر بى ؟ ستشعر بوجودى . .

عندما عبرت ميدان الحسين . لم أصدق اننى أعيش . لم أر شيئا . أصوات الجارات وهن يتحدثن معى . وأقف أمام الحجرة الضيقة التى ضمتنا . شعرت بما حدث عندما فتحت باب غرفتنا شابة صغيرة . أى شعور مزقنى ؟ ؟ فانقطاع الخطابات سنين نذير النذير .

أمى . . أين أمى . . كنا نسكن هنا . . إننى هنا من سنين . .

تلفت حولى ربما نسيت البيت . لكنه هو . هرعت الى أسفل . خرجت جارتنا القديمة روحية . البيت إذن هو البيت ، والمسكن ، والحجرة ، والركن . . لكن أمى ليست فيه . . آخر مرة رأيتها عندما جاء بعض الجنود من القسم وفتشوا البيت بعد ذهابك بشهور وسمعناها تبكى . .

ولم يخرج احد منا ، فكلنا نخاف منهم كما تعرف ولم نسمع صوتها بعد ان ذهبوا . .

. . الم تريهم عندما نزلوا . . ربما أخذوها معهم . .

. . لا . . نظرت من وراء النافذة بعيني . . كان معهم صاحب البيت وكتب اظنها لك ، وفى الصباح طلعت الى السطح وناديتها فلم أجدها . . كان الباب مفتوحا . .

. . والاثاث ؟ ؟

. . ياعينى عليها . . وهل بقى اثاث ؟ ؟ كسروا السرير وطردوها اكثر من مرة . . بعينى رأيتها تنام على بلاط السطح ، واخذتها عندى اكثر من ليلة . . الأثاث ؟ ؟ . . باعت منه جزءا وتكسر منه جزء . . الاثاث ؟ ؟ ضربتموها ضربتموها ؟ ؟ ياكلاب . . الرقيقة . . البسيطة . . الطيبة القلب . ثم طردتموها ونامت على بلاط السطح . . وصاحب البيت الجبان . اتعرفون ما الذى جرى لها ؟ ؟ اتعرفون ؟ ؟ اهذه تحتمل ضربا ؟ ؟ جسمها خلق للضرب ؟ ؟ تفتخر طوال عمرها أن ابى حتى موته لم يرفع فى وجهها كفا . لم يضربها بعصا . وتجيئون أنتم لتضربوها . وانا أعرف ضربكم . . ياه . . كيف احتملت ؟ ؟ كيف بكت ؟ ؟ كلكم السبب . آه لو أعثر عليك لأعوض لك ما فات . . طبعا ازدادت كبرا على كبر ، فى يوم تمددت على السرير بعد عودتى من المصنع . أعدت لى الطعام . اى طعام أعددته لى يا أمى ؟ ؟ . وضعته فوق السرير . جلست صامتة بجوار الجدار . أشعر بنظراتها . تطول مدة . . وتتنهد ثم تطرق براسها . ويصرخ طفل فى الحارة . وتصيح امراة تنادى ابنها وترفع أمى عينيها الى السقف . وينبعث صوت راديو من بعيد . فى أيام الغسيل تغنى :

« أدور على راح منى . . » يوم واحد سمعتها تغنى « على بلد المحبوب ودينى » . . لم تغسل أبدا فى أيام اجازتى . . عدت مبكرا فى يوم ولم تكن انتهت من تنظيف البيت . رأيت وجهها أصفر شاحبا . . وعظمتا وجنتيها برزتا ياه . . لم لا تريحين نفسك ؟ ؟

ضحكت وكلما انظر اليها لا اشعر انها غاضبة او حزينة . كأنها تفتش فى أشياء حلوة بسيطة صغيرة . مصباح يضىء وجهها . يومها ادركت ان امى كبرت لم اشعر بذلك مطلقا من قبل . احسست انى وقعت على اكتشاف هائل مريع امى كبرت ؟ ؟ أعوام وأعوام . . خلال السنين الخمس . كم زادت ؟ ؟ كيف اصبحت ؟ ؟ وجهها ؟ ؟ كل شىء يتغير . وجهى به آثار الجروح . هل سأعرفها أم هى ؟ ؟ قلب الأم دليلها . دليلها . .

. . . انتبهت الى اننى لم آخذ نفسى من لحظات طويلة . دفعت الهواء الى صدرى . عضضت شفتى بقوة . وهؤلاء الناس . أيعرفون أنى أبحث عن أمى ؟ ؟ يضحكون أضحكوا يا ناس . سليمان السبب . أكره كل ما فى هذا الشارع وما يحيط به من شوارع . حتى العطر الذى يملأ هواءه . انوار ميدان التحرير تبدو من هنا . اين هذه القهوة التى يجلس عليها الموظف ؟ ؟ صاح بائع الجرائد سألته عنها . .

— أمامك على الرصيف المقابل . .

لم أعبر الى الرصيف . . المقابل ما زلت أقف على الرصيف المقابل . . للا . . ماذا ؟ ؟ ارجع ياأفندى خطوة . صاح عسكرى المرور ومن أيام وقع ضابط تحت ضربات زميل لك فى شارع قريب . وصفق الناس . واندفعوا . واندفعت معهم ـ تغيرت ؟ ؟ واذا زادتها السنون كبرا فكيف اصبحت ؟ ؟ ستزداد طيبة . وتعنى بى اكثر . تغسل قمصانى احسن . تقتل البق وتطرده حتى لا يقلقنى فى نومى تبحث لى عن زوجة . هذا ما سيصيبها من تغيير . اه ياأمى . آه . لو حلقت فوق البلدة كلها . اصرخ وأسال ليعرف الناس ان أعز شىء عندى ضاع . فيبحثوا معى عنها ويسألوا بعضهم . فى الغيطان . والقرى . والبلاد . والمصانع . ويجدوها امك ها هى . اصحيح لا يعرفون أين هى ؟ ؟ ألا تقول وجوههم أنهم يعلمون ؟ ؟ ألم يقل الصبى إن بائعة طيبة لم تضحك عليه أبدا كانت أمام المدرسة ؟ ؟ وحارة الوطاويط أيعرفون . إيعلمون . اذن فلم لا يتكلمون ؟ ؟

. . . . رائحة الصباح تحمل الى صدرى الأسى . العاشرة وما قبلها . ادور فى شوارع المدينة . الشمس لها طعم . وخطوات الناس . ومشيهم . والعربات . طعم مر عندى لم ؟ ؟ لا ادرى . ركبت السيارة . . المحصل يصيح بلا انقطاع . نزلت فى مصر القديمة . . ذهبت الى شونة الغلال . الفول والسمسم والذرة والقمح . هنا تجار من بلدتنا كانت امى تذكرنى دائما . ربما التقوا بها ربما عرفوها بعد ان اختطفت من حياتها فنظروا الى . شعرت انى مخيف وتالمت . وتارجحت المراكب على النهر . وتناثر رذاذ خفيف وبدا الماء اسود داكنا . وصرخ عامل صعيدى من فوق صارى . قال التاجر :

. . . ياساتر . . ولم تجدها الى الآن ؟ ؟ جئت اليكم ابحث عنها . .

لم نرها . . لم نرها . .

. . مرت امراة عجوز تحمل كيسا . . لوحوا بايديهم : ابتعدى الله يسهل لك . .

ونظرت اليهم . صامتون . شعرت انهم يكذبون . رأوها مرة مصادفة على الاقل . أحسوا بها . ولو واحد منهم . واحد . هزوا رؤوسهم المعممة وقالوا . . ياخسارة . . بنت ناس . .

عندما قمت قال اكبرهم الشيخ فرج . .

بحثت عنها فى المستشفيات . .

. . . مضيت ، أصوات العمال الصعايدة تتصاعد . . يحملون المراكب باجولة القمح والذرة . مشيت حتى بقايا بوابات الفسطاط . ثم فم الخليج . ركبت الاتوبيس وسار بمحاذاة النيل ، تذكرت موظفا يسكن بالقرب من باب اللوق من بلدتنا وذكرت اسمه كثيرا امامى . صعدت الى مسكنه . فتحت الباب فتاة بنظارة طبية . قالت بابا غير موجود . قلت اين استطيع العثور عليه ؟ ؟

بالليل فى هذا المقهى . .

مقهى مزدحم ، تنعقد سحابات الدخان ، لابد ان اجده . لست أدرى ايعرفنى ام لا ؟ ؟

اسمه يوسف وموظف .

الشيخ فرج تاجر الغلال الكبير قال ابحثت عنها فى أقسام البوليس ، جارتنا روحية تلفتت حولها ومصمصت شفتيها . جاء جنود وفتشوا البيت . سمعناها تبكى وفى الصباح طلعت ولم اجدها .

لم تجب روحية . وأسأل عنها أنا فى قسم البوليس ؟ ؟ لو شخص آخر . يجوز أما أنا ؟ ؟ يساعدوننى أنا ؟ ؟ يجدون لى أمى أنا ؟ ؟ ضابط يبحث معى . أنا كيف . من من أبعدنى عنها وأبعدها عنى . من سنين ومن سبها ؟ ؟ أبدا . أبدا . أبدا . آخر الدنيا . ولا البوليس . أول الدنيا ولا البوليس . ملأ نفسى انقباض مفاجىء ، ارتعش جسمى . الشتاء البارد يثبت وجوده . امس سقط المطر فى الصباح عبرت كوبرى قصر النيل . ونظرت ناحية مبنى التليفزيون فوقه سحابة هائلة معتمة وضخمة لها طبقات فوق بعضها . رحت اتاملها . فمنظرها كالكرنب . مشيت . فتحركت . وقفت . عادت الى الثبات . ومن خمس سنين لم اسمع صوت قطرات المطر على البلاط . تركت حارة الوطاويط . الى اين ؟ ؟ جبل يعصمنى من الماء . أى ماء ؟ ؟ أى جبل يعصمها فى هذا المدينة . نسيج العنكبوت . زمان سقط المطر مرات ومرات . تنبعث رائحة طلاء الجدران . وتهمس أمى . أخاف أن يتسرب الماء من السقف . السقف القديم وعروقه خشبية . . اصطدمت كتفى بشاب . نقلت الكتاب من يد الى يد أخرى . لم أعثر على كتاب واحد من كتبى بعد خروجى . درت فى المقهى . اكره رائحة الدخان ونظرت الى كل الجالسين حول المناضد . اين يوسف ؟ ؟ اين يوسف ؟ ؟ اقتربت من عامل المقهى . .

— يوسف محمود الموظف ؟ ؟

— لم يجىء الليلة . .

خرجت متمهلا . ضحك رجل بدين له كرش . لماذا لم يحضر ؟ ؟ ابنته قالت له ؟ ؟ ربما كان موجودا فى بيته ساعة سؤالى عنه . ولم يهرب منى ؟ ؟ لم ؟ ؟ توقفت . يهبط الليل سريعا ثقيلا . عندما يجىء الليل

اشعر بروحى تنسلخ منى . من التاسعة الى السادسة . لا استطيع ان اجدها حتى لو دارت تبحث عنى . سأبقى وحيدا فى السرير حتى يرجع صاحبى من نوبة عمله بالمصنع . وينام . وقد لا انام . وفى الفجر يجىء الجندى . يطرق الباب . يوقع فى بطاقتى وينصرف . حارس الليل والقمقم . ولا أعرف من يحرسها واين هى ؟ ؟ ويروح الناس ويجيئون ويضحكون . وتحتك الايدى بالارداف . مخلوقات شارع سليمان باشا . كانوا بشرا . لا يهمهم ان يعرفوا . عبرت اشارة مرور . أدركت ان الضوء ما زال أحمر . لم أتوقف . فى الصباح . قال صاحبى :

— اخاف أصارحك بافكار تدور فى مخى . .

— قلها . . ما الداعى للخوف ؟ ؟

— لم تتوقع أنها . . يعنى اقصد . . مازالت تعيش . . ربما . .

— ها . . ماتت ؟ ؟

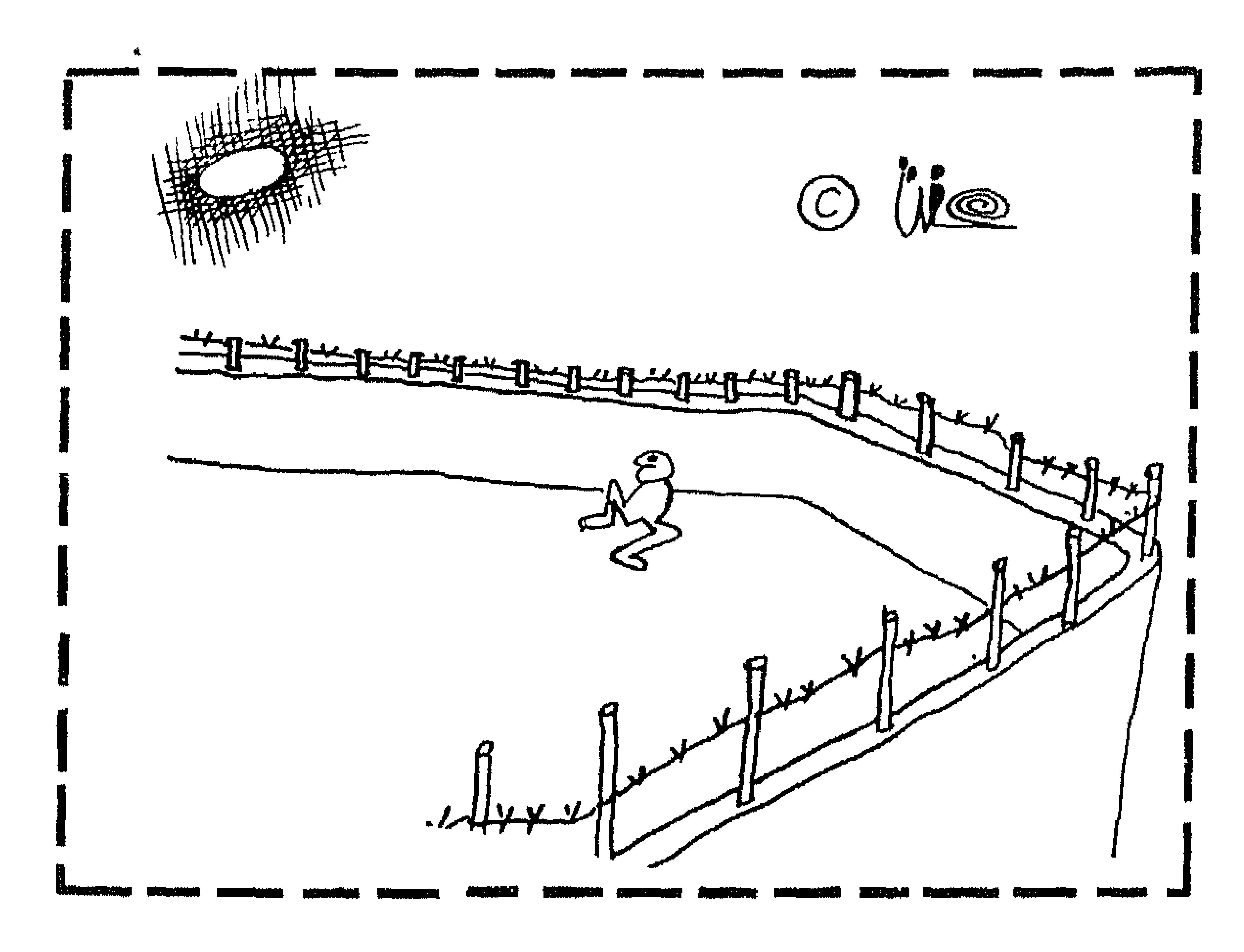
— أرجو ان لا تغضب منى ؟ ؟ إننى أرى إصرارنا معك ولكنى أخشى ان يضيع مجهودنا . .

أطرقت . عندما توقظنى فى الصباح تلح على فى النهوض . الافطار المعد . مع السلامة . الغسيل والغذاء . والجرجير . رفعت راسى . نار الموقد تزداد اشتعالا ، فى الدور العلوى صاحت أم تنادى طفلتها . المصروف نسيتيه . نهض صاحبى وقال :

— هل ستخرج الآن ؟ ؟ ابق قليلا اما انا فساخرج ، باق ثلاث ساعات على ميعاد عملى . . ساسال قبل دخولى المصنع فى شبرا الخيمة توجد عجائز . . ما أكثرهن !!

(١٩٦٤)

● ● ● ●



رسالة فتاة من الشمال

.. عبرت الأرض الساخنة الصفراء ، حرارة تخترق نعل الحذاء الخفيف وتؤلم باطن قدمى . لم يقترب موعد الغداء . عندما تتجاوز الشمس منتصف السماء وتميل عنه . عندما يزحف الظل الرمادى من أول عنبر للنوم متسلقا جدران العنبر الثانى فالثالث حتى الرابع ، ينطلق نفير الغداء . بجوار جدار حجرى قصير لبناء فكروا يوما فى إقامته ثم عدلوا ، جلس أربعة زملاء .

قلت : هل انتهت مواعيد العمل ؟
قالوا : بطالة قصيرة .
شعرت بمذاق شاحب لابتسامة نامت فوق شفتى . .
قالوا : اخبرنا عن أصناف الأكل عندك . .
قلت : لا داعى ، بالتأكيد عرفتموها وانتم تشمون الرائحة . .

احسست بالشمس فوقى وفوقهم وفوق الدنيا . . تجفف طعم الهواء فى أنفى . سألونى عما إذا كنت ذهبت الى مكتب الضابط ؟ قالوا لك خطاب . . إرتخت الشعيرات القصيرة لأهداب عينى وازدادت الظلال قتامة والأسوار ارتفاعا ، واحاط صدرى حزن رمادى رقيق . . هل تمزحون ؟

قالوا : وهل هذه أمور نمزح فيها ؟
قال الضابط : « وقع هنا » . .

إمتدت يدى واخذت الخطاب ، خفيف ، ورق شفاف . وضعته فى جيبى حتى بعد خروجى من عند الضابط ، فلتظل هذه الحيرة ، لحظة غريبة . . لم أقراه بعد ثوان من وضعه فى جيبى ، لم اتلهف على فتحه ، قبل قراءته أردت اجتياز فترة من التفكير فيه ، فى من سيكتب لى بالانجليزية ؟ فى اى شخص أعرفه يعيش فى مدينة أختام بريدها غريبة عنى مجهولة لى . . من . . من . . ؟ منذ اول لحظة دست فيها بقدمى الأرض الصفراء ، تنفست هواء الليل المسجون ، من هذه اللحظة التى مرت فى يوم من أيام سنة انقضت وجرت وراءها اربع سنوات لم تصلنى ورقة من قريب أو بعيد ، من عدو أو صديق . أبى لا يعرفنى . هكذا قال . . أنا برىء منك دنيا وآخرة ، برىء منك الى يوم الدين . . لا أنت ابنى ولا أعرفك . . ولينفعك الطريق الذى تمشى فيه . أمى لا تستطيع إرسال خطابات لى . لا تكتب ولا تقرأ ، لا ترى ، لا تسمع ، لا تتكلم ، لا تتنفس . . لا تعيش ، لو كانت تعيش أمى لأرغمت أبى على ورقة ولو صغيرة حتى كل شهر .

قالت أمى مرة لا تضربه ، هذا لا تعرف قيمته بالنسبة لى إنه

ابن عمرى أنا التى خرجت به من الدنيا . . ابن عمرى . . ابن عمرى . جلست فوق حجر يشبه مقعدا نحتته الطبيعة . . على بعد بالقرب من العنابر جنود يحومون كالحداة ، تصلبوا عندما عبر أمامهم ضابط يتجه الى مبنى الادارة الأنيق حيث الصناديق المعدنية تطل من الجدران فتغير طعم الهواء بداخله ، نفضت يدى ، وأخرجت الحروف الدقيقة الرفيعة المائلة . .

زميل فى المطبخ ، بحث عنى ولم يجدنى ثم رآنى جالسا فوق الحجر . . أسرعت أجرى وأناديك . . ولم تلتفت لى . . أنت المسئول عن المطبخ ، المفروض أن تكون أول الحاضرين . . عندما ظللت صامتا قال فجأة :

— بالخطاب شىء هام آه ؟

إهتز رأسى ولم أتكلم ولم يتكلم . وازدادت صفرة السماء عندما دخلت الشمس الجزء الأخيرة من رحلتها . شعورى بالفراغ فى اللحظات السابقة للمغيب يشتد ويقوى مهددا الطريق لشعور بالضيق ، يقوم شيئا فشيئا كلما اسودت السماء . كل شىء حزين مثير للأسى . زملاء يجلسون بالقرب من أسوار عالية تعلوها كتل من سلك لا ينفذ منه فار . وأكشاك خشبية مرتفعة على أبعاد متساوية يتحرك جنود بداخلها يلوحون ببنادقهم وكشافات . . ولا شىء إلا الصحراء .

أخرجت الخطاب وعدت أقرأه « من بلاد بعيدة لا تعرف أنت كم من المسافات تفصل بينك وبينها أكتب لك . من بلاد سحيقة البعد فى شمال الدنيا ومن قرية صغيرة كل ما فيها يكتسى الآن بالبياض ، لأن الشتاء عندنا قد بدأ منذ شهر ولن تذوب الثلوج قبل شهور ، والحقيقة اننى تعودت على رؤية الثلج ، ولهذا انتابتنى رغبة فى ألا يذوب . ولست أدرى إن كنت قد رأيت الثلوج من قبل أم لا ، وعلى قدر معلوماتى فبلادك دافئة ، وأى جمال فى بلاد لا تختفى الشمس عنها يوما واحدا . . ألست معى ؟ » — لماذا لا ترد عندما أناديك ؟

— أبدا . . اقرأ هذا الخطاب . .

— بمجرد إنتهائك منه تعال بعد العشاء ، سنغنى ونقول شعرا . .
— طبعا سأجىء . .
— لا تنس نفسك . .
— استدار مبتعدا . وهب هواء بارد له ملمس على الوجه كالكفن . بارد يقشعر له البدن ، فرقع كرباج من بعيد . . جندى يلهو . وارتفعت ضحكات خافتة طواها الهواء وعبر بها الأسوار لتذوب فى الرمال . .

وكم أود أن ترى تكسر الثلوج وذوبانها . وكم أرغب لو تسمع فرقعة الجليد عندما يتحطم مع تباشير الربيع » .

عدت أنظر الى الأسوار .

وفاحت رائحة أرز يحترق وقالت أمى :

« الجيران مساكين مثلنا يطبخون الأرز بالزيت »

قلت هل نطبخه نحن بالزيت يا أمى ؟ ؟

قالت : طبعا ومن هم الجيران ؟ ألا نسكن فى بيت واحد ؟ ؟

« إننى آسفة قد أكون آلمتك بهذا الوصف لذوبان الجليد ، لأننى أعرف أنك مقيد ، لكننى أحترمك جدا . . ولا أعرف هذه المبادىء التى قيدوك من أجلها ، وربما لا أميل اليها لكننى أحبك ، وأحن اليك والى من معك ، فأى شىء أعظم من أن يسجن الانسان لأجل مبادىء يؤمن بها . إننى فتاة من آلاف يعشن فى بلاد الثلوج البعيدة عنك ، ولن ترانى ولن نتصافح بالايدى ، ولو لم أقرأ اسمك فى نشرة الجمعية التى انتمى اليها لما سمعت عنى أبدا أبدا . . كذلك أنا لا أعرف عمرك ولا سنك ولا أوصافك . لكنى أعرف أنك لا تمشى فى الشارع كما تشاء ، ولا تأكل كما يجب ، ولا تنام كما ينبغى لانسان أن ينام . وأعرف أنك إذا رغبت فى رؤية أهلك لن تراهم . . كذلك صديقتك أو زوجتك »

نظرت ناحية عنابر النوم . نهضت ومشيت الى زملائى المتجمعين فى حلقة دائرية كبيرة . . نظرت الى الشمس التى ترحل كيوم انقضى . . لونها أحمر غريب . كأنى لم أرها إلا اليوم فقط وقفت أتأملها . من زمان

فى كتاب معلم القراءة كانت الشمس لها عينان وأنف وفم . . كالقمر ، لكنها أنثى . عندما مضى عشرون سنة لم أمسك فيها ورقة ، اقترب منى الضابط متمهلا تتقدمه نظراته اللزجة الزيتية تلوث الهواء بالمكتب . .

— العسكرى رآك . . فما الداعى ؟

— لم تكن معى ورقة واحدة بها ما تخشونه . .

— نحن لا نخشى شيئا . . إذا ظننت أنك ستستمر على كذبك سأسلخ جلدك وأرميك من فوق السور الى الضباع . . وكلب وراح . . .

لمعت العلامات الحمراء على ياقتى قائد السجن . . شعرت بإعياء وألم فى ظهرى ، كانت صلعة براقة كحذاء نظف بعناية وألمتنى أصابع قدمى . .

— طيب أنا معك أنه لم تكن معك أوراق ، فى أى شىء كان كل واحد يقرأ ؟

— فى خطاب . .

— أقول فى أى شىء كان كل واحد منكم يقرأ ؟ ؟

— فى الرسالة . .

— كلكم . .؟

— كلنا . .

قال كلاما كثيرا . . قال كلاما أكثر . . أدار غطاء رأسه بين يديه وقال كلاما آخر أكثر من الكلام الكثير الذى قاله ، والكلام الأكثر الذى قاله ، وقال فى النهاية : زملاؤك اعترفوا بنوع الورق الذى كنت توزعه عليهم أو كنت تقرأه معهم . .

— أنت تكذب . .

أنا أعرف أساليبهم . . أعرف أنهم لا يصدقون . . أعرف كيف يذبحون الفريسة ببطء . . أنا أدرك أنهم يريدون سحقى ، لا توجد أوراق أسأل عنها ، صحت :

— كذاب . .

نظر حوله ثم الى الضابط الأقل رتبة ، قذفنى بالمحبرة ، لم أعد أرى ،

هبط كف ثقيلة على عنقي واختلطت أشكال براقة وصور لامعة أمام عيني ، قالت أمي يا بني تعال أكتب لك حجابا لأني أعرف آلام الصداع ، ومرت بيدها على جبيني ، قلت لكنه يؤلمني تسبب في بقع بيضاء أمام عيني ، ثم ألم شديد في ناحية واحدة من رأسي يا أمي . . جاءني ثلاث مرات وصرخ في وجهي :

سأحرقك على نار عيدان الكبريت اقوى منها . .

ويخرج صاحب السجن . . تلمع فوق كتفيه علامات حمراء وزخرفة تشبه السنابل على غطاء رأسه ، البرد في سجن السجن ، الحشرات الرطبة الطرية ملمسها مقزز تحبو فوق ساقي ولا أقدر على طردها ، ذراعي ثقيلة منتفخة كقربة ، أصوات أحذية تروح وتجيء والليل لا ينتهي أبدا ، هنا لا توجد طاقة يدخل منها خيط من ضوء الشمس ، كدت أنسى الاحساس بطعم أشعتها . . في فناء المدرسة كانت سيقاننا رفيعة كعيدان الخيزران ، وملابسنا ممزقة وقاماتنا قصيرة ولا ناكل كما يأكل الآخرون وتسقط فوق الفناء وتحاصر الظلال الرمادية أشعتها في رقعة ضيقة نتكوم فيها كلنا ويخرج الناظر ، يدق الجرس ، نعدو الى فصولنا ، لابد أن هذه البلاد البعيدة بها مدارس للصغار . . للبنات . . للأولاد . . ومعلمة القرية ومعلمها . . بالتأكيد تلقت تعليما جيدا وقرات وإلا لما استطاعت التعبير بمثل هذه البساطة ، لا أعلم أين الخطاب الآن . . لا أستطيع أن أرى واحدا من زملائي لأسأله . . ربما وصل خطاب آخر منها . . من استلمه ؟ ربما فحصوه بالأشعة وعرضوه للمحاليل . هل تعرف هي أن كلماتها التي كتبتها في ليلة شتاء . . في ليلة يعود فيها العمال بعد يوم طويل من إزالة الثلوج خارج القرية . . كلماتها هذه تفعل ما فعلته ؟ ؟ ربما تجلس في هذه اللحظة الآن تكتب لي للمرة الثانية . . ولم لا تكون الثالثة . ؟ ؟ برغم ما يحيطني من ظلمة أشعر كأنها تكتب لي وتكلمني ، ربما خلفي ، ربما أمامي ، ربما خارج الجدار ، هل تعرف ساعي البريد في قريتها ؟ ؟ في بلدتها . . في بلدتي لمن يحمل الخطاب الأزرق ؟ هل يعرف الناس الذين التقت نظراتهم بنظراتي

عند توقف القطار بالمحطات الصغيرة والمحطات الكبيرة أين أنا الآن ؟ كأنهم فى الخارج يملأون هذه الميادين الواقعة أمام محطات السكة الحديدية فى المدن البعيدة والتى تزدحم بالحركة كلما جاء قطار ، وتخلو فجاة بعد رحيله يروحون ويجيئون يسألون عنى . . ربما يتقلب أبى فى فراشه الآن إذا كان الوقت ليلا وربما يجلس خلف مكتبه أو يمشى فى الشارع عائدا الى منزله لو كان الوقت نهارا . هل يذكرنى ؟ وأصدقائى والبعد الرهيب والثلوج البيضاء والسواد الذى يعقبه ضوء قوته مليون مليون شمعة ويحيل لحم الجفنين الى حمرة دامية مؤلمة مزعجة . .

— ستقول كل شىء

— اليد تطلع ثم تنزل . .

— لا اعرف . . لا اعرف . .

اصواتهم كانها ليست من هذا العالم . .

— سنقطع جسمك قطعا أكبرها فى حجم حبة الفاصوليا . .

واليد تعلو ثم تهوى . .

الشوارع . . المطر . . المدارس . . الصحف . . المجارى . . البعض يمشى والبعض يركب . . الدببة فى ثلوج الشمال . . القرية فى خط الاستواء . . العبيد والعبيد . . يهمنى أن . . العبيد والعبيد . . تصمد وتصمد . . آلاف الأشياء تمر كشريط سينمائى اختل عرضه . . صاحوا وهرولت الأحذية . . انفصلت كتلة عن السواد . . حامت بقع بيضاء فى رأسى كالجليد كالبرد كالصقيع . . واليد تطلع . . تنزل . . تعلو . . تهبط . . تلوح . . تصفع . . تهدد . . تلكم . . تطلع . . تنزل . .

— ستقول كل شىء . . كل شىء . .

— لا اعرف . . لا . . وإن كنت اعرف فلن اقول . . لن اقول . .

(١٩٦٣)

أيام الرعب

الاسم بالكامل : محروس فياض سلامة .
تاريخ الميلاد : ٩/٥/١٩٤٥ .
الديانة : مسلم .
الوظيفة : رسام بالمؤسسة العامة .
محل الاقامة : الجمالية ، كفر الطماعين .
رقم البطاقة : ٨١٦٦
فصيلة الدم :
تجددت هذه البطاقة فى يوم ١٨/١١/١٩٦٨ .

* * *

. . . حارة الوطاويط ، البلاط المضلع ، الجدران الرمادية المنتفخة بالرطوبة ، امراة عجوز ترمش بعينيها . . بنت تمشى متمهلة تحمل حقيبتها الممتلئة بالكتب المدرسية . . انحناءة خفيفة ، عيناها جميلتان . . قشر قصب ملقى عند زاوية الحارة .

التفت وراءه بسرعة . . .

المنحنى الضيق خال . . لا أحد . .

صوت تلاميذ صغار من داخل المدرسة ، يقراون فى صوت واحد .

رجـــل . .

صوت رفيع لطالب صغير .

امـــراة . .

مصلحة الدمغة والموازين .

بائعة الفجل أمام دكان عم محمود السماك ، عند باب الحارة أبطأت خطواته . جامع سيدى مرزوق مغلق . لن ينظر وراءه ، قضبان نافذة الضريح حديدية سمراء باردة كالهواء المحيط به . . اغمض عينيه . بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين . . .

صبى صغير يدحرج طوقا حديديا ، بائع كرنب ، رجل يرتدى جلبابا صوفيا قديما ، فتاة سمراء تعبر الطريق على مهل ، لم تتوقف عيناه عند ردفيها ، عض شفتيه .

منزل رقم . . . انتخبوا . . . فريق النسر الذهبى يتحدى الشواكيش ، سينما الكواكب ، هذا المساء . . إعلان قديم تاكل ورقه . . مربع رقم « ٢٦ » فرن الحاج نصيف . .

قبل أن يدخل المندرة فى الدور الأول ، قبل أن يفتح الباب ، قبل أن يخرج المفتاح ، اطل من باب البيت القديم ، رائحة غسيل يا خس يا حلو قوى ، هل رأى بائع الخس من قبل ؟ هل صادفه فى الحارة ؟ نعم . . نعم . . بالتاكيد ، رائحة بصل يقلى فى زيت ، ام سيد الحلوة تفشر غسيلها ، تومىء برأسها لست عطيات . . الشرفات متقاربة

متعبة . . وحدة العصر الشتوية وجو رمضان النهارى يغلف الحارة . . صاحت أم يوسف . . يابت . .

لا أحـــد . .

تمدد بثيابه كاملة فوق السرير . كأن الباب له رأس وذراعان وعينان ترقبانه . قام واقفا ليتأكد من إغلاقه مرة أخرى . . رائحة الرطوبة فى أنفه . . النافذة الوحيدة مغلقة . . لن يقف وراءها أحد سيلفت أنظار الناس . لكن ! عندما يجىء الليل . . عض شفتيه ، مد يده داخل الجاكتة . . لكم يبدو مظروف الخطاب الذى لم يصله إلا الأمس متاكلا .

* * *

ولدنا الغالى محروس فياض . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . بعد السؤال عن صحتكم نعرفكم بأننا طيبون لا ينقصنا سوى رؤياكم . .

أما بعـــد . .

فما كنا نحب إزعاجكم ، لكنك ولدنا ونخاف عليك كما نخاف على أرواحنا بالتمام ، فنعرفك يا محروس أن عويضة طلع من السجن ، وجمع عليه مهران ولد مخلوف وبالمثل الدقل ولد الحويج ، وعلمنا انهم سهروا مع بعض كام مرة . وقال عويضة انه مادام أبوك مات ميتة ربنا يرحمه الله ويرحمنا اجمعين ، يبقى لازم يأخذ تاره منك أنت . أيوه منك أنت يامحروس . . وحلف على مصحف انه لا بد يدور عليك ولو كنت فى آخر الدنيا ، وقام طلق دقنه ، وقلب شال عمامته وحلف ما يحلق ولا يعدل الشال الا بعد ما يشرب من دمك ، واتفق معه مهران والدقل وسافروا من أسبوع قاصدين مصر . ولم يقدر راجل فى البلدة ان يمنعهم فانت تعرف عويضة وهو على حق فى نظر مشايخ البلد واكابرها . ونحب اطمئنانك فنقول انهم لا يعرفوا عنوانك ، فنحن لم نعط عنوانك لاحد من اهل البلدة لانهم ناس السنتهم طويلة كما تعرف ويخافوا من

عويضة اشد الخوف . فنحن لم نعط العنوان لاحد البتة . فخذ بالك من نفسك ، حماك ربنا ، ومن عندنا يهدوك السلام انجالنا فردا فردا ويهديك سلام خصوصى قريبنا ابراهيم خليفة واخوه فضل الله ، كما ان صاحبك السيد المهدى يذكرك على الدوام ، ودائما فى سيرتك .

وكل من بطرفنا يهديك السلام ، والسلام ختام .

● جدك

سيد أبو الغيط

● ● ●

دائما وجه ابيه مهموم ، كان رجلا نحيلا رفيعا كعود البوص اسمر جدا ، عيناه ضيقتان ، اذ يرجعان من السوق آخر النهار لا يجلس مع رجال القرية سواء من عائلة السماعنة ، أو عائلة الضبع ، يلقى السلام ويمد خطاه ، عندئذ يضطر محروس الى الجرى ممسكا طرف جلبابه حتى يلحق خطواته ، ينظر وراءه ، نظرات الرجال معلقة بهما . فى مرة سمع احدهم يقول ، مسكين مادام عويضة خرج من السجن يبقى اجله قرب . رد شيخ كبير يومها . ياخسارة والواحد ما قادر يعمل عشانه حاجة واصل . . يتضاعف الهم فوق الوجه النحيل . يلتفت الى محروس . . يمد يده ، تلتف اصابعه الكبيرة حول اليد الصغيرة . يسرعان . الوقت عصر . والطريق من المدرسة الى بيتهم قصير كله تراب . فوقه غبار وبرد وسكون . . بوك . . بوك . . بوك . . وابور الطحين ينفث آخر ما فى جوفه ، يسرع رجل يركب حماره . . تنتشر فى الجو رائحة التوت . عند باب المدرسة يقف ينتظر اباه . قال له : ما تمشيش لوحدك . تتغلغل رائحة التوت الى دمه . حوم فى الفراغ طير . صوته كالضحك . كالبكاء . . لم يعرف بالضبط . نبحت كلاب عالية عند اول الطريق المؤدى الى البيوت ، رؤوسها عالية كالغيلان ، يجىء ابوه . يسرع والكتب تثقل عنقه . تتدلى فوق صدره . عيناه معلقتان بالشمس النازلة . تروح الشمس . . ربما لن

ترجع . لن تعود . . صحيح ! من يضمن رجوعها مرة ثانية . تذهب ولا تجيء . عندئذ لن يضيء القرية بصيص ولو من لمبة صاروخ . سيحبس ابوه نفسه فى صومعة الغلال المثقوبة الخاوية ويضمه الى صدره ويطخهما عويضة وتختلط الألوان . . الأزرق فوق الأحمر فوق خضرة شديدة السخاء من آخر الطريق ترتفع الأرض فثمة كوبرى خشبى صغير يعلو مجرى الماء . فجأة ظهر ! ! تصلبت قبضة ابيه . ارتجف قلبه كحمامة صغيرة صغيرة جدا ابتل ريشها بماء ثلجى نفذت رائحة التوت المغموس فى اللبن الرائب الى صدره . توقف الاب . اقترب منهما طويلا . عريض المنكبين . . كبير الرأس . على كتفيه عباءة سوداء . تحتها قفطان حريرى . ربما لونه أحمر . أزرق . ابيض ، أما انتفاخ العباءة فلم يستطع ان يخفى استطالة البندقية ، رائحة عطر تفوح منه ، همس الاب ، اشهد ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله . انفرجت شفتا عويضة الغليظتان ، ظلتا هكذا لحظات ثم تشكلت فوقهما ابتسامة لها لون كيزان الذرة الجافة المهروسة . لسه . . لسه . . لسه . . يابن سلامة وقتك ما قربش . لم ينطق ابوه ، لم يرد ، اما الشمس فنزلت صامتة بعد ان فارقتهما بلا سند .

— ها . . وده ولدك محروس ! بتوديه المدرسة كمان . . والله عال والله عال !

عويضة ينقض فى عين النهار . . يختطف الطفل وفى قلب غيطان الذرة يخفيه . يرسل الى اهله طالبا الفدية والمهلة يومان فى الثانية الأولى لأول دقيقة اليوم الثالث يصل الرأس الصغير مقطوعا الى الاهل . . يعلو صراخ الام

عويضة يختطف اولاد البلدة ، لا احد يسأله . . حتى الأم الثكلى لا تجرؤ ان ترفع عينيها فى وجهه . . لا احد .

لم ينطق الاب ، ضم « محروس اليه ، فى الليل نبحت كلاب فوق البيت المجاور ، حامت رائحة خبيز ، الليل فوق البيوت كالمصيبة

كالجبل ، كالجبانة . اما وجه الأب فصامت لا ينطق ، صفحة كراسة بيضاء ، قال محروس والليل يغزو قلبه الصغير :
وساكت ليه يابوى ؟
عض شفته ، ضرب جدار الصومعة الفارغة بيده ، اهتز جسمه ورأى الصغير اباه جدارا يميل . غيط قصب يتكسر تحت زوبعة ، مركب يغرق . جمل برك تحت حمل ثقيل . سكت ، سكت ، قال :
ما فيش حد فى البلد يحمينى منه وانا عمرى ما قتلت حد . . عمرى ما رفعت دبوس ابرة فى وش واحد .
فى السواد حملق اليه ، يد خشنة قبضت قلبه ، خمشته . . امال طالبك ليه يابوى ؟ . . طالبك ليه ! !
فى الصباح كانت الشمس عالية خارج البيوت ، الاب تقدم فى العمر سنين ، عند الجسر قابلهما الشيخ محمود ناظر المدرسة .
ما تنساش فى البندر ياواد يامحروس .
من نافذة الحلزونة الخلفية المتسخة رأى اباه يقف فوق الجسر وحيدا . . ثار الغبار . . اختفى . ثم ظهر . التوى الطريق ، دمعت عيناه وكان الرجال من حوله يثرثرون .

* * *

— طالبك ليه يابوى ؟
— انا طلعت من صغرى يامحروس ياولدى ولقيت الناس بتشاور على وتقول انى مطلوب لعيلة عويضة ، ابوى قتل خاله من اربعين سنة ، قبل ما تولد وقبل ما هو ييجى على وش الدنيا . حتى لما كنا عيال صغيرين كان دايما يقول لى انا اللى حقطع جتمارك ياولد سلامة ابوك قتل خالى ، وانا اللى حاخذ تاره . امه بخيتة دايما وراه من صغره . . دايما تقول له رقبتنا فى الطين وسط البلد . خالك ما تعملوش ميتم لغاية دلوقتى . خالك دمه راح هدر . المهم يابنى انه كبر . . سرق جاموسة واتحبس . . خرج ، برضه وراه امه بخيتة . كان يقول لصاحبه انه

حيموتنى بطريقة ما حصلتش . حيموتنى وانا عند الجسر ، باصص لى وهو ساكت . بيجى يخبط على فى الليل . اصله مفترى ما بيرعاش حرمة حد فى البلد . كل ما اقابله الاقيه يقول لى لسه . . لسه ياولد سلامة . الحقيقة يامحروس انا عدت اخاف عليك منه . . دا وحش ما بيعرف ابوه ولا اخوه . انت شايف حد فى البلد قادر يرفع عينه فيه . حتى الشيخ صالح لما رحت له قال لى وانا حعمل لك ايه ديه شريعة البلد يافياض . وبعدين هو عملك ايه . . عويضة لغاية دلوقتى ما هوبش ناحيتك . انا قلت فى عقلى يابنى ابعتك سوهاج تتعلم هناك وبعدين تروح مصر . انا هنا عارف ديتها لكن ذنبك انت ايه ؟

قال والليل يثقل ويبلل لعابه بطعم السواد . . وليه انا اللى حموت عويضة ! هو راعبنى انا بس ما هو موقف البلد كلها على رجل . . مشيلها جالوس طين حد قادر يقول له كفاية . . حد قادر يقول له انت بتعمل كده ليه ؟

* * *

ربما يجلسون الآن فى مقهى ويمشون فى شارع من الشوارع ، اسبوع كامل تجوب نظراتهم الطرقات وتتفحص الوجوه ، والملامح بحثا عن محروس ، محروس فياض سلامة . اسبوع ولا يحس . ربما مر بالقرب منهم ، مشى بجوار فندق ينامون به ، فى أى مكان هم ياترى ؟ فى أى بيت ؟ أى حجرة ؟ فوق أى سرير تخفق قلوبهم لليوم الذى تنعكس صورته فى اعينهم ثم ينقضون عليه ! عندئذ يحلق عويضة لحيته . يعدل شال عمامته ، يذهب الى امه فى البلدة . تقيم مأتم الخال الذى لم يرتفع صوت نائحة عليه من اربعين عاما .

دار فى الحجرة ، نفذت الرطوبة الى عظامه ، فرقعة يومية فى الخارج تصايح اطفال صغار ، وحوى ياوحوى . الجميع يخرجون الى الطريق بعد السكون الجامد الذى نزل فوق البيوت . اثناء الافطار تناول ما تبقى من الرغيف وقطع البطاطس الصفراء الصغيرة التى تقطر

زيتا ، اسند ذراعه الى عمود السرير الحديدى ، هذه اللحظات الأولى من الليل ، بداية السواد ، البرد ، لا يطيق البقاء فى هذه المندرة الباردة الصماء الجدران . الحيلى برطوبة تقوس العظام ، تامل مقدمة حذائه . . بلاط الحجرة المريح الأصفر القديم الذى تكسر وتشقق وفصلته عن بعض مجارى رفيعة سوداء . . السقف العالى والاعمدة الخشبية التى تحمله ، لم يعدها من قبل ، كانه يدرك لأول مرة ان سقف الحجرة محمل على تلك الأعمدة الخشبية ، ليس السقف فقط خمسة ادوار كبيرة . فى كل طابق اسرتان ربما . ربما احد سكان البيت قريب ، قريب أو معرفة لعويضة وجماعته ، ربما يؤويهم عنده . . لكن ! لا . . ليس معقولا ، بالتاكيد كان التقى بهم صدفة . انه يجتاز الباب الخارجى فى اليوم الواحد اربع مرات ، يخرج الى دورة المياه بالحوش ست أو سبع مرات ، صحيح لا يفتح باب المندرة حتى فى الصيف فهو يعرف تماما ما سيقوله رجال البيت عندئذ . الأعزب الوحيد فى البيت كله محروس . لا ، بل فى الحارة كلها ، صحيح ، من يسكن بمفرده فى الحارة كلها ، عطفة كفر الطماعين ، عندما زاره ابراهيم افندى زميله يسال المكوجى سال الأولاد . . قالوا له :

أيوه . . أيوه . . محروس افندى ابو نضارة . . نمرة حداشر . . نمرة حداشر . . وقاده من يده ولد صغير . جاء الى المندرة . الن يسهل هذا مأمورية عويضة . لو انه دار على حارات الجمالية كلها . سال أى طفل صغير . . محروس الصعيدى فين ؟ ايوه ياعم . . جوه ياعم . .

خرجت انفاسه ساخنة . ضرب راحة يده اليمنى بقبضته اليسرى الباب صامت يصغى الى زفراته المكتومة . . لم يدر كم مرة راح وجاء فى المندرة . لم يدر كم الف متر قطعها فى هذه العلبة ؟ قاسها بخطواته . . ست ان افسح الخطى . . سبع اذا مشى على مهل ، قال ركن المراة فى جريدة قراها منذ أيام ان ربة البيت التى لا تغادر دارها تقطع فى اليوم الواحد سبعة اميال . شرع فى ابتسامة ما لبثت ان تلاشت . . كتلة

الخشب خرساء . . القفل وحيد وليس متينا . . لا بد ان يشترى واحدا اضافيا . . اما النافذة المطلة على الحارة فالقضبان الحديدية لا تدع مسافة كافية للمرور من خلالها . . لكن ! لكن . لا يمكنه فتح الضلفة الخارجية . . عويضة دائما يحمل مسدسا . عويضة تاجر مخدرات . . عويضة لا يتحرك فى البلدة الا وتحت عباءته كارل جوستاف . اما فى المدينة فلن يخلو من فوهة سعتها ٩ مللى ابدا . ابدا . . ربما تسللت الفوهة بين القضبان . . السرير فى مواجهة النافذة راسا . . ترى فى اى مكان يبعده عنها ؟ المساحة ضيقة وشنطة الهدوم الكبيرة الى جانبه تكمل الفراغ . . لو وضعه بالعرض لواجه النافذة اكثر . لو تمدد بالطول فهذا العن . فليتركه كما هو ولينقل المرتبة من فوقه الى تحته . مكان ضيق محكوم تحت مستوى النافذة بكثير . فلتطل الفوهة السوداء سعة ٩ مللى ، فليطل الميزر . . لن يدركه . . اما الباب فلا بد من قفل اضافى جديد . . لو يسكن جار امامه ، لكن الفناء لعين ، مخيف . . مظلم . . رطب . . خال حتى من لمبة صاروخ . المصيبة ان الدورة فى الطرف الآخر منه . حتى قبل ان يجىء عويضة كان الفناء يبدو موحشا كالجبانة . . كالخرابة . . عدا هذه اللحظات الضئيلة التى تبدأ عندما تخطو سلوى عتبة الباب بقدمها وتقف امام باب المندرة وتصيح بصوت لين كأنه مضغ التفاح او مذاق البيتى فور او الآيس كريم فى يوم حار . . ياسعاد . . تنادى صاحبتها . عندما خرج وراءها اول مرة لم ينس طوال يومه وقفتها . يداها تحملان حقيبة منتفخة بالكتب . على ظهرها تهتز ضفيرة نحاسية اللون غليظة . اما عيناها فهما السماء فى يوم صيفى حار . . فى كل صباح ينفذ الصوت الى اذنيه يخرج ، ويطيل وقوفه امام الباب وظهره لها بينما يدير المفتاح فى الثقب الضيق ، وفى يوم من ايام هذا العام دار الى المندرة . وتصبب عرقه وتوالت دقات قلبه كقرع الطبل . بلسان مثقل همس . صباح الخير . طول النهار احس انه حمامة خفيفة . . شراع قارب صغير . ايشارب وردى حول رأس حسناء

عند توقف القطار بالمحطات الصغيرة والمحطات الكبيرة أين أنا الآن ؟ كأنهم فى الخارج يملأون هذه الميادين الواقعة أمام محطات السكة الحديدية فى المدن البعيدة والتى تزدحم بالحركة كلما جاء قطار ، وتخلو فجأة بعد رحيله يروحون ويجيئون يسألون عنى . . ربما يتقلب أبى فى فراشه الآن إذا كان الوقت ليلا وربما يجلس خلف مكتبه أو يمشى فى الشارع عائدا الى منزله لو كان الوقت نهارا . هل يذكرنى ؟ وأصدقائى والبعد الرهيب والثلوج البيضاء والسواد الذى يعقبه ضوء قوته مليون مليون شمعة ويحيل لحم الجفنين الى حمرة دامية مؤلمة مزعجة . .

— ستقول كل شىء

— اليد تطلع ثم تنزل . .

— لا أعرف . . لا أعرف . .

أصواتهم كأنها ليست من هذا العالم . .

— سنقطع جسمك قطعا أكبرها فى حجم حبة الفاصوليا . .

واليد تعلو ثم تهوى . .

الشوارع . . المطر . . المدارس . . الصحف . . المجارى . . البعض يمشى والبعض يركب . . الدببة فى ثلوج الشمال . . القرية فى خط الاستواء . . العبيد والعبيد . . يهمنى أن . . العبيد والعبيد . . تصمد وتصمد . . آلاف الأشياء تمر كشريط سينمائى اختل عرضه . . صاحوا وهرولت الأحذية . . انفصلت كتلة عن السواد . . حامت بقع بيضاء فى رأسى كالجليد كالبرد كالصقيع . . واليد تطلع . . تنزل . . تعلو . . تهبط . . تلوح . . تصفع . . تهدد . . تلكم . . تطلع . . تنزل . .

— ستقول كل شىء . . كل شىء . .

— لا أعرف . . لا . . وإن كنت أعرف فلن أقول . . لن أقول . .

(١٩٦٣)

أيام الرعب

الاسم بالكامل : محروس فياض سلامة .
تاريخ الميلاد : ٩ / ٥ / ١٩٤٥ .
الديانة : مسلم .
الوظيفة : رسام بالمؤسسة العامة .
محل الاقامة : الجمالية ، كفر الطماعين .
رقم البطاقة : ٨١٦٦
فصيلة الدم :
تجددت هذه البطاقة فى يوم ١٨ / ١١ / ١٩٦٨ .

* * *

. . . حارة الوطاويط ، البلاط المضلع ، الجدران الرمادية المنتفخة بالرطوبة ، امراة عجوز ترمش بعينيها . . بنت تمشى متمهلة تحمل حقيبتها الممتلئة بالكتب المدرسية . . انحناءة خفيفة ، عيناها جميلتان . . قشر قصب ملقى عند زاوية الحارة .

التفت وراءه بسرعة . . .

المنحنى الضيق خال . . لا أحد . .

صوت تلاميذ صغار من داخل المدرسة ، يقراون فى صوت واحد .

رجـــل . .

صوت رفيع لطالب صغير .

امـــراة . .

مصلحة الدمغة والموازين .

بائعة الفجل أمام دكان عم محمود السماك ، عند باب الحارة أبطأت خطواته . جامع سيدى مرزوق مغلق . لن ينظر وراءه ، قضبان نافذة الضريح حديدية سمراء باردة كالهواء المحيط به . . اغمض عينيه . بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين . . .

صبى صغير يدحرج طوقا حديديا ، بائع كرنب ، رجل يرتدى جلبابا صوفيا قديما ، فتاة سمراء تعبر الطريق على مهل ، لم تتوقف عيناه عند ردفيها ، عض شفتيه .

منزل رقم . . . انتخبوا . . . فريق النسر الذهبى يتحدى الشواكيش ، سينما الكواكب ، هذا المساء . . إعلان قديم تاكل ورقه . . مربع رقم « ٢٦ » فرن الحاج نصيف . .

قبل ان يدخل المندرة فى الدور الأول ، قبل أن يفتح الباب ، قبل أن يخرج المفتاح ، اطل من باب البيت القديم ، رائحة غسيل يا خس يا حلو قوى ، هل رأى بائع الخس من قبل ؟ هل صادفه فى الحارة ؟ نعم . . نعم . . بالتاكيد ، رائحة بصل يقلى فى زيت ، أم سيد الحلوة تنشر غسيلها ، تومىء برأسها لست عطيات . . الشرفات متقاربة

متعبة . . وحدة العصر الشتوية وجو رمضان النهارى يغلف الحارة . . صاحت أم يوسف . . يابت . .

لا أحـــد . .

تمدد بثيابه كاملة فوق السرير . كأن الباب له راس وذراعان وعينان ترقبانه . قام واقفا ليتأكد من إغلاقه مرة أخرى . . رائحة الرطوبة فى أنفه . . النافذة الوحيدة مغلقة . . لن يقف وراءها أحد سيلفت انظار الناس . لكن ! عندما يجىء الليل . . عض شفتيه ، مد يده داخل الچاكتة . . لكم يبدو مظروف الخطاب الذى لم يصله إلا الأمس متآكلا .

* * *

ولدنا الغالى محروس فياض . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . بعد السؤال عن صحتكم نعرفكم بأننا طيبون لا ينقصنا سوى رؤياكم . .

أما بعـــد . .

فما كنا نحب إزعاجكم ، لكنك ولدنا ونخاف عليك كما نخاف على أرواحنا بالتمام ، فنعرفك يا محروس أن عويضة طلع من السجن ، وجمع عليه مهران ولد مخلوف وبالمثل الدقل ولد الحويج ، وعلمنا انهم سهروا مع بعض كام مرة . وقال عويضة انه مادام ابوك مات ميتة ربنا يرحمه الله ويرحمنا اجمعين ، يبقى لازم يأخذ تاره منك أنت . أيوه منك أنت يامحروس . . وحلف على مصحف انه لا بد يدور عليك ولو كنت فى آخر الدنيا ، وقام طلق دقنه ، وقلب شال عمامته وحلف ما يحلق ولا يعدل الشال الا بعد ما يشرب من دمك ، واتفق معه مهران والدقل وسافروا من أسبوع قاصدين مصر . ولم يقدر راجل فى البلدة ان يمنعهم فانت تعرف عويضة وهو على حق فى نظر مشايخ البلد واكابرها . ونحب اطمئنانك فنقول انهم لا يعرفوا عنوانك ، فنحن لم نعط عنوانك لاحد من اهل البلدة لانهم ناس السنتهم طويلة كما تعرف ويخافوا من

عويضة اشد الخوف . فنحن لم نعط العنوان لاحد البتة . فخذ بالك من نفسك ، حماك ربنا ، ومن عندنا يهدوك السلام انجالنا فردا فردا ويهديك سلام خصوصى قريبنا ابراهيم خليفة واخوه فضل الله ، كما ان صاحبك السيد المهدى يذكرك على الدوام ، ودائما فى سيرتك .

وكل من بطرفنا يهديك السلام ، والسلام ختام .

● جدك

سيد أبو الغيط

●●●

دائما وجه ابيه مهموم ، كان رجلا نحيلا رفيعا كعود البوص اسمر جدا ، عيناه ضيقتان ، اذ يرجعان من السوق آخر النهار لا يجلس مع رجال القرية سواء من عائلة السماعنة ، أو عائلة الضبع ، يلقى السلام ويمد خطاه ، عندئذ يضطر محروس الى الجرى ممسكا طرف جلبابه حتى يلحق خطواته ، ينظر وراءه ، نظرات الرجال معلقة بهما . فى مرة سمع احدهم يقول ، مسكين مادام عويضة خرج من السجن يبقى اجله قرب . رد شيخ كبير يومها . ياخسارة والواحد ما قادر يعمل عشانه حاجة واصل . . يتضاعف الهم فوق الوجه النحيل . يلتفت الى محروس . . يمد يده ، تلتف اصابعه الكبيرة حول اليد الصغيرة . يسرعان . الوقت عصر . والطريق من المدرسة الى بيتهم قصير كله تراب . فوقه غبار وبرد وسكون . . بوك . . بوك . . بوك . . وابور الطحين ينفث آخر ما فى جوفه ، يسرع رجل يركب حماره . . تنتشر فى الجو رائحة التوت . عند باب المدرسة يقف ينتظر اباه . قال له : ما تمشيش لوحدك . تتغلغل رائحة التوت الى دمه . حوم فى الفراغ طير . صوته كالضحك . كالبكاء . . لم يعرف بالضبط . نبحت كلاب عالية عند اول الطريق المؤدى الى البيوت ، رؤوسها عالية كالغيلان ، يجىء ابوه . يسرع والكتب تثقل عنقه . تتدلى فوق صدره . عيناه معلقتان بالشمس النازلة . تروح الشمس . . ربما لن

ترجع . لن تعود . . صحيح ! من يضمن رجوعها مرة ثانية . تذهب ولا تجيء . عندئذ لن يضيء القرية بصيص ولو من لمبة صاروخ . سيحبس ابوه نفسه فى صومعة الغلال المثقوبة الخاوية ويضمه الى صدره ويطخهما عويضة وتختلط الألوان . . الأزرق فوق الأحمر فوق خضرة شديدة السخاء من آخر الطريق ترتفع الأرض فثمة كوبرى خشبى صغير يعلو مجرى الماء . فجأة ظهر ! ! تصلبت قبضة ابيه . ارتجف قلبه كحمامة صغيرة صغيرة جدا ابتل ريشها بماء ثلجى نفذت رائحة التوت المغموس فى اللبن الرائب الى صدره . توقف الاب . اقترب منهما طويلا . عريض المنكبين . . كبير الرأس . على كتفيه عباءة سوداء . تحتها قفطان حريرى . ربما لونه أحمر . أزرق . ابيض ، أما انتفاخ العباءة فلم يستطع ان يخفى استطالة البندقية ، رائحة عطر تفوح منه ، همس الاب ، اشهد ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله . انفرجت شفتا عويضة الغليظتان ، ظلتا هكذا لحظات ثم تشكلت فوقهما ابتسامة لها لون كيزان الذرة الجافة المهروسة . لسه . . لسه . . لسه . . يابن سلامة وقتك ما قربش . لم ينطق ابوه ، لم يرد ، اما الشمس فنزلت صامتة بعد ان فارقتهما بلا سند .

— ها . . وده ولدك محروس ! بتوديه المدرسة كمان . . والله عال والله عال !

عويضة ينقض فى عين النهار . . يختطف الطفل وفى قلب غيطان الذرة يخفيه . يرسل الى اهله طالبا الفدية والمهلة يومان فى الثانية الأولى لأول دقيقة اليوم الثالث يصل الرأس الصغير مقطوعا الى الاهل . . يعلو صراخ الام

عويضة يختطف اولاد البلدة ، لا احد يسأله . . حتى الأم الثكلى لا تجرؤ ان ترفع عينيها فى وجهه . . لا احد .

لم ينطق الاب ، ضم « محروس اليه ، فى الليل نبحت كلاب فوق البيت المجاور ، حامت رائحة خبيز ، الليل فوق البيوت كالمصيبة

كالجبل ، كالجبانة . اما وجه الأب فصامت لا ينطق ، صفحة كراسة بيضاء ، قال محروس والليل يغزو قلبه الصغير :

وساكت ليه يابوى ؟

عض شفته ، ضرب جدار الصومعة الفارغة بيده ، اهتز جسمه ورأى الصغير اباه جدارا يميل . غيط قصب يتكسر تحت زوبعة ، مركب يغرق . جمل برك تحت حمل ثقيل . سكت ، سكت ، قال :

ما فيش حد فى البلد يحمينى منه وانا عمرى ما قتلت حد . . عمرى ما رفعت دبوس ابرة فى وش واحد .

فى السواد حملق اليه ، يد خشنة قبضت قلبه ، خمشته . . امال طالبك ليه يابوى ؟ . . طالبك ليه ! !

فى الصباح كانت الشمس عالية خارج البيوت ، الاب تقدم فى العمر سنين ، عند الجسر قابلهما الشيخ محمود ناظر المدرسة .

ما تنساش فى البندر ياواد يامحروس .

من نافذة الحلزونة الخلفية المتسخة رأى اباه يقف فوق الجسر وحيدا . . ثار الغبار . . اختفى . ثم ظهر . التوى الطريق ، دمعت عيناه وكان الرجال من حوله يثرثرون .

* * *

— طالبك ليه يابوى ؟

— انا طلعت من صغرى يامحروس ياولدى ولقيت الناس بتشاور على وتقول انى مطلوب لعيلة عويضة ، ابوى قتل خاله من اربعين سنة ، قبل ما تولد وقبل ما هو ييجى على وش الدنيا . حتى لما كنا عيال صغيرين كان دايما يقول لى انا اللى حقطع جتمارك ياولد سلامة ابوك قتل خالى ، وانا اللى حاخذ تاره . امه بخيتة دايما وراه من صغره . . دايما تقول له رقبتنا فى الطين وسط البلد . خالك ما تعملوش ميتم لغاية دلوقتى . خالك دمه راح هدر . المهم يابنى انه كبر . . سرق جاموسة واتحبس . . خرج ، برضه وراه امه بخيتة . كان يقول لصاحبه انه

حيموتنى بطريقة ما حصلتش . حيموتنى وانا عند الجسر ، باصص لى وهو ساكت . ييجى يخبط على فى الليل . اصله مفترى ما بيرعاش حرمة حد فى البلد . كل ما اقابله الاقيه يقول لى لسه . . لسه ياولد سلامة . الحقيقة يامحروس انا عدت اخاف عليك منه . . دا وحش ما بيعرف ابوه ولا اخوه . انت شايف حد فى البلد قادر يرفع عينه فيه . حتى الشيخ صالح لما رحت له قال لى وانا حعمل لك ايه ديه شريعة البلد يافياض . وبعدين هو عملك ايه . . عويضة لغاية دلوقتى ما هوبش ناحيتك . انا قلت فى عقلى يابنى ابعتك سوهاج تتعلم هناك وبعدين تروح مصر . انا هنا عارف ديتها لكن ذنبك انت ايه ؟

قال والليل يثقل ويبلل لعابه بطعم السواد . . وليه انا اللى حموت عويضة ! هو راعبنى انا بس ما هو موقف البلد كلها على رجل . . مشيلها جالوس طين حد قادر يقول له كفاية . . حد قادر يقول له انت بتعمل كده ليه ؟

* * *

ربما يجلسون الآن فى مقهى ويمشون فى شارع من الشوارع ، اسبوع كامل تجوب نظراتهم الطرقات وتتفحص الوجوه ، والملامح بحثا عن محروس ، محروس فياض سلامة . اسبوع ولا يحس . ربما مر بالقرب منهم ، مشى بجوار فندق ينامون به ، فى أى مكان هم ياترى ؟ فى أى بيت ؟ أى حجرة ؟ فوق أى سرير تخفق قلوبهم لليوم الذى تنعكس صورته فى اعينهم ثم ينقضون عليه ! عندئذ يحلق عويضة لحيته . يعدل شال عمامته ، يذهب الى امه فى البلدة . تقيم ماتم الخال الذى لم يرتفع صوت نائحة عليه من اربعين عاما .

دار فى الحجرة ، نفذت الرطوبة الى عظامه ، فرقعة يومية فى الخارج تصابيح اطفال صغار ، وحوى ياوحوى . الجميع يخرجون الى الطريق بعد السكون الجامد الذى نزل فوق البيوت . اثناء الافطار تناول ما تبقى من الرغيف وقطع البطاطس الصفراء الصغيرة التى تقطر

زيتا ، اسند ذراعه الى عمود السرير الحديدى ، هذه اللحظات الأولى من الليل ، بداية السواد ، البرد ، لا يطيق البقاء فى هذه المندرة الباردة الصماء الجدران . الحبلى برطوبة تقوس العظام ، تأمل مقدمة حذائه . . بلاط الحجرة المربع الأصفر القديم الذى تكسر وتشقق وفصلته عن بعض مجارى رفيعة سوداء . . السقف العالى والاعمدة الخشبية التى تحمله ، لم يعدها من قبل ، كأنه يدرك لأول مرة ان سقف الحجرة محمل على تلك الأعمدة الخشبية ، ليس السقف فقط خمسة ادوار كبيرة . فى كل طابق اسرتان ربما . ربما احد سكان البيت قريب ، قريب أو معرفة لعويضة وجماعته ، ربما يؤويهم عنده . . لكن ! لا . . ليس معقولا ، بالتأكيد كان التقى بهم صدفة . انه يجتاز الباب الخارجى فى اليوم الواحد اربع مرات ، يخرج الى دورة المياه بالحوش ست او سبع مرات ، صحيح لا يفتح باب المندرة حتى فى الصيف فهو يعرف تماما ما سيقوله رجال البيت عندئذ . الأعزب الوحيد فى البيت كله محروس . لا ، بل فى الحارة كلها ، صحيح ، من يسكن بمفرده فى الحارة كلها ، عطفة كفر الطماعين ، عندما زاره ابراهيم افندى زميله يسال المكوجى سال الأولاد . . قالوا له :

أيوه . . أيوه . . محروس افندى ابو نضارة . . نمرة حداشر . . نمرة حداشر . . وقاده من يده ولد صغير . جاء الى المندرة . الن يسهل هذا مأمورية عويضة . لو انه دار على حارات الجمالية كلها . سال اى طفل صغير . . محروس الصعيدى فين ؟ ايوه ياعم . . جوه ياعم . .

خرجت انفاسه ساخنة . ضرب راحة يده اليمنى بقبضته اليسرى الباب صامت يصغى الى زفراته المكتومة . . لم يدر كم مرة راح وجاء فى المندرة . لم يدر كم الف متر قطعها فى هذه العلبة ؟ قاسها بخطواته . . ست ان افسح الخطى . . سبع اذا مشى على مهل ، قال ركن المراة فى جريدة قراها منذ ايام ان ربة البيت التى لا تغادر دارها تقطع فى اليوم الواحد سبعة اميال . شرع فى ابتسامة ما لبثت ان تلاشت . . كتلة

الخشب خرساء . . القفل وحيد وليس متينا . . لا بد ان يشترى واحدا اضافيا . . اما النافذة المطلة على الحارة فالقضبان الحديدية لا تدع مسافة كافية للمرور من خلالها . . لكن ! لكن . لا يمكنه فتح الضلفة الخارجية . . عويضة دائما يحمل مسدسا . عويضة تاجر مخدرات . . عويضة لا يتحرك في البلدة الا وتحت عباءته كارل جوستاف . اما في المدينة فلن يخلو من فوهة سعتها ٩ مللى ابدا . ابدا . . ربما تسللت الفوهة بين القضبان . . السرير في مواجهة النافذة رأسا . . ترى في اى مكان يبعده عنها ؟ المساحة ضيقة وشنطة الهدوم الكبيرة الى جانبه تكمل الفراغ . . لو وضعه بالعرض لواجه النافذة اكثر . لو تمدد بالطول فهذا العن . فليتركه كما هو ولينقل المرتبة من فوقه الى تحته . مكان ضيق محكوم تحت مستوى النافذة بكثير . فلتطل الفوهة السوداء سعة ٩ مللى ، فليطل الميرز . . لن يدركه . . اما الباب فلا بد من قفل اضافى جديد . . لو يسكن جار امامه ، لكن الفناء لعين ، مخيف . . مظلم . . رطب . . خال حتى من لمبة صاروخ . المصيبة ان الدورة في الطرف الآخر منه . حتى قبل ان يجيء عويضة كان الفناء يبدو موحشا كالجبانة . . كالخرابة . . عدا هذه اللحظات الضئيلة التى تبدأ عندما تخطو سلوى عتبة الباب بقدمها وتقف امام باب المندرة وتصيح بصوت لين كأنه مضغ التفاح او مذاق البيتى فور او الآيس كريم في يوم حار . . ياسعاد . . تنادى صاحبتها . عندما خرج وراءها اول مرة لم ينس طوال يومه وقفتها . يداها تحملان حقيبة منتفخة بالكتب . على ظهرها تهتز ضفيرة نحاسية اللون غليظة . اما عيناها فهما السماء في يوم صيفى حار . . في كل صباح ينفذ الصوت الى اذنيه يخرج ، ويطيل وقوفه امام الباب وظهره لها بينما يدير المفتاح في الثقب الضيق ، وفي يوم من ايام هذا العام دار الى المندرة . وتصبب عرقه وتوالت دقات قلبه كقرع الطبل . بلسان مثقل همس . صباح الخير . طول النهار احس انه حمامة خفيفة . . شراع قارب صغير . ايشارب وردى حول رأس حسناء

يتطاير مرحا فى هواء ربيعى . . صباح الخير . . وللمرة الثالثة ردت . . لكن ماذا بعد . قال له حسن صاحبه . كلمها ما تبقاش لخمة . لكن البيت والجيران ، ماذا يفعل ؟ الان لا يعرف ما تفعله سلوى ؟ فى هذه اللحظة بالذت . قام واقفا . لا بد ان يخرج . . الى أى مكان ! ميدان الحسين يزدحم بالعربات . . طوفان ضوء يغرق الشوارع المحيطة به . فى الزحام يستطيع المشى متخفيا لكن لو التقى به فجأة ! الثلاثة . . جدار أصم يطفح غيظا وغلا . طعنة بسيطة فى الجزء الامامى من الجسم ولن ينتبه احد . . لكن حتى لو رأى عويضة . هل يعرفه ؟ من سنين . من الصغر . لم يره . . لم يحملق اليه . كل صبى فى البلدة يعرفه . اما هو فنسيه . لا يذكر غير عينيه الحادتين والرقبة الغليظة . . والعباءة السوداء .

* * *

الجدة بهانة . .

الله يقطعه طالع لأبوه . . جسمه طويل زى الجمل . كتافه عريضة ورقبته فيها ذراع . طول النهار ماشى رايح جاى فى البلد ما حد قادر يلمه . . ما خلى مرة من نسوان البلد الا ومردغ سمعتها فى الطين . مكسور الرقبة قعد ورا البت صفية لغاية ما رجعت فى يوم من الخلاء وحرقت روحها . . داهية تخفس بيه الأرض . .

الود السيد . .

اسكتى يادادة احسن حد يسمعك يروح يدله (يقول له) . . ! !

* * *

لبن زبادى . زينهم بائع اللبن . ليس بالتأكيد بائعا آخر ، الحارة الهواء البارود . الليل المظلم ، هؤلاء الصبية الملاعين . . لو انهم لم يكسروا المصباح ، دخان خفيف ، الفرن القريب يستعد لعمل كحك العيد ، الخطوات تقترب . فجاة فى هذه اللحظة . تلك الثانية . كأن انفجار دوى اماه . ابرة ثقبت رأسه حتى اليافوخ . ضبع نهش بطنه

وراح يلحس أمعاءه على مهل وما زال حيا . فجأة ! ادرك ان حياته فى خطر . كانه لم يعرف هذا من قبل . ربما مات الان . . بعد ساعة ، بعد يومين . . حتما سيحدث هذا . بل ان اى شىء يمكن ان يقع الان تستحيل البيوت الى ضباب ازرق فاقع . يطل لسان احمر مبلل باللعاب من شق . يفتح فجاة فى السماء . . يتحول الناس الى ذرات صغيرة . ينفتح تحت قدميه ثقب يغوص فيه حتى يصل الى البلدة المقابلة على الطرف الاخر للكرة الأرضية . اى شىء يمكن ان يقع . . انغراس الجسم المعدنى فى لحمه هو . . عظامه هو . . لكن متى ! ! كيف . . اين ! ! لا يدرى ، عندئذ يغمض عينيه . . ولا يطل على شىء فى الدنيا . . ابدا . . ابدا . .

* * *

بعد التحية . .

نلفت نظركم الى انكم تغيبتم عن العمل خمسة ايام بدون تقديم عذر رسمي . ولما كانت اللوائح لا تسمح بالاجازة العارضة أو التغيب المفاجىء . . لهذا ننذركم بضرورة . .

مدير شئون العاملين

* * *

بائع يانصيب يطوف بالمقهى والقش يملأ الطريق فى الخارج يخفى قمة السور الكبير امام بوابة الفتوح . . يتثاءب الرجال فوق عربات الكارو الصغيرة . . شرب ما تبقى فى كوب الحلبة المطحونة ، صاح رجل . . بصرة ! ! ضحك شاب ، مر الجرسون ، يرتدى جاكتة حكومية صفراء قديمة حاملا صينية كبيرة مثقلة بأكواب الشاى ، نفث سحابة دخان ، للمرة الثالثة ينظر الجرسون اليه ، الصق جبهته بالزجاج . . لا احد بالخارج ، حتى لو دخل هنا فلن تنفذ رصاصته بسهولة ، هؤلاء العجائز والشبان لا يعرف واحد منهم لكنهم لن يتركوه يذبحه . . وعويضة مجرم لكنه جبان . . لم يقتل واحد من ضحاياه العديدين

وجها لوجه ابدا ، دائما تتسلل فوهته من بين اعواد الذرة ، من نافذة بيت ، لهذا قتل الكثيرين ولم تثبت عليه جريمة واحدة حتى اليوم . . في مواجهة الباب صورة قديمة باهتة الألوان مبقعة بهباب الفحم الدفين ، رجل يركب حصانا باهت الملامح مضيع الوجه ، الف الف ليل ونهار خطا فوقها ، في نفس المكان ، الجدار . امام المدخل ، لو أن الايام تمشي الى الوراء - ١٩٦٧ - و ١٩٦٦ ، العام القادم بعد عشر سنوات نصبح في عام ١٩٥٥ ويكون البرج لم يشيد بعدَ ، وسلوى الحلوة الرقيقة لم تدخل الابتدائي . . اما ام سيد الشهية فصبية ناضجة يترجرج نهداها اذا ما نفضت عن شباك بيتها غباره ، وتمضي اربعون عاما ويجيء ١٩١٥ ، ترى من سيولد قبله ويراه ، أي حنين يأكله الى هذه الأيام ؟ الشوارع الضيقة ، الرجال يمشون تحت البواكي . . الفونغراف فوق منضدة عالية . . زبائن المقهى يتبادلون الضحكات ،المعلم في الصدارة ضخم غليظ الشارب ، يغني شاعر الربابة ، يتوقف ، يتراهن الجميع ، من سيغلب ؟ ابو زيد ولا دياب ؟ يصيح فريق ابو زيد ، ويصيح الفريق الثاني . . لا دياب . في شارع رئيسي ينطلق رصاص محموم يستقر في لحم طري وحناجر يرتدي اصحابها الطرابيش . . الموت التام أو . . بائع صحف اللطائف . . المقطم . . البصير ياجدع . .

آه . . لو يرحل موغلا في البعد اربعين سنة ، لو انه يملك اسطوانات قديمة تدور على مهل ، تتعثر الابرة ، تتوه في ملفاتها العديدة ، الأصوات صفراء رفيعة . . هيه يارائحة الزمن الذي لا يعرف في أي ارض من اراضي الله اوغل وبعد . . آه لو يرحل . . هناك لن يرى عويضة ، لن يلمحه . . الامان . . الأمان للمتعب المحكوم عليه بالموت حتما . راحة القلب المتهالك المخنوق المرعوش أبدا اللوحة صامتة كأنها تقول : سأبهت ابدا . . لن ترجع الواني الى زهائها . صاح رجل معمم . تكاثف الدخان . فجأة . ! اقترب الجرسون منه

— الاستاذ . . يعنى لو سمحت . حضرتك . جارنا ولا . .

بلع ريقه . . اى عقارب تنسل لتشهر ذيبانها فجأة . . ماذا تقصد يابن الأفاعى . . لم السؤال ؟ تلفت حوله ، انحنى ، كاد رأسه يلامس جبهته . .

— بصراحة يعنى . . كده جدعنة ، يعنى فيه كام زبون هنا متعودين اخر الليل يلفوا كام سيجارة ، حاجة بسيطة كده . خايفين لتكون من رجال الشعبة . . وانت عارف الزبائن . . وعلى العموم المعلوم .

— لا . . لا . . انا جاركم هنا . . انا مش من الشعبة .

أى حفرة وقع فيها ؟ جار لهم ؟ كيف يقول ذلك ببساطة ؟ صحيح البيت بعيد لكنها نفس المنطقة . ما الذى لا يدريه ان سؤاله لا يخفى غرضا اشد فتكا . فليقم فورا ، ثلاث ليال يجىء الى المقهى . لن يطيل الظهور فى مكان واحد أكثر من ليلة . . العيون تعرفه وتعرف عويضة ، كفت الأيدى عن القاء الزهر . . خرست طرقعة الطاولة . مجذوب فى الركن يحملق اليه . . زحف النمل تحت جلده . ذرات الرمل الساخنة فى عروقه بدلا من الدماء . حسابك ! يرقبون ما تخرجه يده ، سقط قرش ، لم ينحن . . الهواء بارد . بوابة الفتوح . سوق الليمون ، رائحة الحنين الغامض المعذب . المئذنة سوداء غريبة فوق السور فى الجدران حفر ضباط فرنسيون اسماءهم منذ مائة وسبعين عاما كأنهم يطلون عليه ، يخترقون ظهره بنظراتهم . . حسابك ! وكأن الجميع ، كل من فى المقهى . . فى الشارع ينظر اليه . اما الهواء البارد فثلجى موحش .

● ● ●

وأرسل « عويضة » مكتوبا الى أمه بخيتة قال فيه انه قرب خالص منك . . وكما أخبرها بأن تستعد لتقيم مأتم على أخيها فهو كما تعلمون لم « ناحت » عليه ندابة من أربعين سنة . . فرجاء تطمئنونا بكلمة لأن « عويضة » جعل الشيطان يركبنا . ومن عندنا الجميع . .

* * *

لو أصحابه عرفوا ما يهدده . .

ها . . أصحابه . .

أى أصحاب ، حسن ، لم يفترقا أبدا ، السهر حتى منتصف الليل ، العودة إلى بيتهما ، الطريق البارد ، المصابيح فى نهاية الأعمدة الطويلة ترقبهما ناعسة ، فى العصر قبل انتهاء النهار ، ما أحلى شارع الموسكى ما أن يتجاوزوا شارع الخليج وتمرق عربات الترام الخضراء حتى يحوطهما الزحام ، صياح الباعة ، فانلات ، شربات ، التاجر بيفلس يا جدع البلوفر بثلاثين قرش ، من المقلة يشتريان الفول السودانى ، يهمس حسن بكلمات خافتة فى آذان الفتيات ، عند العتبة ينتهى الزحام ، يجره محروس إلى سور الأزبكية ، كل كتاب بقرشين ، أدب . . علم . . فلسفة . . كله بقرشين المكاتب بتقفل يا جدع . . رائحة العصر فى الطريق . . عربات المدينة تمضى مسرعة . . أصوات موسيقى من دار الأوبرا . . وسط الميدان يقف التمثال الرمادى ، كتلة من الرصاص جامدة وإشارة من فارس النحاس بلا معنى . . إلى أين يا حسن . . تنطلق المياه من النافورة الصغيرة ، الهواء ، الأمان . يكلمه عن سلوى . بعد طول تردد قرر أن يكلمها . خرج من الباب ، كانت ترفع رأسها على وشك نداء صاحبتها ، أومأ برأسه ، أحس بها تنتظر شيئا ، فسألها عن مدرستها وأين هى فقالت الحلمية الثانوية ، لم يدر ما يقول بعد ذلك ، كيف يدفع الحديث من جانبه . سألها عما إذا كانت تذهب كل يوم . أومأت برأسها مخفية ضحكة . حقا لكم هو سخيف وهل هذا سؤال ؟ عندئذ يصيح حسن غاضبا . غبى . . كان السؤال الطبيعى متى تخرجين ثم تتفقان على ميعاد . حسن هو القلب الوحيد الذى يقتسم معه ما ينوء به . . أين هو الآن فى أى بلدة أى شارع ؟ عندما وقف يتأمل الطائرة عن قرب بكى . . عض شفتيه . . لمح الطيار يقف مرتديا حلته الأنيقة . . سعيد هذا الانسان الذى ينطلق بسرعة الف كيلو متر فى فضاء نهائى سحيق . . أين أمانى الطفولة ؟ فوق البلدة . .



لسبب ما تمر بين حين وحين طائرة ، يرفع راسه ، يجرى يتابعها ، لكم
ود أن يصبح طيارا ، دائما يرسم صور الطائرات فى أوضاع مختلفة ،
فوق منضدة قهوة ، فى مكتبه ، بل انه يحتفظ بكتاب يحوى كل انواع

الطائرات ، جاء حسن مسرعا ، عيناه تضحكان . . الليل حولهما غميق اسود ، غريب ، امتلأ الهواء المتسرب إلى مخبئه الأمين عندما تابع الجسم الصغير يبتعد فى الهواء لم يصدق أن هذه المساحة الضئيلة تضم (حسن) . . وسنوات عديدة من عمره . وقتها رأى بلاط الشرفة العريضة سلاسل رفيعة مزقت جسمه ، أثقلت قلبه أطنان الحديد ، قضى الليل كله ، زمانه فوق قبرص ، الآن نزل بمطار أثينا ، بعد أسبوعين وصله جواب . لن أنساك يا محروس . . بعد شهرين . . أنا سعيد يا محروس . أرى كل يوم ناسا غير الناس . أحن إليك ولكنى هنا حمامة لا قيد لها ، ومن شهر لم يصله المظروف ذو الطوابع الأجنبية ، لن أنساك ، أبدا نسيه . ذاب حسن فى بلاد الثلج والضباب ، لكم اشترى مجلات أجنبية ، ربما رأى حسن فى صورة شارع مزدحم . أبدا لن يراه ، لا يعرف حسن أى دقائق تمر عليه فتصرع روحه فى كل ثانية من ثوانيها الستين ، لو معه الآن لأقام عنده ، لو سافر معه لن يهتدى عويضة إليه أبدا ، زملاء مدرسة الصنايع تفوقوا فى البلاد وابتعدوا ، قابل إبراهيم ، شاربه كثيف ، أنت فين . لازم نشوفك . اتفقا على ميعاد . لم يذهب بالتأكيد ، هو لم يذهب أيضا ، لو قابله الآن ، وقال له أن عويضة يطلبه ، قطع ستمائة كيلو متر من أقصى الصعيد ليبحث عنه ، سيبدو الخوف فى عينيه ، يتطلع إلى البنايات المحيطة . . النوافذ ، ربما يطل عليهما عويضة من مكان ما ، يستمعهما بأذنيه الحادتين . فى حقول الذرة وسط وشيش الريح يسمع بهما خطوات الأقدام على بعد أربعين ذراعا ، سيجرى إبراهيم . . هكذا كلهم عدا حسن ، حسن الذى راح ، نسى حتى الخطابات ، لو أنه سافر معه ، ركب البحر ، يبتعد عن الأرض التى يحبو بها عويضة ، ينزل فى الموانىء ، البعيدة . يرى وجوها غريبة ، نسمات هواء على شاطىء بحر أزرق عميق ينبض كالرئتين ، الأطفال كالأرغفة الساخنة الطرية . أصابعهم فى أفواههم . الطائرة تنتقل من مدينة إلى مدينة . . . سيداتى

سادتى وصلنا . بعد قليل سنهبط فى . . لكن لا أمل فى رؤية هذا . سيظل يرى نفس البيوت ، الشوارع ، الناس يجول بينهم عويضة . لن يلحق حسن ابدا ، ربما انقض عويضة الآن . انه لا يصدق وجود هذه البلاد الغريبة . . صور الجبال المكسوة بالثلوج البيضاء كاللبن زائفة . لابحار واسعة تعجز العين عن رؤية آخرها . اوهام بحارة عجائز سافروا ورجعوا بلهاء مجانين . . أما حسن فاختطفه الطائر الحديدى ليغوص به فى فراغ عتيم ، ليس من المعقول انه فى مدينة يطلع النهار عليها الآن وهو هنا تحت السرير وعويضة يجس المدينة بست عيون وست آذان لا وجود لمدن يمرح الربيع فيها ، لا رجال قصار يرتدون الفراء يعيشون فى الثلج . الصور وهم . الخيالات المتحركة بهجة مزيفة لمثل مسلول . الحقيقى ، الصلب كالجبل ، كغيطان القصب ، الموجود عويضة ينهى كل شىء فى لحظة . يمحو الضحكات والدموع وقلق الليالى وفرحة القلب عند رؤية سلوى . كل ما رآه . قبل انطلاق المدفع دخل الحارة ربط الحذاء والتفت إلى الوراء ، لا أحد عند المنحنى قبل الفرن ، يقف رجل عجوز طاقيته تغطى رأسه تنزل حتى عينيه . چاكتته بنية اللون تآكلت عند الكوعين . بشرته ملساء كأنها ستتفجر بالدم . يسند يديه إلى صندوق صغير مصمت الجوانب سطحه زجاجى ، قوائمه أربع رفيعة عالية . صاح طفل ، ألقت امرأة بمياه من طابق علوى . هذا العجوز لم يره من قبل . حملق فيه . عيناه لا تتحركان . مفتوحتان واسعتان لكنهما لا تتحركان كأنه لا يشعر به . ربما يتصنع . نزل العرق من جسمه . بدا الصيام له قاسيا قاحلا . امتلأ حلقه بقشر سمك ، كاد يصيح فيه من أى أرض هو . هل هذا وقت يبيع فيه للناس . اندفع فجأة صبى عرفه . يوسف ابن زينب التى لا تشبع عيناها أبدا . بتعريفة حمصية يا عم حسين . اهتز رأس عم حسين . كاد محروس أن يصرخ خوفا عندما سمع صوته . صوت رفيع رفيع جدا كخيط نحيل ومتسلخ . حمصية ولا سمسمية . جالت يده داخل الصندوق . أخرج

قطعة الحلوى المرصعة بالحبات الصغيرة الصفراء عاد يحملق فى الهواء ، على وجهه ابتسامة سخرية ، استهزاء . وفجأة رفع يده . قبل باطن يده وظهرها عدة مرات . اهتزت دماغه . اندفعت الدماء إلى قلب محروس . هذه الحركة ملأته بقشعريرة كالصداع . يوسف الصغير ينظر إليه . . انتبه إليه . أمسك يده . مين ده يا يوسف ، عم حسين . دى أول مرة يقف هنا . أبدا طول عمره ساكن هنا . بس ما كانش بيطلع من أوضته تحت السلم أبدا . مرة أخرى ، عم حسين يقبل يده . ضرب الأرض بحذائه ، أغلق باب المندرة جيدا . ، عاد يتأكد من إغلاقه . ، زعق راديو . . موسيقى كئيبة حزينة . فى البندر كان يقف على سلم المحطة . السلالم عريضة والرجال يجلسون القرفصاء . أمامهم مقاطف وصفائح وصناديق منبعجة وقلل فخار . عابروا الميدان قلائل . المقهى الكبير فى مواجهة المحطة باهت الطلاء يتصدره إعلان قديم . ، سجائر سمسون . . معدن كوتاريللى . . ومضت بقرة بنية اللون . سمينة تعبر الميدان متمهلة . صفرت قاطرة ، نزل هدوء غريب كأنه الصقيع فوق الغيطان آخر الليل . من أحشاء الحوارى . موسيقى لونها نحاسى . طويلة كأنها آخر زفرة لطفل يرحل عن البيوت والخضرة ، تخفت ، تعلو كالنحيب ، انقبض قلبه ، مصمصت النساء شفاههن . بدا رجال قصار يلبسون أردية صفراء ويحملون أبواقا نحاسية كبيرة . يضعونها على أفواههم لحظات فيحوم النحيب وينبض صداع القلوب ، يخفضونها فيسمع نواح النساء الماشيات وراء الرجال . أغمض عينيه عندما رأى الميدان خاليا ، فوقه صفرة غريبة . أما الهواء فدسم كماء ساخن . فى هذه اللحظة دخل القطار المحطة . لا يدرى إلى أى البلاد سافر يومها ، ولا أى شخص يجلس الآن فوق المقعد الذى أسند ظهره إليه يومئذ ، أين راح اليوم نفسه . النهار الزجاجى . الآن يقول أنه ربما لم يمر يوم كهذا ولم يمت أحد . أى شىء يعلمه عن حال الجثمان المدفون من سبع سنوات ، اليوم الأول كما هو . الثانى تجحظ العينان

وتنتفخ العروق ، ينزل حارس القبر ليسرق الكفن . فى الثالث يعلو البطن وتنمو آلاف المخلوقات الصغيرة لتأخذ نصيبها من الحياة ، شد الغطاء حتى عنقه . تأمل خشب السرير والمرتبة ، أمن المعقول هذا ؟ فى يوم معين ، لحظة بعينها يغمض عينيه ولا يفتحهما أبدا . أبدا . . لن يسمع ولن يرى . . أما هو فما أقرب اللحظات . لن يكف الوريد عن ضخ السائل الأحمر فجأة . لن تخرج الذبابة الزرقاء ، ترفرف بجناحيها ليتلقاها ملائكة اليمين والشمال فيسألوها الحساب . عويضة هو الذى حدد ميعادا لكل هذا . ترى هل عرف البيت أم لا ؟ اما هذه الليلة فلم يمر ابرد منها طوال الشتاء . ينتهى رمضان ، لساعاته مذاق غير المذاق . كم مضى من الليل ولم يتبق عنده اكل للسحور . يجىء زينهم بعد قليل ويشترى منه سلطانية اللبن . صوت خطوات ثقيلة ، رفع رقبته . . أصغى . الوقع ثقيل . لم يتعود سماعه فى مثل هذا الوقت . . كل ليلة . هل هو الحذاء الأسود والرقبة المحلاة بقطعة استك صغيرة تبيح للقدم الغليظة ان تنزلق داخله . . ازدادت الخطوات وضوحا . أين المخرج ؟ النافذة . القضبان الحديدية . . دخل الحذاء ، باب البيت . . فى الفناء تردد أمام الباب . . صمت ! بلع ريقه . أرهف اذنيه محاولا التقاط صرير البلاط تحت الثقل المخيف نزل سكون قاس . . حد سكين . . ماسورة ميزر . . اين راح ؟ ربما ينتظر حتى حين تحين الفرصة . آلمته رقبته المتصلبة . السرير يخنقه . . خرج من تحته على مهل محاذرا أن يحدث صوتا ولو ضئيلا فجأة توالى صوت عصا تصطدم بجدران البيوت . فوق النوافذ صوت عجوز كالماء البارد فى يوم حار تسرب اليه :

— وحد الله ياعم سيد . ياعم صالح وحدِ الله . ياسى سعودى ياعم نادر وحد الله . . يامحروس افندى . .

لا . . لا داعى . قفز ناحية النافذة ، صاح من ورائها :

— عم عبده . . عم عبده .

نزل صمت لحظة ، جاء صوت الرجل من الخارج متسائلا ، اجابه بصوت خال مرتجف :

— ما فيش داعي تنده اسمي . . انا دايما صاحي . . و . . عيديتك محفوظة .

بدأ العجب فى صوت الرجل عندما اجابه موافقا ، لكن من يعلم ؟ ربما لم يكن هو صاحب الخطوات . ربما لم يهتد الى البيت . ربما تصادف مروره ، يسمع النداء . . عندئذ يكون سلم نفسه اليه . . أمض . . أمض ياعم عبده .

— وحد الله . . وحد الله يا نايم .

* * *

توقف حسين المكوجى عن العمل . . سال صبيه :

— مش محروس أفندى اللى دخل ده من شوية .

— آه . . افتكرت هو .

لوح الأسطى حسين بيده :

— نسيت أقول له ان واحد سأل عنه ، ابقى فكرنى أقول له ؟

* * *

— فيه سبانخ وكوسة وبسلة . . وفيه مكرونة بالفرن وكباب وكفته . .

الدخان يحمل رائحة اللحم المشوى . . المريلة البيضاء الكتابه فوقها بحروف حمراء متسخة . مطاعم الحسين . الجالسون فى المطعم قلة . هذا العجوز بجوار الجدار . . امرأة بيضاء فستانها أخضر . . ورجل أقصر منها يجلس أمامها فى الطريق الخارجى . شبان يلوحون بأيديهم يغنون . عويضة لا يأكل الآن فى المطعم . . ليس بين الموجودين . . ربما يقف على ناصية الطريق يرقب الشارع . لكنه ليس بالداخل :

— أيوه يا استاذ . .

ما زال ينتظر . أى شىء يأكله ! من أيام لا يعرف غير الجبنة

والحلاوة الطحنية . .

— سبانخ . . ارز .

الوجوه تتتابع . الأضواء فى الخارج . حمراء وزرقاء وخضراء ، خادم القهوة المقابلة يروح ويجىء بسرعة . . الزبائن يتكاثرون ، سحابات البخور والضباب تتصاعد لتملأ الفراغ .

عربات الباعة الصغيرة تصطف على جانبى الميدان . . المئذنة الرشيقة تطعن الفضاء . لو وقف فوقها لاستطاع رؤية كل آدمى فى المدينة . . فى البلدة يصعد الرجل ليجنى البلح من النخيل ، يطلق صوتا ليحذر الحريم فى البيوت المحيطة المنخفضة . . اما عويضة فلو انسرب الى المئذنة واستند الى الحاجز الحديدى ! سيعرف اين يخطو ، كم مرة تنفث فى الثانية ! كيف ينبض قلبه ! الأمنية التى تجول بعقله ، نوعية الذكرى . اهل البلدة يعرفون ان عويضة يلم بكل شىء عن ضحيته قبل انقضاضه . عندما قتل الأعور جاد الله كان قد اختار التوقيت الذى يتمدد فيه بين ذراعى امرأته سعدة التى يشتهيها ويشتهى مصاغها . لن يغيب أى شىء عنه ، هكذا يعلم الجميع .

تلفت حوله . . الطبلة والمزمار من الطرف المقابل للميدان . طلبة يزعقون . يضحك شبان حوله . شنبو يا شنبو . . يهزون خصورهم ، نظر اليهم وقرض شفته . كانه يقف على قنطرة صغيرة والماء يتدفق هادرا من تحتها . اضحكوا هزوا أردافكم يامن يماثل تاريخ ميلادكم ميلاده . . التصقوا بالبنات ، احقيقى انكم بعيدون عن عويضة ؟ لو أعجبته ساعة فى معصم احدكم لتعقبه وقطع يده . . لو اشتهى صاحبة واحد منكم لأخذها فى وضح النهار والشمس تغلى فى السماء ولن يجرؤ أحد على هز اصبع فى وجهه ، صاح منادى العربات . . نزل رجل حول رقبته كوفية حمراء منقطة بدوائر بيضاء ، دار براسه ، رفع المنادى يده بالتحية . أشار الرجل الى البيوت القديمة القائمة عند ضلع الميدان الشمالى :

— ايه ده ياريس !
— دى بيوت ياسعادة البيك .
هز رأسه . . ابتسامة تودد على وجه المنادى ـ أشار الى المجذوب حامل وعاء البخور .
— أيه ده ياريس !
— دا بنى آدم ولا مؤاخذه مجذوب يابك .
هيه ، الى الحسين ، اين غاب عنه ، من سنين لم يعرف الطريق الى هذه الهدأة السكونية التى تلفه منذ مئات السنين ، على بعد خطوات منه ولم يدخله ، لم يقبل ماوى الرأس المفصول عن الجسد والذى طار من كربلاء الى مصر مدة أربعين يوما لتخفيه أم الغلام المسكينة الفقيرة وتفتديه برأس ابنها ، عويضة لن يقبل الفدية ولو كانت خزائن قارون وكنوز سليمان الحكيم ، كيف يرفع راسه وسط الناس ، لابد ان يجز عنق محروس . المقصورة مغلقة . فوق الباب الحديدى المزخرف ورود حمراء كبيرة ، بالمدخل هدوء غريب نفذ حتى نخاعه ، فى حائط الباب الأخضر خارج المسجد شق لا يروح العطر منه . قال الشيخ العجوز إن الرأس حط هنا بعد رحلته الشاقة . ومن يومها والعطر الحزين لا يفارق المكان ، قال الشيخ الحزين ايضا لو كشفوا عن الحسين الآن لوجدوه على حاله ، ملأته دهشة . أكد الشيخ ما قاله . ها هو يرى سيد الشهداء ، رأسه الحبيب الطاهر الذى لم يكف عن ذكر اسم الله طوال حياته . يدخل المقصورة يسيل الضوء ناعما وقورا ، انه يرى سيد شباب أهل الجنة ، هذه الخضرة بجوار الحبيب . تحت السقف العالى المرتفع ، هنا وليس فى اى مكان اخر لن يستطيع عويضه اللحاق به . فليدخل ، الحبيب سيصفح عنه ، يغفر له ، انه ظل سنوات يمر كل يوم اربع مرات أو ستة ولم يدخله بل لم يفكر فيه . الآن لن يغادر المكان ، بالداخل امان لن يعرفه الا هنا . بجوار الجسد الذى لم تجف دماؤه ، ولن تجف حتى ينفخ النفخة الثالثة فى الصور ، نفخة طولها اربعون ـ

الف سنة ، يعقبها صمت اربعين الف سنة ، وينفخ نفخته الثانية ، ثم يجيء نفس الصمت حتى ينفخ النفخة الثالثة . لكن الباب موصد ياسيد الشهداء ، المقصورة مغلقة ياعصب العين ، ياصاحب الدماء الذكية ، ياربان السفينة ، عويضة يسعى وراءه ، يقتفى رائحته ، يتسمع صوته ، همسه ، حركاته وسكناته ، عويضة يقتله فى هدوء ، قم يازينة شباب الجنة ، ياملجأ الشاة المذعورة من الذئاب يانور الأرض ، محروس يناديك أنت ، أيوه ، قتلوا ابنك فى حجرك بعد ان منعوا الماء عنك . جرحوك مائة وسبعين جرحا ، ذبحوك واحتزوا راسك وداسوك . آه لو يدخل فلن يفارقك ابدا ، ولن يقوم من جانبك وفى كل عام ، فى نفس ميعادك ، يقيم الندب عليك سنة بأكملها حتى تبعث حيا . . لو يدخل . . لو يستكين . . الباب موصد .

المبنى الخشبى زخارفه صماء . . بكى . . يد تقبض قلبه كانه صبى صغير تركه أهله ونزل عليه الليل فى الخلاء بعد أن دخلوا الملجأ الأمين . قعد بين الرجال ، الجميع يحملقون الى شرفة خشبية عالية ، لم ير شيئا . الجميع صامت خاشع . مال الى الجالس بجانبه يستفسره ، قال الرجل وكان عجوزا جدا . . جبنه قديمة ، قفاه نحيل ، يصلبه عرقان غليظان جافان .

— قارىء جديد صوته احلى من صوت عبد الباسط .

ياه . . منذ متى لم يكلم أحدا . . كانه يحرك لسانه بيده . .

— ياترى حيقرأ سورة ايه ؟

لم يرد الرجل . . النجف الثقيل ينوء به السقف الملون . . رجل يحمل قربة ماء ويمسك أكوابا نحاسية ، تناول منه كوبا تسربت برودته الى لحمه ، ما ألذ الماء فى هذا الوقت من الشتاء ، نهاية العام ، أومأ الرجل شاكرا ، عاد يتتبع زخارف السجادة المعقدة المتشابكة ، رفع رأسه . الرجل يحمل قربته ، ينظر اليه غاضبا .

— تعريفة ياأستاذ .

كالملسوع انتفض ، بحث في جيبه عن القطعة المعدنية الصغيرة انصرف الرجل مبتعدا . . ياكريم . . الكل يحملق ناحية الشرفة الخشبية العريضة . . لا صوت ، وقف ، اى ضجة ثقيلة فو ارض الشارع ، الطريق مغطى بالرؤوس ، نزل تحت الرصيف الى اين ؟ البيت ! المخبأ ! تحت السرير ! ربما ينتظره بجوار دورة المياه خارج المندرة ، ربما عند الناصية . لا يعرف الى اى الناس تنتمي هذه الملامح التي وصفها له حسين المكوجي ، لكن هذا الغريب رفض ان يقول اسمه ، بل وساله عن ميعاد دخوله وخروجه . . لابد ان ينتظر والزحام سيتلاشى بمجرد عبوره حارة الوطاويط ، تصبح الشوارع وحيدة قاسية شرهة الى الدماء تماما كما سيجد ميدان الحسين ثانى ايام العيد . . تذوب كل هذه الضجة ، كثيرا ما عبره في الليل . يبدو متسعا خاليا تماما ، الا من شحاذ يفترش رصيف الجامع . بائع لبن يغلق ابوابه لكم يبدو الحسين وقتها وحيدا عجوزا تثقله آلام سنين طويلة من الغربة ، آه لو ان المقصورة مفتوحة . . الف الف سنة والرأس لم يلتق به ابدا . . أبدا . . اما عويضة ، فما أقربه ، لن يرجع الى المندرة سيمضى بين هؤلاء حتى يبدو النهار الأزرق ، مضى حول الميدان ، لو سلوى معه ، اى أمان يحوطه ، أى مشاعر تريحه ، منذ شهر وكانت انفاس الخريف تحتضر أمام زحف الشتاء القاسى . . رآها تعبر الميدان بمفردها متجهة الى محطة الاوتوبيس ، صمم ان يكلمها ، تردد أمامها كثيرا . اندفع وتدفقت الدماء من قلبه الى أقصى أطراف جسمه ، ركبت ، ركب ، نزلت . . كاد ان يحاذيها بقرب هذه الحديقة الصغيرة . عندها تراجع فجأة ، كأن يدا لطمته ، تهاوى على المقعد الرخامى وراح يرقبها تبتعد . ذراعها في ذراع شاب . ربما يشبهه ، ربما لا يقل عنه . . اى عجز ثقب قلبه . الوقت عصر والشمس فوق النيل لا تبين . عبر الكوبرى . أى وحدة مرهفة كسن موسى مصقول آلمته ؟ حتى حسن راح ، لو معه لحكى له ماهز قلبه . . لكنه بعيد . وسلوى نائية مثل

كهوف الجليد ولا أصدقاء . . لا شيء غير وجوه غريبة تمر حوله ضاحكة زاعقة . . هامسة . . حتى المئذنة بعيدة . . لا يجرؤ على الرجوع . . لكن الى اين ؟ هل صدمه أحد ؟ . . رجل عريض طويل . . جلباب بلدى . . معطف وبر الجمل . . ابتسامة خفيفة على وجهه ينظر اليه . . لا يذكر ملامح عويضة .. لكنها اوصاف المكوجى . . التفت وراءه . . غاص قلبه . . اين الرجل ؟ لا يعرف عويضة . لكنه سيشم رائحته . . عويضة قريب من هنا . . ربما دخل واحد من هؤلاء . . الخطاب فى جيبه من البلدة يقول ان اللعين ارسل لأمه يامرها بتجهيز مناحة على الخال المقتول من زمن لم تعرفها كفور ولا نجوع البلدة منذ الف عام . . أين هو . . ؟ اين ؟ تزايد اندفاع الناس حوله ، دار حول الضلع الشرقى للجامع ، الموازى لحارة أم الغلام ، ابتسم معلم شاربه ضخم كبير طرفاه مرفوعان الى أعلى . . داخل فمه اسنان ذهبية ولسان أحمر يهتز اهتزازات صغيرة سريعة . . صاحت امراة على راسها صف من ريش ، اشترى منى بخور ، صاح مجذوب يرتدى جاكته عسكرية قديمة مليئة بالأنواط والشارات وقطع قماش صغيرة . رفع سيفه الخشبى الأخضر والمكتوب فوقه . . لا اله إلا الله . . زعق فى الناس . . اين عين الخلد ؟ مد شاب ذراعه . احتضن صديقه . . تراجع الى الخلف ليتأمله . . ياراجل من امتى ما شفتكش . . خبط البائع على طبلة بنية اللون مزخرفة الحواف . قال للشاب الذى يرتدى قناعا ورقيا يمثل قرصانا ، دى نغمتها ترقص أجدع ست فى البلد . مد الشحاذ يدا واحدة سليمة . . سبع عيال وأمهم يابك . طوح شاب يده احتكت بردفى بنت قصيرة ممتلئة . . تنهد بقوة . شاب اسمر طويل يهز وسطه ويلعب حاجبيه . . قال بائع الكتب . بجنيه وعشرين فى الميه تخفيض يبقى ثمانين . . اللافتة على السرادق الكبير . . دخول عمومى بثلاثة قروش . . ضعف الضوء حول المئذنة صرخ رجل مقلدا صوت امرأة . تطايرت رائحة الكباب من مدخل خان الخليلى . والنافورة الرخامية

خرساء جف ماؤها ، الرجل قريب منه . . لكنه لا يراه . . أين ، صوت المطربة سيدة أم السعد صاحبة السرادق المطل على حارة الوطاويط ، توقف غناؤها . . تتابعت الأصوات . . والمعلم . و . . والاستاذ وانا وأنت سلام كبير قوى . . هل يسمع اسم عويضه أبدا ؟ لكنه يعذبه . يعرف اهل البلدة المساكين عادته . لا يقتل ضحيته مرة واحدة ، يتركه فى متناوله حتى اللحظة التى يحددها هو ، وهكذا يعيش كل مزارع صغير او صاحب بقالة أو صاحب جمل فى البلدة . وهو يظن ان عويضة يطلبه هو وعينه على ماله ، لهذا لا يجرؤ واحد على الوقوف امامه أو ذكر اسمه بصوت مرتفع . . بالتأكيد عويضة قريب جدا ، لكن اين ؟ لا يعرف ، ربما العينان الضاحكتان الناعستان ، الصوت الناعم . . الآذان المرهفة . . ابتسامة البائع الزائغة . غضب جندى المرور . مساومة البائع . . شهوة المراهق الى لحم امرأة ، حتما هنا . . الميدان كله يعرف ولا يعرف ومع هذا يضحكون ويتمايلون ويشترون الطبل ويرتدون أقنعة الربان بلود . . عويضة هنا . . أفيقوا ! أحقا انكم لا تعلمون ؟ ؟ . . أبدا . . ابدا . . حتى ساعى البريد الذى حمل رسالات الجد أبو الغيط كان لا يبدو عليه انه يعلم ما تحوية الخطابات ، فوقه السماء لا تبدو من الأضواء . . آه لو انه فى مكان ناء ، لو هناك حياة غير الحياة ، لو عاش انسانا آخر فى عالم ثان .

لن تمضى غير دقائق وثوان يشق الزحام ، تخمد كل هذه الضجة ، يسكت الشباب الذين يرقصون التويست ، تظل سيقان النساء مكشوفة بلا حقائب تغطيها ، عندما يقترب منه سيشيرون كلهم ، لكن لن يرفع واحد منهم صوته باحتجاج ، لكن لابد ان ينبههم ، قبل اقترابه ، لابد ان يوجد شخص ما فى هذا الزحام يحميه ، لم يخلق الله عويضة بمفرده ، لابد . . لابد . . دار رأسه ، تصبب عرقه غزيرا يائسا . من يوقفه فى الزحام ، الكل لاه . . يضحك . . يغنى . اقشعر جسمه . زحف تحت جلده نمل شائك يخز عروقه ، تلفت وراءه وأمامه ، الى اليمين والى

الشمال . . ثمة ذبابة تطن بجوار اذنه ، اى حشرة يسمع أزيزها ق الطوفان ، هى روح امه أم ابيه ؟ يقولون ق البلدة ان روح الميت ، اذا ما حنت الى شخص حى ، بدت ق هيئة ذبابة زرقاء شفافة الجناحين لا يراها . لكنه يسمع الآن . . ابتلت ثيابه من العرق الغزير ، اعتلى قاعدة النافورة ، عبر المسافة الضيقة التى تفصله عن الزهرة الرخامية التى تتوسطها . . انتبهى ياغابة من رؤوس سوداء ، لابد ان يعرفوا اى خطر يكمن بينهم ، يتهدده ، اى سكين تكاد ان تلامس رقبته ؟ ! لابد يا غابة الرؤوس السوداء والعيون والأنوف والضوء الأزرق والأسنان الذهبية ، ووقع الخطى ق جوف الليل ؟ لابد ان يشعروا به ، ينتبهوا اليه . . رمى جاكتته فوق الرصيف ، لوح ببطاقته الشخصية ، زعق باعلى ما يمكن لأوتار حنجرته ان تخرجه . .

— انا واحد وثمانين ستة وستين . . جمالية . .

طوح بالبطاقة ، فليلتقطها عويضة ، فليعرفه ، فليرجمه ، فليقبل لن لم يجدوا واحدا من الزحام يمنعه فلا ما نع بعد اليوم ، ولا عاصم ، انتبهى يا غابة الرؤوس السوداء ، يامعرض العيون المترجرجة الزجاجية .

اشارت سيدة انيقة جدا ترتدى فستانا اخضر قصيرا جدا . .

— لوك ياحليم . . الراجل باين عليه حيلعب لعبة .

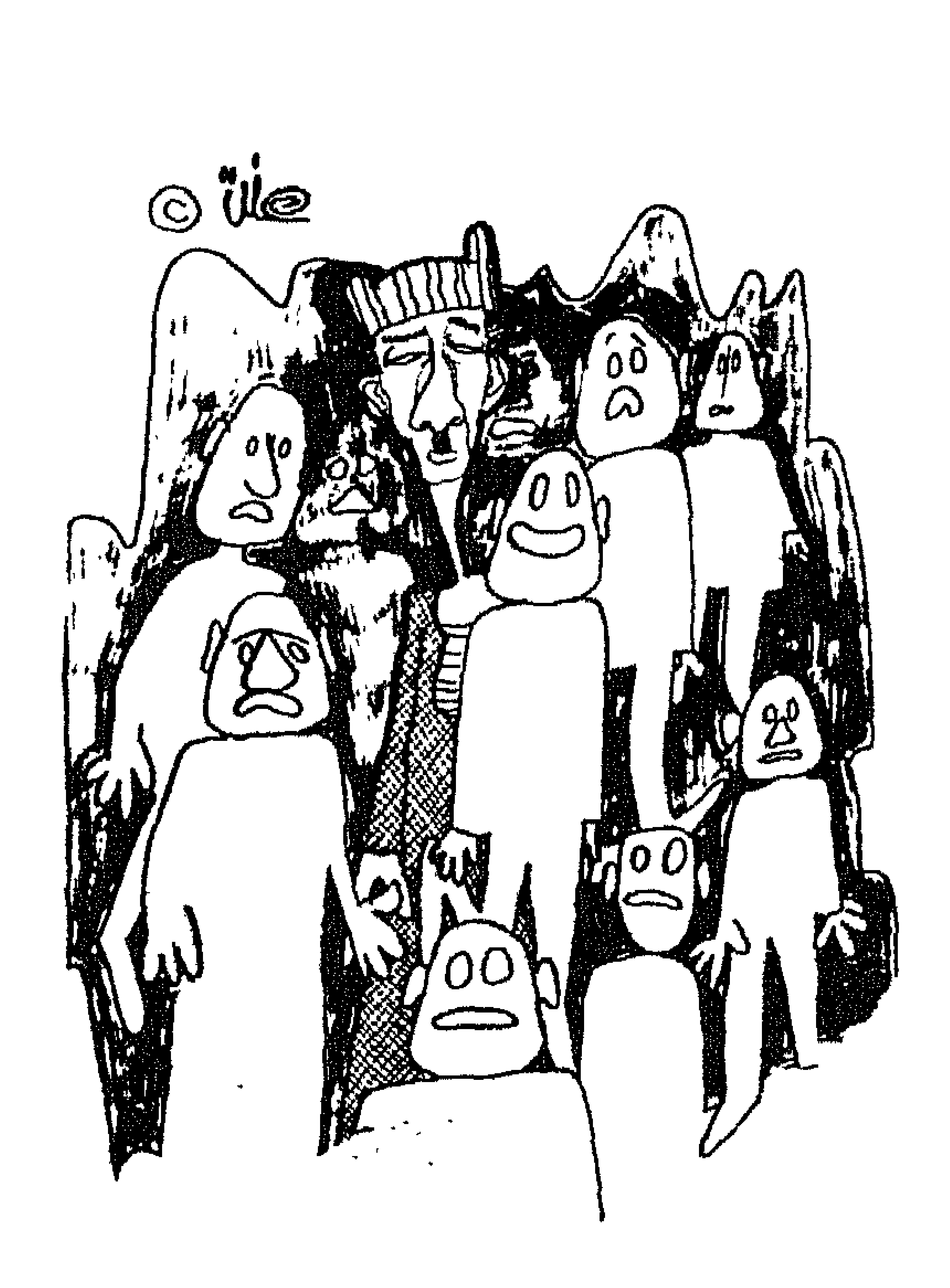
ثم مضت ، رمى آخر قطعة من ثيابه الداخلية ق اتجاه المسجد ، تكاثف الزحام ، اشار اليه شبان ضاحكون . الذبابة تطن من جديد اى صوت آخر سمعه ، لم يدر تماما ، بكل ما تبقى ق خلاياه من قوة صاح للمرة الأخيرة . .

انا واحد وثمانين ستة وستين ، انا واحد وثمانين ستة وستين جمالية ! !

الجميع يمضون ومجموعة شبان يرفعون عقيرتهم بالغناء - شنبو ياشنبو . . لم يشعر بوخزات البرد التى تلسع لحمه العارى ، لم يدفع

عنه أحد ما يهدده ، توالى وقع طبل سريع متوتر محموم يوشى بجسم راقصة يتثنى ، كأنه سمع ضحكة هازلة تخرج من فم سمع أوصافه من حسين المكوجى ، علا طنين الذبابة ، دفن راسه فى صدره ، وانحنى حتى كاد جسمه ان يتقوس ، وسمع عويضه يشق الزحام واثقا ، ثقيل الخطى لا يوقفه احد .

* * *





فعلا ،

التاسعة والنصف ،
كما قالوا ، أكدوا ، إنها التاسعة والنصف ،
فى النصف بعد التاسعة ، هل ضحكت أنا ؟ ؟
هل اجتزت باب المنطقة التعليمية ؟ ؟
وقفت أمام حمدى أفندى إصرف المرتب ،
اقول لابراهيم افندى شكرا بعد احتسائى

فنجان القهوة ؟ ؟ استنشق الشهيق ، اطرد الزفير ، لا ادرى بالضبط ، ما اعرفه ، اثق منه ، اننى لم اوجد معهم ، لم اقعد حول الطبلية أكل الجبن والفول ، اشرب الحليب من يد امى ، فى التاسعة والنصف اول النهار ، يصل قطار الركاب الى ضواحى المدينة الصغيرة ، احتجزوه قليلا عند المزلقان يعبره رجال ونساء واطفال ، التاسعة والنصف لم تتوقف حركة العمل ، باخرة تقترب من ميناء ، تزعق صفارات ، تصر عجلات ترام عند منحنى ، ويقفز طفل يبيع الكبريت فوق السلم ، يتثاءب المسافرون فى الطائرات ، شاب يغازل وامرأة تتمنع ، تاجر يساوم ومدير يتآمر يختلس وعطور تسكب من اناء الى اناء ، انفاس دخان تتبدد ، تكتكة آلات كاتبة ، قهوة تلون مذاق الأفواه وموظفات ينسجن التريكو فى التاسعة والنصف يبدأ العمل فى بلاد بعيدة جدا عنا فى نصف العالم الثانى ، وتشتعل النار فى الاعشاب على جانبى قضبان القطارات .

. . فى التاسعة والنصف مشرط طبيب يشق بطن الانسان ، ويطفو كلب ميت فوق مياه الترعة القريبة من القناة ، فيقول جندى لا بد من إزالته لاننا نشرب من هنا ، بالضبط فى تمام التاسعة يرمى الفراغ جبلا من المتفجرات وزنه الف الف الف رطل ، يخمن الرجال فى الحفر فى الدشم فى خنادق المواصلات ، الرمى فوق بورتوفيق ، يؤكد آخر انه فوق مدينة السويس نفسها . يضربون البيوت فى تمام التاسعة والنصف ، قلب ام يرقب لحظات الافطار ، امى انا تعبر فناء البيت تحمل الماء من الزير إلى اخوتى انا سعيد . اخوتى انا فتحى وابراهيم ، اخوتى على وعادل وحسنى ، اختى فتحية ، اختى انا ، مصطفى ابو القاسم كلما سالنى شخص وانا ادور ممسكا بيد عبد المنعم ابو العطا ، اقول انا مصطفى ابو القاسم من كفر عامر محافظة السويس وعبد المنعم هذا فلاح لا يسمع ولا يرى منذ التاسعة والنصف عندما ذهبت إلى الزقازيق نأت المسافة بينى وبين اخوتى وامى إلى الابد ، ابد التاسعة والنصف

المحلق فى سماء عمرى عندما طلع من هناك ، تدرك الاته الصماء وتروسه وقلاووظه واسلاكه وبطارياته اسماء امى واخوتى واوصافهم واحدا واحدا وبمقدمته الصلبة القاسية غاص فى السقف وعيدان الحطب والفراغ ما بين السقف والارض ، الأرض .

. . انا مصطفى أبو القاسم لم أسمع الدوى لم أر الشظايا واللهب ، رأيت عمودا طويلا ابيض مصنوعا بعناية ودقة من انقى انواع الالومنيوم ، ولم ار الأرواح لحظة طلوعها ، اهالى القرية ايضا لم يروها وسكان الزقازيق والقاهرة وطنطا وشطا وبلبيس ومنسفيس وزوار الحسين وسيدى احمد البدوى واهل البر ومخلوقات البحر والنداهات والعجائز وكتبة المحاكم والطواحين ، انما هبط ثقل مر مدبب يثقب الامعاء والحشاء والعمر المقبل والمنقضى والآمال ، ويحرق نسمة تبشر بذهاب القيظ ، ومجىء البرد ، وامنية لم تتم عندما لمحت الخبر فوق الجسر فى عيونهم وفى البيوت ، والطريق وفضاء ابدى ، تمهل الدم فى عروقى ، ورأيت اهل البلدة افواها وعيونا وحزنا صامتا لا يعرف كيف ينقل الخبر ، وانا قضيت عمرى اروح واجىء فوق الجسر فكأننى لا أراه لأول مرة بأرضيته الرمادية ، وسوره الخشبى ، والحفر الصغيرة امامه من الناحية الشرقية ، ولاحظت بعناية كثافة النبات على جانبى الترعة .

والغريب ايضًا أننى رأيت سربا من أوز ابيض ينفض جناحيه بعد طلوعه من الماء ، امرأة تمشى متمهلة تجر وراءها ماعزا سوداء ، طفلا يمص عودا من قصب وكلبا ينبح ودخانا يطلع من احد البيوت ، ورأيت اللحظة التى امر بها خارج الزمن . . متجمعة متصلبة قوامها التوتياء وعروق سوداء رفيعة وأبر وشوك ، لحظة هى زمن قائم بذاته ، لا أول له ولا اخر بلا بداية أو نهاية ، قلت كيف أذكرها لو عشت مائة عام ، غير اننى رأيتها بعينى العمر نفسه تماما كما أعيشها الان ، برودة الجو وقشعريرة عنقى وطعم النحاس المجنزر واتجاه الريح الخفيفة الباردة

التى جاءت لحظتها تماما ، فعرفت اننى تقدمت فى العمر قدرا لا يحسب بالسنين ، وان كل ما عشته قبل الان ينتمى إلى اجيال شديدة البعد لا صلة لا علاقة لا رابطة بينى وبينها ، أدركتنى بدايات الشتاء ونحن اول اغسطس ثامن شهور العام ، اقول جاءتنى بدايات الشتاء لان سبتمبر يلى أغسطس ولا احسبه من شهور الصيف أبدا ، ابدا ، ولماذا احسب سبتمبر من شهور الصيف وهواؤه أرق ، أشرب ماءه فاذكر اياما حلوة راحت منى ، صباحها فرح ، سماؤها بلا غيوم ، ناسها يضحكون ، راحوا من راحوا ، قال رجل عجوز هو الحاج حامد صاحب النخيل وشجر البرقوق والتفاح قال اننى رجل ويمكننى الصبر ، بدا لى القول سخيفا وفض مجالس ، لم انظر اليه ، لم انطق حرفا ورأيت الورق وعيدان القش فوق الأرض وتساءلت لماذا لا اذرف دمعة يبلل ملحها طرف لسانى ، لكننى لم ابك ، كأننى ودعت امى واخوتى وانا اعرف اننى سأرجع صباح اليوم التالى واسمع الخبر من الحاج حامد والحاج حامد بالذات وعندما نزلت السويس من شهر وجاء عم خليل الجرسون ورأيت وجهه مهموما ، فعلا عمره سبعون بل اعطيته من عندى اكثر ، وسألته عن الحال فقال ان حادثا جرى اليوم وكان فظيعا فقلت ان كل ما يجرى اليوم فظيع ياعم خليل ، هز رأسه واسند صينية النحاس المثقلة باكواب الشاى الفارغة وفناجين القهوة وزجاجات الكوكاكولا .

قال لا ياستاذ ، قال إن نجارا فى حى المثلث عاد إلى السويس بعد ان ضاق به الرزق ولم يطق التهجير او قل انه لم يعرف كيف يعيش هناك ، رجع إلى هنا يصلح نافذة او مقعدا ، اى عمل يحتاجه فيه أحد ، يحمل شيئا او ينظف مكانا ، يعنى يلقط رزقه من هنا وهنا ، جاءنى مرة هنا وقال امسح لك القهوة وتعطينى ، ما فيه النصيب ، والله يا استاذ اعطيته من جيبى ما قسم به الله ولم اسمح له فهو يقاربنى سنا ، المهم ان امرأته وأولاده الثلاثة ، بنت عروسة واخرى فى العاشرة وطفل ابن

سنة على باط أمه ، جاءوا لزيارته وباتوا ليلتين ، وفى صباح الثالث جاء عندى هنا ، توقف امام هذا المطعم واشترى فولا وطعمية محشية وخبزا ، وأثناء وقوفه جاء الطيران ، وكما تعرف ياسى مصطفى يجىء الطيران عادة فى التاسعة والنصف أو العاشرة صباحا ، الظاهر انهم يعملون بمواعيد كالموظفين ، جاءوا وضربوا المنطقة ، وفوق البيت بالضبط ياسى مصطفى ، كأن القنبلة نزلت بخيط من الطائرة إلى الأرض ، ألف رطل قلبت البيت ، وسكت عم خليل ، قال ان الرجل رأى اولاده يخرجون بعد اربع ساعات من الغارة فوق طاولة عيش ، نصف الأم الأعلى ، يداها ياسى مصطفى كأن الحياة بقت فيهما تضم ابناءها الثلاثة ، حتى ابنتها الكبيرة ، السليم الوحيد فيهم الطفل ، آه يا استاذ لو رأيت عينيها ، مفتوحتين على اخرهما ، انا فى حياتى لم أر عينين مفتوحتين كما رأيت عينى هذا الولد ، كالبرقوق ، تراهما وأنت واقف بين الرجال فتخاف ، ياسلام ، الولد يسأل بعينيه ياسى مصطفى عن سبب موته فى أول العمر ، ولماذا جاء إلى الدنيا اذا كان موته سريعا بهذا الشكل ، انا فى حياتى لم أر طفلا يموت فربنا لم يعطنى ولم يأخذ منى ، لكننى رأيت موتى أنا ، لحظتى فى عينيه ، ظننت ان دموعى خلصت من زمان ، لكننى نحت عليهم كالمرأة أما أبوهم فلم يرد على أحد ، نزل عليه سهم أسكته ، إذا أمسكت يده يطاوعك ، تأمره بالمشى يمشى ، القعود يقعد ، لكنه لم يبك أبدا ، وعندما سمعت عم خليل قلت اتصور أن يحدث هذا لأى انسان فى العالم ، اما امى واخوتى فلا يمكن ، وكما مرت ثلاثة اعوام رأينا فيها القنابل والطائرات ومازلنا احياء فستمضى ثلاثة وثلاثون عاما اخرى والاعمار باقية ، حتى فى أيام الدراسة ، وأنا اقيم بعيدا عنهم اصحو كل صباح فى الزقازيق واعرف انهم بخير وأسأل القادمين من كفر عامر أو الجناين ، واخطف رجلى آخر الأسبوع لأشرب حليب القرع الطازج ، وعندما سمعت الخبر ، وتغير لون الهواء والفراغ ازداد اتساعا وخواء ، رأيت الأب النجار لا يبكى

دمعة ، ورأيت شفتيه متلاصقتين شاحبتين من جلد جف وطبق الفول بين يديه لا يجد أفواها تمضغه ،

فى تمام التاسعة والنصف ، تتدفق العربات فى الميادين ، لا يوقفها موت ولا رحيل انسان ، ولا الف روح آدمية عن العالم ، يضحك الناس ، يدمعون ، تتساقط نقط المياه من الزير إلى الصفيحة الموضوعة تحته ، ويد مجهولة فى مكان قصى تضغط زرا أسود اللون احمر أو اصفر أو ربما تشد مقبضا فيطرد من الثبات صاروخا طوله كرجلين متعددتين فوق الأرض ، يطلع بطيئا وكأنه لا ينوى الأذى ، يعبر الاعمار والذكريات وصور الطفولة المنسية وعبير الاغانى القديمة القديمة ونداءات الليل ولهفة المسافرين ، جوفه ملء بتروس وأسلاك متداخلة فى انابيب مبطنة بمادة بيضاء طرية . وعندما امسك الضابط بالعامود المعدنى الأبيض قال إنه من انقى انواع الالومنيوم ودرجات القلاووظ دقيقة جدا تدور حولها صامولة مسدسة رمادية والعامود يحفظ اتزان الموت المحلق ،

فى تمام التاسعة والنصف ، ظل نظر الرجال إلى يرقبون ما افعله ، ما أقوله ، سألت بحس خفيض ومالوا برؤوسهم ليقتربوا منى ويسمعوا ولا يتبعونى كما يتصورون ، ثم يطلبون ان اكرر بصوت عال ما قلت ، فاكدوا انها التاسعة والنصف ، وقلت كيف حالهم عندما . . عندما . . ولم انطق بل رفعت اصبعا بيضاء كالجليد ، نظروا إلى بعضهم وحاروا . . وسمعت نهنهة امرأة لم ار وجهها ولم اعرف من هى ، وسمعتها تقول آه ياحبيبتى يا ألطاف فعرفت ان امى ألطاف ذهبت ، وحكى الشيخ خالد فاكد انه جرى عندما سمع الانفجارا الى البيت ، وقال زيدان انه كان يحرث الغيط ، لكنه اسرع الى البيت ، وجاء جنود الموقع القريب ، ورفعوا معهم الاخشاب والحجارة ولم يفكر أحد فى القنابل الزمنية . . ورأيت عم خليل فى المقهى ، يسكت ، تفاحة آدم فى حنجرته تتحرك من أعلى الى اسفل ويبلع ريقه . . ثم يصف كيف

تمددت امرأة النجار فوق طاولة العيش بلا نصف اسفل ، كأن جسمها شطر نصفين بسكين جزار ماهر ، ولا بد ان صرخة امى إن وجدت الزمن لتصرخ فى تمام التاسعة والنصف اصدق الأصوات فى وجه الزمن وأكثرها رعبا وجنانا وخوفا ورجاء مكتوما ووداعا ورغبة فى بقاء الاخرين . صرخة ، صيحة ، الام أمى أصدق ما تردد منذ ان دب آدم هنا واستمع إلى الرياح والضباع وسقوط الصخر من فوق الجبل ، ومجىء الليل ثم النهار ،

قال عمران انه رأى عبد المنعم يدفق دما من وجهه كما ينساب الماء فى مجرى صغير وعبد المنعم يقف قرب البيت عندما نزل صاروخ أرض ـ أرض ، وأنهى الحنان والرقة والعمر الطويل وتعريشة العنب وخناقات الأخوة وبهجة العيد وايام رمضان والاستيقاظ اخر الليل لتناول السحور واكلة البورى كل ثلاثاء وصوت يطمئن على الابناء قبل النوم وشاى المساء ترشفه امى على مهل ، تسرح فى السواد العقيم الراقد فوق البيوت والترعة والمواقع والطرق التى لا يمكن التحرك عليها بعد آخر ضوء والانفجارات البعيدة والطيران المحوم كالغربان فى السماء ، تسمع الصدى ولا ترى اجسام الالمنيوم المحلقة ونداءات العساكر وهدير عربة قريب ثم وقفة فجأة .

أمى تذكر أيامها الأولى قبل أن نأتى اليها ، دخول أبى قبل مجىء الليل ومنديل به لحم وخبز يأتى به فى تمام التاسعة والنصف ، وتمنيت لو ان ما اسمعه وجه الى شخص غيرى ، أو تردد صداه فى مكان بعيد عنا ، بعيد جدا ، وسألت روحى بدهشة ، بحيرة ، بخوف ، اهذا هو موت الاحباب ؟ ؟ وعندما مررت بعامى الثامن أو التاسع عشر هل كنت اعلم ان ما جرى سيجرى ؟ ؟ وقلت آه لو يعرف الواحد ما سيأتى فى العام الثلاثين ، ليس كل ما سوف يقع ، أنما الكبير من الأمور ، لو أعرف لأخذتهم معى إلى الزقازيق ولعدنا معا ، نقف امام حطام البيت وتقول أمى ، أمى ، كتب لنا عمر جديد وننذر الفول النابت لاولياء الله

ونقضي ليلة لا ننام فيها ، غير انهم ذهبوا وتركوني فرعا ناحلا جافا ضعيفا يتيما انقصف فى كل لحظة مرتين ولا تهتز شعرة فى جفن الدنيا ، ولم يقطع انسان انفاس سيجارته ،

بالضبط فى تمام التاسعة والنصف لم أقل حرفا ولم يومىء رأسى . وقال الشيخ حامد مرة اخرى ان الاعمار بيد الله وقال زيدان والله لا نتركه وحيدا ربما عمل فى نفسه حاجة وقال آخر لم اعرف وجهه مع اننى فى القرية اعرف الانسان من بعد كبير فى الظلام ومن طريقة تردد انفاسه حتى وشكل خطواته ، لكننى لم اميز من قال ان مصطفى سينام عندى فجاوبه آخر ، البيت اوسع عندى وحفرة المخبأ أكبر فلو حدث شىء فى الليل نزلنا كلنا وقالت جدتى نجمة وليست امى او أم ابى انما كل عجوز هنا اقول لها ياجدة ، قلت كنت اقعد مع المرحومة كل ليلة ، زغر اليها الرجال فى العتمة ، لم ارهم انما احسست حدة نظراتهم ، نفذت ابرة محماة طويلة تفجر مرارتى وناءت عظامى بحمل الهم .

امى الان ، الان ، تمام التاسعة والنصف . . مر . . مرحومة . .

قلت فجاة ، خذونى إلى عبد المنعم ابو العطا ، فأخذونى ، قابلنا جندى ، قال إنه من الخطر مشينا جماعة فى الظلام ، ربما نزلت دانة ولا يمكننا التفرق . وقلت ماذا يحدث اكثر مما حدث ، والقى احدهم السلام ورد اخر لم اره ولم اعرفه ولم نتمهل . وانما اسرعنا ، واصغيت إلى الصراصير المدسوسة فى الهيش على ضفتى الترعة ، ورأيت عبد المنعم ابو العطا وجها من شاش وقطن وقماش ابيض ، وقلت لو ، لو ، لو ان امى اصيبت أو احد من اخوتى اصيب ، لرأيته الان كما اراه ، قال طبيب الجيش الشاب إنها جراحة أولية ولم يمكن نقله ظهر اليوم لأن الطيران قطع الطريق عدة مرات ، قلت سأذهب به إلى الزقازيق ، المستشفى الأميرى ، وقال طبيب الجيش ، المستشفى هناك اكبر هل تعرف أحدا ؟ ؟ قلت ابدا ، قال إن العملية هنا تكفى الان لكن حتى يرجع سمعه وبصره فلا بد من امكانيات اكبر لا تتوافر عندى ،

قلت هل يعود سمعه وبصره يادكتور فنظر اليه وقال محتمل والأمل كبير جدا فى رأيى ، قلت سأذهب به أنا ،قال سأرسل معك عربة الكتيبة الجيب ، فقلت له إن المرحومة لو عاشت وجرحت لارسلت معى العربة طبعا ، رأيت عينيه بوضوح للحظات ، ثبات حدقتيهما وهزة سريعة من رأسه ، رعشة صوته ، البقية فى حياتك ، حياتى انا ، وفى الليل اصغيت الى بقبقة مياه مفاجئة ، انقطاعها ، رجل نائم يتأوه فى مكان قريب يتأوه متألما من شىء اجهله ، ورمى الهاون ، ربما يموت ناس فى هذه اللحظة تماما ، يفارقون الدنيا ، غير أنى لم أر روحا عند الأفق المظلم تطلع إلى السماء الممتلئة بنجوم كثيرة ورأيت نجما كبيرا يلمع بوضوح ، ولو نظرت اليه الليلة التالية من نفس المكان ربما اجده أولا ربما أجده أولا ، وانفلت نجم من ثقب ما فى السماء مخلفا ذيلا من لهب ، ذكرت اسم الله فهذه روح شريرة مطرودة وقلت من يدرى ، ربما هذه النجوم ارواح احباب يرقبون احوالنا غير انى لم أراقب امى ولا اخوتى ، واثق انهم يروننى . وبحثت بلا فائدة عن لعاب امضغ به طعاما احضروه الى ، لم اتحرك ، وسمعت انفجارات قريبة ورأيت وهجا وخطوطا حمراء متشابكة كأن الدنيا تعجل بانهاء كل ما تحويه وفى ندى الفجر قالوا دع واحدا منا يذهب معك قلت ابدا ولا بد ان يعود اليه السمع والبصر ليصف ما جرى وأرى تمام التاسعة والنصف . وفى العربة رأيت قدمى عبد المنعم المتشققتين وهو لا يملك ارضا فى البلد ولا جذع نخلة حتى ، انما يعمل فى اراضى الاخرين ، ولا ابناء له ولا أب يعرف . . وكدت أسأله من أبوك ؟ ؟ لكننى رأيت صممه فأحطته بذراعى . . واستقر العرق تحت إبطيه مالحا ، ربما احتفظ برائحة من وقف بقربهم قبل مجىء الكائن الحديدى الطائر من الأرض وإلى الأرض . .

وفى الزقازيق دخلت من باب المستشفى العمومى وطلعنا إلى طبيب شاب لا بد انه حصل على الشهادة الاعدادية نظام ثلاث سنوات ودخل

الثانوى وحصل على التوجيهية بمجموع كبير قسم علمي ، ودخل الطب وقضى به سبع سنوات ، قلت فلأسأله عما فكر فيه ورآه يوم الاربعاء في تمام التاسعة والنصف ، وبالتأكيد سينظر إلى بدهشة . . فالحقه قائلا ان امي واخوتي السبعة . . وبدا غير راغب في الحديث ، شرحت كيف اصيب عبد المنعم فدار حوله وهو لايعرف أى شيء عنى أو عن عبد المنعم وأسند سماعته إلى ظهر عبد المنعم وإلى صدره . . وأصغى قليلا ولم أر داعيا لوضع السماعة فما الذى يشكوه في بطنه أو ظهره ؟ ؟ الامه واضحة لا تخفى . وتأكدت ان ثمة طريقة اخرى يمكن الكشف بها على عبد المنعم ابو العطا لكن الطبيب الشاب لم يقم بها . . إنما امره ان ينزل جلبابه . . وبقى عبد المنعم لا يتحرك ، كرر امره ثانية ، وبقى عبد المنعم واقفا ، انسان اصم اعمى ، لا يسمع ، لا يدرى ما يفعل به ولا معه أو أمامه أو وراءه ، عندما امره مرة ثالثة بضيق ، بصوت عال ، قلت انه لا يسمع يادكتور . . وكأنه تذكر ما قلته عندما دخلنا الحجرة . . فجاءت كلماته سريعة عادية ولو جاءه آخر يشكو صداعا أو اسهالا أو ألما في طرف الأصبع لكشف عليه بنفس الطريقة ، وضع السماعة على الظهر والبطن في التاسعة والنصف ، ولا بد انه يحب الممرضة التى دخلت الينا ونظرت الينا ثم خرجت ، كدت اقول لا تنظرى الينا بضيق ، عبد المنعم لا يسمع ولا يرى ، قال الطبيب لابد ان تذهب به إلى مصر ، رأيت وجهه وعينيه ويديه كل ما فيه ينطق بالعجلة . . ويقول اخرجا ، ولابد انه لا يسكن في الزقازيق إنما أهله في مصر ويجىء إلى الزقازيق في قطار التاسعة صباحا ، ويقطع المسافة في ساعة وربع ساعة ، ربما يتعجل انهاء الكشف على المرضى ، ربما استطاع اللحاق بقطار الثانية إلا الثلث ليلحق في مصر بالبنت التى يحبها فعلا لانه يتظاهر بحب الممرضة الشابة ، ودخلت علينا ثلاث مرات وكل مرة تلتقى نظراتهما ، وتنفست رائحة البنج والأدوية . وبخار الغلايات الصغيرة ، والقطن المنزوع عن الجروح ، ورأيت

الوجه المغلف بالقطن والشاش يدور حوله لا يدرى صاحبه اين هو ولماذا تنتقل قدماه من هنا إلى هنا ومن صاحب اليد التى تشده او توقفه فقلت يعنى الا يمكنك ورد بجفاء انه لا يمكنه وامسكت بذراع عبد المنعم أبو العطا ، ومشيت به فى الممر الطويل ، على جانبيه تجلس عجائز يحملقن فى الهواء ، بحثت عن لافتة تحمل « مدير المستشفى » ، ولقيت بجوارها ممرضا ضخما قال انه ليس سهلا مقابلة سيادته وهل اختل نظام الدنيا حتى يجىء رجل يسحب مريضا ليقابل البك المدير ، ان كبير الاطباء من الصعب مقابلته فما بالك بالمدير نفسه ؟ ؟

قلت إن عبد المنعم حالته خطيرة ، وان اليهود افقدوه السمع والبصر ، ولا بد من مقابلة مدير المستشفى ، قال اسمع ياجدع انت ، رأيت الاهانة . . وفى اللحظة نفسها داس بلاط الممر رجل ابيض يرتدى معطفا ابيض ونظارات طبية إطاراتها مذهبة ، اقتربت منه ، فى ملامحه طيبة ، اقتربت وافرغت فى صوتى كل ما يمكن من رجاء وتودد ومذلة ، ونظر إلى عبد المنعم وقال اعتقد ان الدكتور ممدوح على حق عندما رأى ضرورة ذهابه إلى مصر ، قلت لكنه لم يمس رأسه ، لم يكشف عليه فعلا ، ابتسم ابتسامة مهذبة كالقطن الطبى ، أسف ياأخى فهذا من اختصاصه ، إنه مسئول الجراحة ، وخجلت من إطالة حديثى معه ، بينما وقف عبد المنعم أبو العطا يدوس الأرض بقدمين لا حذاء لهما ، وجهه المكفن لا يدرى أين يتجه ، ودخلت الحجرة ولمست كتف الطبيب الشاب ونظرت المرضة إلى بثبات ، قلت ان اليهود افقدوا عبد المنعم سمعه ونظره .

فصاح غاضبا ، وهل هو أول الجرحى أو آخرهم ، وقلت بهدوء :

ما الذى فعلته فى التاسعة والنصف يوم الاربعاء الماضى . . ولم يدعنى أكمل إنما زعق ، امش ياولد ، نحن فى مستشفى اميرى وليس مستشفى للأمراض العقلية ،

وانا مصطفى ابو القاسم لست ولدا ، أنا مدرس من كفر عامر ومعى

دبلوم معهد المعلمين وانا الذى ازعق فى وجوه التلاميذ ياولد وليس الطبيب ، غير انى خفت فعبد المنعم وأنا بلا سند ، بلا غطاء ولو أن الطبيب كشف على عبد المنعم أبو العطا بعناية وقال اذهب إلى مصر إلى السند إلى الهند إلى آخر بلاد الدنيا لمضيت ، لكنه وضع السماعة على الظهر والبطن . . وما هذا بالكشف الصحيح فلا بد ان الأمر لم ينته هنا ، عدت إلى المرض الضخم . . فزعق وأعلن ان اليوم شؤم ويراه أسود اللون . فلحطت عبد المنعم بذراعى ومشينا مسرعين . . وربما تسببت فى إيلامه حتى أنا لا أدرى كيف اشعر بأنه تالم فى هذه اللحظة أو توجع ، أو جاع ، أو يرغب فى جرعة ماء ، هو لحظة الاحتضار نفسها مجسدة ، بينى وبينه سد لا أراه ، ابطأت خطواتى ، ولم اذهب الى مدير المنطقة التعليمية وعملى يتصل به ويعرفنى وله نفوذ وربما يتوسط لنا أو يعرف مدير المستشفى الاميرى ، ولكننى مشيت ولم أر أحدا حتى وقفت امام المركز . وقلت البك المأمور موجود ؟ فقال الجندى انه بالداخل . ولم يكن البك المأمور موجودا إنما المامور الذى يقصده الجندى ضابط يجلس إلى مكتب بنى اللون قديم الطلاء تفرشه قطعة من قماش الجوخ الأخضر وفوق شماعة خشبية علق عليها غطاء رأسه وسترته الخارجية ولمعت نجوم ثلاث ذهبية على كتف السترة الايمن المواجه لنا ، قرأ ورقة ، ثم ورقة أخرى ، بجانبى عبد المنعم لا يرى ولا يسمع ولا يقدر على الكلام . ولو انه تزوج وانجب اطفالا لصار فى بيته مناحة الان . لكنه لم يتزوج ولم ينجب وأنا لم اتزوج ولم انجب . ومن النافذة دخلت اصوات الطريق ، نداء باعة ، خناقة اطفال صغار ، عربة مسرعة ، اصوات النهار عندما يعجل بالرحيل ، نهاية النهار تلخيص أبدى للبعد وفراق الاحبة ونهاية الاعمار فجأة قبل الأوان .

امام الطوب المحروق والخشب المتفحم وجروح الأرض لم اصدق ان ما أراه بقايا بيتنا ، حزمة ثوم سليمة تماما جملتها اثرا غاليا ، بقايا ملابس ضاع زهاء الوانها ، لم اعرف أى اخوتى ارتداها ، شد أطرافها

واختال بها ، حلة نحاس منبعجة ، يد ضخمة مجهولة لوتها وملأتها حفرا صغيرة ، علبة لحم محفوظة ملقاة فارغة ، ارى نفسى عندما اشتريتها وجلست فى الفناء ادير مفتاحها الصغير واخوتى يرقبوننى ، امى تصيح من الخارج ، هل انتهت من فتحها ؟ ؟ وجاءنى الحزن عفيا قويا قاسيا فى موجات متتالية كهجوم انتحارى ، حزن يجفف اللبن من صدور الأمهات ويعيده إلى نهود العجائز ، آه من لون النهار الراحل المبتعد ،

التاسعة والنصف ، خرست أصوات الدنيا ، قال الضابط لفظا واحدا كمجيء الطيران فجاة على ارتفاع منخفض ، بوغت ، قلت انا مصطفى أبو القاسم ، مدرس ابتدائى بقرية كفر عامر محافظة السويس ، وحتى يتأكد ويصدقنى ويثق اننى لا اكذب عليه ولا أفكر حتى فى الكذب عليه ، اخرجت بطاقتى الشخصية ، وبطاقة عضويتى فى نقابة المهن التعليمية ، وبطاقة اشتراكى فى القطار ، لم ينظرهم إنما قال ، نعم ، ورايت انه يطلب منى ان احكى له كل شيء . . قلت باختصار كالعناوين . .

فى التاسعة والنصف ماتت أمى واخوتى السبعة . .

دارت اصابعه حول بعضها ، وبعد صمت قصير لم يرفع عينيه عنى وكأنه لا يلحظ عبد المنعم أبو العطا . سأل ، اين ومتى ؟ ؟ قلت ضربهم اليهود بصاروخ أرض - أرض وهم يفطرون صباح الاربعاء ٣ / ٨ / ١٩٧٠ ، امسك بطاقتى الشخصية ، تمعن فيها ، ورأيت النهار وجها حزينا شاحبا ينسحب بسرعة من وراء النافذة ، يهجر الدنيا ، فقلت متمهلا ، لم احضر اليه من اجل هذا ، انما جئت اشكو طبيب المستشفى الأميرى ، ومال وجهه قليلا ، سألنى أمازال هناك فلاحون ؟ ؟ قلت فى الجناين والقطاع الريفى بالاسماعيلية والسويس عندنا ، سأل لماذا لم تهاجروا ؟ . . . قلت ان الارض تحتاج الرجال وكل واحد رزقه هناك وان الأرض فى السويس مالحة ولو تركت شهرا واحدا لطلع فيها

الحلفا والهيش واحتاج إصلاحها زمنا طويلا ، قال انه من قلة العقل ان يبقى الانسان فى مرمى الهلاك وهل هذا اسمه كلام ؟ ! ولم اقل نعم ، لم اقل لا ، ورأيت اخوتى يسرعون من البيت الى الغيط ، وشوكة صغيرة تندس فى قدم أمى تجلس على جانب الطريق ، تحاول اخراجها ، اعود اليهم فى الاجازات مع اخوتى طلبة المدارس ، ترقبنا أمى ، يتوسط ذقنها وشم اخضر باهت كالعمر المنقضى .

سأل الضابط ، لماذ تشكو طبيب المستشفى ، قلت باختصار ايضا ، ان عبد المنعم أبو العطاء هذا اصيب وجئت اعالجه لكنه كشف على الظهر والبطن ولم يلمس عينيه أو اذنيه المصابتين فعلا ، وصرفنا ، ولا بد ان يرجع اليه سمعه وبصره لأعرف ما جرى فى التاسعة والنصف ، هزّ رأسه ، رنت ساعة كبيرة سبع دقات وقور كالنعى ، تنذر الليل المسود المقبل ، قال ارجعا فى الصباح ، ودارت الأرض بى نصف دورة ، ثم نصف دورة اخرى وتقدمت خطوتين . . قلت ارجوك ان تتخذ اللازم لاننا درنا كثيرا ولا اعرف ما جرى له .

قال ارجعا فى الصباح ، ورأيت النهار مذبوحا تماما بالفئوس والمناجل والرصاص والمشارط والليل يسد الفراغ كله ، ويصبغ الأبدية . قلت ياسيدى هل يرضيك هل يهون عليك ان يفقد الانسان سمعه وبصره فلا يسمع ولا يرى تخيل انك . . لكننى اسف جدا تخيل اننى أنا لا اسمع ولا ارى ، وعلى وجهه بدا شبح ابتسامة خفيفة ، قلت ارجعا فى الصباح ، ورأيت كلماته ايدى تشدنى ، اوامر تمنعنى من التقدم ، كمامات بنج تخرس البوح فى صدرى ، قطارات تدهس عبد المنعم وتدهسنى ، ولا بد انه لا يريد ازعاج نفسه وربما ضايقه احد قبلنا فاثر صرفنا ، وعند الباب سمعته يقول ، كلما عشنا شفنا وفى الطريق بدا الليل صارما قاسيا ينوى الشر ، نجومه غامضة ، باهتة ، غير واضحة ، ليست كما نراها فى كفر عامر ، والبشر حولنا يمضون ، رؤوسهم الى الامام ، يتسمعون الهمس ، وحوش يضمرون الأذى ، آه



ياعيون ترانى ولا تدرى من انا ولا مصاب عبد المنعم أو بلواه عبد المنعم غارق فى ليل ابدى ، وفى صدرى دق قلبى يؤلم ضلوعى كشظية من حديد ساخن ، عبد المنعم سيرجع الى الجناين ، لن يعمل لن يتسلق النخيل ، لن يجنى البرقوق ولا التفاح كما انى لن اسمع صوت امى ، ولن اشرب الشاى كل مساء من يدها وكأنى لم اسمعها ولم أرها ولم تنجبنى ولم تأت إلى الدنيا قط والا . . فاين هى وكيف ذهبت مع اخوتى مرة واحدة ؟ ؟ وبعد سنوات لا اذكر ملامحها ، وشمها الأخضر ، طول قامتها ، ويضيق الناس بعبد المنعم ابو العطا ويطردونه من طريقهم وربما عطف عليه بعض الاسياد فالقموه رغيفا وقطعة لحم فى الاعياد أو المواسم ، ومن يدرى ربما رجمه اطفال صغار يولدون الان وصاحوا خلفه محدثين ضجة لا يسمعها أبدا ، ولا اسمع منه ما جرى ، ما حدث ، فى تمام التاسعة والنصف ، ولو قلت لشخص ما بعد عشر سنوات أو خمس أو سنة واحدة حتى ان امى ماتت واخوتى السبعة الطالب منهم والمزارع واختى الوحيدة ، كلهم ذهبوا ، لنظروا إلى بشك وقالوا مجنون أو يحاول استدرار عطفنا ، بل انى لو مضيت الان الى المدن الكبيرة وركبت العربات واوقفت المارة فى الطرقات وزعقت ان يصدقونى وان يعالجوا عبد المنعم ابو العطا ، فسيضحك الشبان ، وتتعالى الفتيات بنظراتهن . . ويقول القوم . . حيل جديدة للتسول ، فهل يعقل ان يفقد انسان اى انسان امه واخوته السبعة فى وقت واحد ، ولماذا بقى هو ، واذا حكيت لهم ما قاله عم خليل عن النجار وامراته وعياله الثلاثة لقالوا تخاريف مجنون أو عجوز عبر السبعين بسنين ، ولو قالوا اين نجارك العجوز ؟ ؟ احكى ما قاله عم خليل فى العصر اصفر اللون الكئيب الذى تتردد فيه طلقات الهاوزر . . لا نرى القذائف انما نسمع صوت خروجها ثم انفجارها بعد ثوان .

قال عم خليل ان الاب كان ياتى عندى هنا ويجلس صامتا يشرب المعسل وسمعته ينطق لأول مرة منذ يومين عندما تلفت حوله وقال

بصوت عال ، السلام عليكم ، وقال أنا سأزور الأولاد ، وذهب الى ابنائه ، وبعد ان قرأ الفاتحة حط رأسه وأغفى بجانبهم ولم يقم ،
قلت بصوت عال : مات ياعم خليل ؟ ؟

قال ولم يحط منطق : يرحمنا الله اجمعين . . ولا بد ان الطبيب فى الوقت ذاته ، التاسعة والنصف الان ، يمشى فى شوارع القاهرة ، أو يتمدد امام التليفزيون ، يسمع نشرة الثامنة والنصف ، أو يقف متأنقا امام دار سينما ، ربما ترقد ذراعه فى ذراع حسناء بيضاء ، بينما يقرأ الضابط اوراقا أو يشرب شايا ، اخرون فى المقاهى يتحدثون عن نجوم السينما ، المعضلات التى تقابلهم فى حل الكلمات المتقاطعة ، التوى الليل سيخا يحمى فى روحى ، الضابط لم يعطنى بطاقتى وانا الان ضائع مجهول الشخصية ، بلا ام بلا اخوة ، ولا احد يسأل عنى اذ تأخرت أو تأوهت فى نومى ، أو فاجانى كابوس ثقيل ، من يوقظنى ، لا احد ، لا احد ، الويل لى لن يوقظنى احد واموت مكتوم الانفاس ، اما عبد المنعم فلن يسمعنى ، هو بلا بطاقة شخصية طوال عمره ، وتمنيت لو اشرح حالى لهذا الطويل الاصلع ، والجالسون بالمقهى الغرباء الواقفون فى شرفات الفندق ، للمدينة المزدحمة ، لا عرض لها ولا طول فى اعيننا انا وعبد المنعم ابو العطا ، اشكو لقاطع التذاكر فى الاتوبيس والوجوه داخل اطارات الصور والركاب والمقاعد والتلال الرملية واسفلت العودة ، وآه لو ينطق عبد المنعم فيصف كيف طارت الشظايا بزاوية قدرها خمس واربعون درجة فى التاسعة والنصف لتضع حدا لمافات من عمرى وما هو آت .

ولم أرد سؤال من قابلونى عند الجسر أو الكوبرى ، وكلما عدت من اجازة اتفحص الوجوه واسأل عن الناس ، ولا بد ان اسمع خبرا واحدا أو اثنين . وعندما التقى برجل أو امرأة أقول فى عقلى . . ما زالوا على قيد الحياة ، لم اتوقف لحظة . ومضيت الى بيت قديم هجره اصحابه وجلست فيه ومعى عبد المنعم ابو العطا ، اصغى الى اصوات الليل

وضجة النهار الريفي ، اسمع الاقدام تجرى الى الحفر ، عنف الانفجارات ، الدانات ، الهدوء ثم الاصوات البشرية الأولى تنادى بعضها ، اعرف ان اصحابها افلتوا من هلاك اكيد ، وفى البداية كانوا يصيحون على ، مضى الوقت ونسوني ولم أعد ارى الا حليمة صاحبة امى واخت طفولتها وعمرها ، تأتى الينا بالطعام نيئا وتسويه ، تغسل ثيابنا ، عبد المنعم جالس لا يقول حرفا ، هو الصمت نفسه ، العالم بالنسبة اليه منزوع الحنجرة ، مبتور اللسان ، الدنيا حوله مطموسة الملامح ، تغرق فى سواد لا تبدده انفجارات أو ضجيج أو اندفاع عربات ، جاءنا الشيخ حامد ، اصغيت اليه ، اصغيت ، انما انتظرت باصرار ان تظهر امى عند الباب وراءها اخوتى ، آه لو جاءوا ، لن افارقهم ابدا ، احيط بهم ايامى ولحظاتى ، معنا عبد المنعم ، ومنذ حين لم اعرف مقداره لم تحدث انفجارات ليلية أو نهارية واصغيت إلى عربات ورجال يزعقون وصبية واخرين يعودون الى القرية وعرفت من حليمة ان الضرب توقف لمدة وان القوم لا يعرفون هل ترجع الحرب ام لا ؟ ؟ رأيت امى تقول يجب ان تتزوج ، فقلت زاعقا آه يا امى ، آه يا اخوتى ، لو انكم رحلتم فى زمان غير الزمان ، وبقيت انا لعرفت كيف ارثيكم وانشر حزنى فى العالم كله واشرك البشر اجمعين فى البكاء ، فى النواح ، نسيت وجه الطبيب الشاب ، ملامح الضابط ، مدير المنطقة التعليمية ، نسيت شكل الصحف ، ولا اعرف العلامة المميزة لجريدة الاهرام من الأخبار وهل توجد صحف اخرى وهل اصدروا صحفا جديدة ، وكلما سمعت الراديو سمعت الغناء والشبق المنسال بلا حساب والاحاديث وتكلف المذيعين ، الاصوات تسد أذنى فلا تسمعان ، طوال الوقت حديثى إلى عبد المنعم أبو العطا ، انظر إلى عينيه المغمضتين ، هو لايسمع أو يرى ، انما اثق انه يرانى ويصغى الى ، وفى صباح ولا بد ان الصباح بالخارج فهذا الزحام لا يحدث ليلا ، سمعت اصواتا ، وماكينات ، وبريق اضواء ، اهى قافلة سفن ؟ ؟ اين

يوم الجمعة واكتمالنا حول الفطير المغموس فى اللبن ، الصقت عينى بالباب ، رأيت امامه رجالا كثيرين . خفت ، انا بلا بطاقة شخصية وبينهم رجال بوليس ، نادانى الشيخ حامد ، تواريت اكثر ، دخل مسرعا ، همس فى اذنى ان رجلا كبيرا يزور القطاع ، اخبره بحالى واعتكافى حزنا على امى واخوتى السبعة فجاء يعزينى ، ومن الذوق بل من الواجب السلام عليه وتحيته ، قلت انا بلا بطاقة شخصية ياشيخ حامد ، قال مغتاظا ، بلا فضائح . . تعال معى . . شدنى إلى الفناء الخارجى ، رأيته ممتلئا بكثيرين يرتدون قمصانا وبنطلونات واحذية بنية اللون وسوداء ، يلتفون حول سعادته كالجوقة حول المغنى ، كل منهم يريد ان يبدو اكثر قربا ، يظهر بجواره فى الصور الملتقطة هنا ، لم اعرف وجه سعادته أو مناصبه ، المصورون يقفزون ويرفعون آلاتهم فى حركات سريعة عجيبة ويميلون الى الخلف ميلا شديدا ، ويرتكزون إلى الأرض باذرعتهم ، خفت ، ربما كسروا شيئا فى البيت ، سعادته غير مهتم بهم أو منتبه اليهم وان بدت كل حركة ، كل وضع يقوم به ، مخصص لهم حتى يبدو فى الصور باشكال مختلفة معينة ربما يتخيلها الان ، نظر سعادته الى ،

هو جامد القوام قصير ، صافحنى بنصف ذراع ممدودة . . قال البقية فى حياتك ، لحظة خروج الكلمات من شفتيه تذكرت ، اسرعت إلى الداخل ، جرى ورائى الشيخ حامد ، عدت ممسكا بذراع عبد المنعم ابو العطا ، قلت لسعادته ان الطبيب كشف على عبد المنعم من ظهره وبطنه ، ولم يهتم الضابط عندما شكوت اليه الطبيب ، وعندما رجعنا اليه لم نجده ولم يسمعنا كبير أو صغير ، كدت اذكر سحب بطاقتى الشخصية ، خفت ولم انطق ، وقال واحد من الواقفين حوله . . يعنى ماله . . يعنى ماله . . ماله ؟ ؟ لم انظر اليه ، وجهت حديثى إلى سعادته مباشرة ، شرحت ، اين ومتى وكيف اصيب والعلاج اللازم له ، التفت سعادته قال يا صبرى ، واسرع شاب يمسك ورقا وقلم حبر

جاف ، نعم يا افندم ، وقال سعادته اكتب اسمه وليجيء غدا لنحوله الى المستشفى ، همهم الواقفون مستحسنين قرار سعادته وخطا رجل غليظ الرقبة لم اره ابدا من قبل ، اشار الى عبد المنعم ابو العطا ، واظنه اشار ناحيتي ، صمت الجميع ، وقال الرجل وهو مازال يشير الينا ، هذا رمز عظيم لصلابة الفلاحين الذين تحملوا الصعاب وعاشوا هنا في هذه القرية اياما بالغة العنف والقسوة وبقوا رابضين في الساحة امام العدو .

وتساءلت كيف يربض الانسان ، وخرجت الكلمات من فم الرجل متتابعة ، لم تبرق الاضواء ولم يتحرك المصورون ، وسمعت احد الواقفين حول سعادته يمصمص شفتيه ويقول ، إنه سيكتب مسرحية عن هذا ، وقال آخر ، ياسلام على البطولة ، تمنيت لو ارجع بسرعة اجهز ثيابي لأرحل مع عبد المنعم ربما نطق وسمع قارى واعيش ما جرى في تمام التاسعة والنصف ، سألت روحي كيف لم اذرف دمعا على امي حتى الان ؟ ؟ اهذا وفاء اول الابناء واكبر الاشقاء ؟ ؟ كيف ؟ ؟ رأيت اخوتي ، امي ، رائحة ثيابهم ، حديثهم ، اكلهم ، شربهم ، كل يوم يمر تنأى المسافة بيننا ، في تمام التاسعة غمست قلبي في الوحل ، جرى الماء مالحا بلا اول ولا اخر ، برقت الاضواء ، رأيت بريقا وزمانا يولي ويتامى ، مد سعادته يده ، قال للمرة الثانية البقية في حياتك ، اقترب مصور يرتدي جاكتة ورباط عنق احمر اللون ، غمزني في كتفي ، قال باصرار ،

ابتسامة صغيرة . . ممكن ابتسامة صغيرة . .

١٩٧٠

● ● ●


حارة الطبلاوى
وقائع
حارة الطبلاوى



مذكرة إيضاحية حول واقعة رقم ١٠٦ قسم الجمالية ـ القاهرة

. . انه فى يوم الاثنين ، وفى التاسعة صباحا ، حضر إلى قسم الجمالية عدد خمسة أشخاص ، من سكان حارة الطبلاوى ، ثلاثة ذكور ، اثنان اناث وبيانهم كالآتى :

١ ـ حسن أفندى متولى ، بادارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس ، وزارة الزراعة .

٢ ـ فارس سعد (الشهير بأبى قورة) ، صاحب مقهى بالحسينية .

٣ ـ عويس يونس ، فران بناحيـة كفر الزغاوى .

٤ ـ شمعة لطفى ، حكيمة بمستشفى الأزهار النموذجية .

٥ ـ محاسن حسن مدرسة ابتدائى ، تعمل بمدرسة النحاسين الابتدائية .

وتولى حسن أفندى الحديث نيابة عنهم ، فادلى بالبلاغ التالى : « انه منذ ستة أيام قام دحروج النمرسى ، اعتبارا من الساعة الواحدة صباحا وحتى السابعة بدون انقطاع بمخاطبة أهالى الحارة مستخدما بوقا مما يستعمله شرطة المرور فى الميادين والطرقات العامة ، وسبب ازعاجا للسكان ، علما بانه يبتدىء كلامه بعبارات بذئة تسب أهالى الحارة كلهم ، تصفهم بأقبح الألفاظ وانتنها وتمس العرض والشرف ، ونتج عن هذا اقلاق راحة المرضى ، والاضرار بصحة الحاج احمد العتر تاجر الورق الذى يعالج منذ عامين بسبب اعصابه ، ولما زاد الحال ، توجه إليه عدد من سكان الحارة وجيرانه القدامى ، طلبوا منه الكف فردهم بعنف ، طالبهم بفعل ما فى وسعهم ، وكرر مرات انه حر ، ولا يعنيه أحد ولا يوجد نص قانونى يعاقبه لأن الجهاز الذى يستخدمه لا يخضع للقيود المفروضة على استعمال مكبرات الصوت الكهربائية وذكر أرقام مواد ونصوص قانونية ثم حدثهم عن ماضيه الطويل اذ عمل جنديا فى الخدمة السرية لقوات الأمن العام واعلن (هناك شهود على ما قاله) . انه خرب بيوتا عامرة خلال خدمته ، وان أحد اقاربه يعمل الآن بمنصب هام للغاية ، ويقوم بتمزيق كافة الشكاوى المرسلة ضده بعد اطلاعه عليها واحدة ، واحدة ، ثم أغلق الباب بعنف ، وفى الواحدة صباحا بدأ حديثه اليومى ، قذف من جاءوا واحدا واحدا ، بالفاظ بذيئة ، وعبارات غريبة ، عندئذ أطل بعض المسنين ، صاحوا عليه راجين السكوت ، واحترام الجوار فالنبى عليه الصلاة والسلام أوصى على سابع جار ، وهنا زاد من بذاءته وسبهم بالفاظ تخدش رجولة كل منهم ، وأطلت غويشة امرأته لأول مرة أعلنت وقوفها بالمرصاد لكل من تسول لها نفسها التهجم عليها ، أو على زوجها وقالت انها صاحبت حريم الحارة والحى أربعين عاما ، جمعت لزوجها دحروج ، معلومات تكفى لسد كل بيت

بالجبس ، ثم ذكرت أمثلة ، وسبب وقوع مشاجرات بين أفراد عائلات لم يسمع لهم حس من قبل ، مما اضطر السكان بعد ستة أيام من العذاب المتصل اللجوء الى الشرطة ، وانهى حسن أفندى اقواله مطالبا الأمن العام بالتدخل لحماية الأهالى من المذكور وامرأته غويشة ، فالبيوت العامرة تكاد تخرب . .

ومن ناحية أخرى أفاد مسعد أفندى القاطن أسفل المذكور ، أنه سمع مكبر الصوت اول ليلة وقيل فيه « آلو . . آلو . . واحد . . اثنان . .ثلاثة . . الخ » وتلاوة البسملة عدة مرات ، وبعض آيات الذكر الحكيم ، عندئذ طلع الى دحروج ظنا منه أن مصابا وقع ، مما استدعى تجربة مكبر الصوت فى هذه الساعة المتأخرة تمهيدا لتلاوة القرآن فى اليوم التالى ، عندما طرق الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات : « أخيرا حانت الساعة ، ولم تدع فرصة لمسعد أفندى كى يستفسر عن أى ساعة تقصد ، انما اكملت » دحروج سيحقق ما انتوى . . قل لجيرانك ، وجيران جيرانك . . أخيرا . . حانت الساعة ثم اغلقت الباب بعنف ، وأقسم مسعد أفندى على صحة ما حدث بفتحه المصحف على سورة ياسين ، ووضعه على عينيه واقسم يمينا . .

كما قدم المدعو فارس الشهير بأبى قورة ، شريطا سجل عليه بعضا من اقوال المذكور عن طريق المكبر ، « تم تفريغ محتويات الشريط » واستعان بجهاز تسجيل ماركة جروندج خصصه لاذاعة اغانى أم كلثوم على زبائن المقهى ، وأفاد الجميع بأن الحارة لم تعرف القلاقل عن قبل ، وتعد من أهدأ الحارات وأقلها فى عدد المشاغبات والحوادث نادرة بها ، وسكانها مسالمون لا يميليون الى ازعاج الغير ، ويحترمون القوانين والجوار ، الذى لا يقل بالنسبة لأحدثهم عن عشرين عاما ، وابناؤها التلاميذ متفوقون ، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد ابن الحاج نصيف الثالث فى شهادة الاعدادية (وطالبوا باجراء بحوث وتحريات تثبت هذا) والآن لا يستطيع الطلبة استذكارا بسبب أعمال المذكور دحروج وامرأته غويشة . . » .

ملحـــق (١)

محتويات شريط مسجل عليه بعض أقوال المذكور ، ولم يتضح فى هذه التسجيلات ، هل تمت ليلا أو نهارا ، ولم يعرف تاريخ كل منها ، برجاء وضع ذلك فى الاعتبار .

(١) . . الا إذا اطلعتم بأنفسكم ، ورأيتم ما رأيت ، وهذا مستحيل ولم يتوفر لانسان قبلى ، أذكركم هنا بالمهن العديدة التى عملت بها ، أتقنت كلا منها ، قضيت بها زمنا ، أذكركم بآخر أعمالى ، خدمتى خمس عشرة سنة فى صفوف الخدمة السرية بالأمن العام ، تنقلى بين جميع المديريات والمراكز والقرى سفرى الى بعض بلاد العالم فى مهام خفية ، لن أتحدث عن تفاصيلها الآن ولكن سيحين الوقت ، ستذهلون ذهولا عظيما وتقولون ، كيف عاش بيننا اكثر من ثلاثين عاما تواجدت بينكم ، هل شعرتم بى ، هل عرفتم أمرا واحدا عنى ، هل سمعتمونى أتحدث عن أحد بما لا يليق . طال صمتى والآن يمكننى قول ما فى قلبى وعقلى ، ستجدون كلامى شيقا ، البعض سيضيق به مؤقتا ، لكنهم فى النهاية سيوجهون الى شكرا ، لأننى قومت حياتهم وأظهرت ما تعرفونه ولكنكم تتجاهلونه ، لكن العذر حق لكم يا أهالى الحارة المساكين ، من لديه خبرة عمر مثلى ، من أمسك بواطن الأمور ، من أدرك الحقائق الخفية مثلى ؟ ؟ .

(٢) . . يامعلم يونس ، والله أرثى لك ، سخرت منى ولن أرد عليك خذها منى نصيحة ، أنا لا أحب الشجار ، ولا الوقوع فى مشاكل ، طول عمرى لم أقع فى مشكلة ، لم أقدم كمتهم الى أى مسئول ، لأننى من زمن طيب ، زمن حلو ، زمن عائق ، رائق ، غير زمانكم الموحل ، الأغبر ، لكننى سأقوم المعوج فيه ، أدبر أموره ، أوجهه ، يا معلم يونس ، أنا لن أفضحك ، لكننى أنبهك الى ما غاب عنك ، طبعا تعرف دكان المعلم ماهر المنجد فى بيت القاضى ، كلنا ، كل أهالى حارة الفقر هذه . . كلنا

نعرف يا معلم . . من يدخل بيتك بقرطاس الفاكهة كل أحد وأربعاء ، أنت تخرج حوالى العاشرة ويستلم مكانك فى الثانية عشرة ، العيون تحفظ منظره بالجلباب الأبيض ، بخواتم الذهب والصندل البنى ، الحارة كلها تعرف ولا أحد يخبرك ، لأن ، سكانها عندهم ما يكفيهم . . و . .

(ضجة ، تصفيق ، أشياء تسقط ، أصوات . .)

(٣) . . قبل أى كلام ، انتبه يا حسن أفندى ، يا راجل يا دودة ، أنا لا يفوتنى شىء أبدا . ما من نفس زائد لديكم الا احصيته ، ما من همسة الا وترجف طبلة أذنى هنا ، الا تعلمون أن جدى كان عالما كبيرا فى الأزهر وأنه ترك لى مخطوطا قديما وعلمنى كيف استخدمه ، فأعرف منه المستقبل الآتى ونهاية أعماركم ، الا تدركون اننى تلقيت أمرا بالحديث اليم عن طريق هذا المخطوط ، يمكننى أن انبىء كلا منكم بيوم يحين فيه أجله ، ومن لديه هذه المقدرة لا يغيب عنه ذهابك الى قسم الجمالية ، تزعمك وفدا ضدى ، شكوتنى ، طلبت ابقاء اسمك سرا وهذا جبن ، العجيب انكم جميعا جبناء ، هذه سمة يتيمة توجد بينكم ، إذا خفت منى أنا الفقير الضعيف الذى ناهز السبعين فلماذا لا تخشى الله خالقى وخالقك ؟ ؟ بلغنى ما قلته عنى أمام مقهى البنان ما جرحت به امرأتى غويشة ، تهديدك بلغنى بأقاربك فى وزارة التموين ، ماذا تظنهم فاعلين ؟ ؟ . أعلم يا حسن . . يا أهالى حارة الطبلاوى الكرام ، ان ابن خالة امرأتى غويشة كونستابل ممتاز ، ولا ينقطع عن زيارتنا ويرجونى كثيرا ان أرد زياراته لدرجة اننى خجلت منه واعلموا ان علبة سجائره تحت امرى ـ اسحب منها وقتما اشاء ، ولكننى لا أستعين به قط على أعدائى ، لأن احوالى وأمورى التى لن أبوح بها قط تحمينى وتجعلنى . .

(٤) . . ما رأيك يا غويشة ؟ .

امرأة : الرأى لك يا دحروج . .

— لن أرد على ما قاله الحاج سنوسى بائع العطر . .

امرأة : وصفك أوصافا دنيئة يا دحروج . .

— لن أخرب بيته يا غويشة ، لن أذكر مصنع العطور الصغير داخل شقته . . الحاج يتهرب من الضرائب يا غويشة ومن التأمينات الاجتماعية ، ويستخدم أولادا صغارا . .

امرأة : يا خبر . . والنبى لا أعرف هذا كله ، تصور انه يلف على صفوف المصلين فى الحسين . . يمسح ايديهم بالعطر ويبيع زجاجات صغيرة يقول عنها . . بركة من عند النبى ، بركة من المدينة المنورة . .

(٥) . . يا أهالى الطبلاوى ، يا مساكين ، يا وجوه النحس ، يا أشقياء عندما أطهر حياتكم من الكذب ، عندما أزيح عنكم النفاق والاضطراب وأنظم أموركم بطريقتى ، سأنزل اليه ، وأطلب منكم أن تحكموا عليه ، وتلقنوه درسا . .

(٦) . . مثلا امرأة عمر بدوى جساس البهائم فى الأسواق تتحدث دائما عن اقاربها فى مصلحة السكك الحديدية ، « والدى ، والثروات الطائلة » دائما تكلمكم عن أهل زوجها الأشقياء الذين نهبوا نصيبه فى الميراث ، عم بدوى يرفع عليهم القضية تلو القضية ، لهذا فثمة ثروة ستأتيه يوما ، عندئذ تشترى الست نعيمة بيتا فى مصر الجديدة حوله حديقة ، وتملؤه أثاثا فاخرا وتفارق الحارة القذرة ، وأهلها الانجاس ، يا أهالى الطبلاوى البلهاء ، لاننى أعرف كل كبيرة وصغيرة ولأننى أعلم خباياكم ، ما تظهرون وما تبطنون ، لهذا سأقول لكم الحقيقة ، الست نعيمة التى تتعالى علينا ، وتحدثنا من طرف انفها ، لا أقارب لزوجها كما تقول ، لها أخت صغيرة لا تدرون عنها شيئا اسمها راجحة وتسكن بدروما قديما فى حارة سيدى معاز ، زوجها بائع هريسة متجول ، وحتى التزم الدقة ، أقول انه يبيع بطاطا فهو يمتلك فرنا فوق عربة يد ، راجحة تساعده فى كسب العيش ، هل تدرون كيف ؟ ؟ عندما تتشاجر امراة مع جارتها تذهب اليها ، تمنحها قروشا قليلة ، أو قطعة لحم فى رغيف وتستعين بها ، أخت الست نعيمة لها

محاضر عديدة فى البوليس وعندما تقل المشاجرات تحترف الندب ولطم الخدود وراء الموتى يا أهالى الطبلاوى ، يا أكذب خلق الله ، فى زمانى البعيد الطيب ، وأين انتم من زمانى ؟ ؟ أمثالكم لا يسمح لهم بالعيش فيه ، آه . . راح زمانى الاخضر وأيامه الهنية ، فى الليل نسمع الأغانى فى المقاهى الدافئة ، ونشرب الجنزبيل والقرفة ، نصلى الفجر ، فى نفس هذه الحارة ينزل الرجال يصيحون على بعضهم ، كل منهم ينبه الآخر ، وفى الليل الرائق تسمع القباقيب ، والماء والوضوء ، ثم تخرج جماعة الى الحسين ، وتقابل النهار بوجوه سمحة ونفوس راضية ، فى زمانى رأيت الأمان ذاته ، لا أنسان يخاف على ماله أو أولاده ، أو بيته ، وكلما رأيت ما يجرى بينكم يدركنى والله رعب ولكننى ملازمكم حتى أقوم المعوج وأعيد السيرة الصافية هنا فى حارة الطبلاوى وليلحقنا باقى الدنيا ، لن اسمح بتكرار ما قامت به الست نعيمة عندما زارت جارتها أم سهير ، وعندما دخلت لتعد شايا ، مدت يدها ودست ورقة نقدية قيمتها خمسة وعشرون قرشا فى صدرها ، أنا الآن أدفع التهمة عن مجدى الابن الوحيد للست أم سهير والمتهم ظلما ، المهم . . اننى لن أطيل عليكم . .

(٧) « أصوات مرتفعة ، يا كلب .

يا . . إذ . . إذ . .

(٨) . . ارجوك يا مسعد أفندى الا تتساءل ، ما وصلنى وصل وانتهينا ، وانا واثق انك وحدك تعلم مقدار النقود التى تخبئها ، الفلوس الفضية القديمة ، الفضة الحقيقية ، فيه القرشين والخمسة قروش ، والعشرة ، أعرف عدد علب الصفيح المصفوفة فى منزلك ، وهوايتك ليلة الجمعة عندما تفرغ العلب من محتوياتها ، وتنشىء أكواما من النقود ، تغير اشكالها كما تشاء ، ثم تغسل النقود كلها فى طشت نحاسى كبير ثم تنام هانئا ، بسبب هذه . القطع من العملة والنقود الأخرى التى لن اذكر مكانها . لم تتزوج ، ذاب عمرك فى عملك الحقير ، كاتب بالمحكمة الشرعية ، لا يهمنى مصادر دخلك من الأموال ،

لكن أذكرك بما فعلته الست نعيمة عندما سرقت مبلغا تافها من أم سهير ! ! تعال نبحث عن السبب معا ، ثم دعنى أقل لك كيف نمنع وقوع هذا . .

(٩) . . ياولد يا جابر ، يا سعيد ، زمانكما أجرب ، لم تذوقا طعم النساء ، لم تستمتعا بأى شىء ، لو بيدى لحررت لكما جوازى سفر تهاجران بهما الى زمنى الأول ، فيه عرفنا الابكار الحقيقيات ، رأينا الحياء على حقيقته ، ذقنا المتعة ، الانوثة الريانة ، كل ما تنالانه وقفة بلا جدوى أمام مدخل الحارة ، أصغيا الى . .

(١٠) وأثناء قيام السيدة لواحظ . .

(١١) . . أحمد العطار الشاب العفى ، والذى يرعب الكبير قبل الصغير الفاتح الرجولة ، هيه . . لكنه زمن مائع ، لا يعرف فيه الرجل من الأنثى ، فالمقلوب معدول ، والظاهر باطن ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى الـ . .

★ ★ ★

(١)

بعض الوقائع :

. . كل ما قاله دحروج ، كتبه عبد المقصود أفندى ، لديه خبرة عمر فى كتابه العرائض والشكاوى ، يعرف المدخل المناسب لكل شخصية وذى منصب ما يجب قوله ، وما يقال ، ذكر ما قيل فى حق امرأته ومايسىء الى فوقية ابنته التى دخلت سن الزواج ، ما سيلفت نظر المسئولين بوزارة الداخلية بالذات هذا المطلب العجيب الذى وجهه المدعو دحروج الى الأهالى ، ضرورة تعديل أوقات نومهم بحيث يأوى الجميع الى اسرتهم فى تمام الرابعة والنصف بعد ظهر كل يوم ، مع مراعاة ظروف الذين يعملون فى نفس الفترة ، ثم يوقظهم دحروج عن طريق مكبر الصوت ليتحدث اليهم ، وينظم أمورهم ، لم يكتف بهذا بل منح الأهالى مهلة قدرها ثلاثة أيام يتحولون من نظام الى نظام ، يغيرون

عاداتهم ، عبد المقصود أفندى سطر خطا ثقيلا بالمداد الأحمر تحت حديث لدحروج قال فيه « منذ الآن حارة الطبلاوى لها ناموس غير النواميس » .

. . الآن يضيق عبد المقصود أفندى ، اضطر الى ذكر أقوال دحروج حول امرأته وجيدة ، سيفضح نفسه ، لكن من الضرورى جدا اثباتها ، اذ انها التهمة الوحيدة الواضحة التى يمكن ان يعاقب عليها القانون ، يتململ عبد المقصود أفندى إذ يتخيل تهامس النساء فوق السلالم حول زوجته « المرأة جنت على كبر » تؤكد اخرى انها تعرف ما قاله دحروج من قبل وسكتت طويلا حتى لاتنهش عرض جارة قديمة ، ما يطمئن قليلا ان دحروج حذر كل انسان ، رجلا أو امرأة ، من تناول مضمون حديثه بالزيادة أو التشويش ، لكن هل يكفى هذا لربط الالسنة ؟ قام ، تحسس الأرض بحثا عن شبشبه ، قضى اليوم كله فى البيت ينسخ العريضة ويرقب تصرفات وجيدة . .

« نظراتك غريبة ياسى عبد المقصود . . »

استعاذ بالله ، يحاول الا يعلو صوته ، كل حركاته ونظراته تفسر الآن ، كل ما تقوله هى يتحلل فى ذهنه الى حيرة ، الى استفسارات ، استجابتها أسرع مما يجب لمطالبه بمنعها من الطلوع الى عشة الفراخ فوق السطح ، حجرة الاسطى عبده بمواجهتها ، سائق النقل العام بمفرده ، ينام اليوم كله ، ينزل فى المغيب ليتسلم نوبة عمله ، ينظر الى امرأته ، ينهض صدرها ، لم تغب ملاحظته عن عين دحروج بل سخر قائلا « هل يوجهه الأسطى عبده كما يمسك مقود العربة . ما يضايقه اضطراره الى ذكر هذا كله فى العريضة . ربما سخر منه المسئولون ، لكنه أحكم الصياغة ، عدد من الجيران علموا بنيته فى ارسالها ، أبدوا بشرا وعلقوا آمالا ، يعرفون شهرته بل ان أحدهم قال بالنص « هذه العريضة ستذبح دحروج ذبحا » . . لكن عبد المقصود الآن يتنفس ببطء لم يتشاجر مع امرأته يوما ، حتى بعد انقطاعهما عن بعض فى

السرير يذكر الآن حديثا لحسن أفندى متولى عن شهوة بعض النساء إذ يبلغن الخامسة والاربعين ، يطشن ، القت ساعة الحائط ثلاث دقات مختصرة ، بعد غد يحين انتهاء المهلة المحددة ليبدأ جميع أهالى الحارة نومهم فى الرابعة والنصف ، سمع امرأته تتثاءب ، نظر اليها وحنق فى عينيه . .

(٢)

● باق عشر دقائق .

فى الواحدة يعلو مكبر الصوت ، يزن قليلا ، يلقى دحروج تحية المساء ويلعن الدنيا القائمة ، ويرثى الزمان القديم ، ويؤكد انه سينتظر كل شيء ، ثم يتلو ما وصل اليه من أخبار ، يرد عليه البعض ، وتلقى الحجارة على نوافذ شقته المغلقة ، مهما حدث لن يفتح الحاج حمزة جزءا من نافذته المطلة على الحارة حتى الآن لم يتعرض له دحروج ، مع مرور الأيام وقيام الهياج فى الحارة ، أيقن الحاج حمزة ، ان اعتبارات عديدة تتدخل فى امتناع دحروج عنه ، أهمها انه قضى أكثر من ثلاثين عاما ناظرا لمدرسة كتخدا الابتدائية ، تلاميذه أصبحوا الآن رجالا ، يقابلونه فى الطريق ضباطا ومهندسين وكتبة فى المصالح الحكومية ، يصافحونه فى المقهى إذ يجلس مرتديا جلبابه الأبيض متأملا لاعبى الطاولة أيضا ربما يعلم عنه دحروج موقفه عندما عرضوا عليه منذ عشر سنوات الانتقال الى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته ناظرا ، لكنه رفض آثر البقاء فى الحى الذى ارتبط به ، ومرت أربع سنوات كاملة قبل أن يصبح ناظرا لمدرسته ، يعرف أن دحروج لم ينجب ، يرثى له ، بالتأكيد يعانى ضيقا وآلاما ، لو أنجب طفلا والحقه بالمدرسة لأولاه عناية خاصة ، الآن لا يضيق بازعاج دحروج ، ليفعل ما يشاء ، ليسب أهالى الحارة ، ليعيد تنظيم الأمور فيها كيفما يشاء ، فعلا كثير من الأوضاع يجب تقويمها ، ليحدد للسكان نوعيات الطعام التى يجب ان يأكلوها يوميا ، المهم . . الا يذكر شيئا عن بناته ، دحروج عالم بكل

شيء ، مطلع ، قطعا سيعرف افكاره الودية ، أنه أول من ينفذ تعليماته ، عندما طلب ان ينام الجميع فى الرابعة والنصف ، أسرع الحاج حمزة بتطبيق هذا على بيته قبل انتهاء المهلة بيوم ، بناته أبدين ضيقا وامتعاضا ، أجبرهن على طاعته ، لابد ان يتاكد لدى دحروج ان الحاج رجل طيب ، مرب فاضل كما تتحدث عنه كلمات الطلبة فى المدرسة ، كما وصفه المدير فى العدد السنوى من مجلة المنطقة التعليمية ، فى كل ليلة يصغى اليه ، اذ يسكت دحروج لحظات يمسك أنفاسه خشية ان توجه الفقرة التالية ضده ، تتعاقب عليه الانفعالات ، ما يرعبه ان يتحدث دحروج عن البنات ، بالامس أبدت سعاد ابنته ضيقا ، تعودت عمرها كله استذكار دروسها من الخامسة حتى الحادية عشرة ثم تنام كيف تغير نظامها وامتحان التوجيهية مقترب ، أحاطها بذراعيه ، دفعها أمامه ، كاد يكمم فاها ، قال . . لا تزعقى ، عمك دحروج لم يتعرض لنا ، عمك حر ، صباح اليوم جاء بيومى السائق بمصلحة السكة الحديدية ، قدم اليه عريضة قال إن نصف سكان الحارة وقع عليها والباقى سيوقع ، سوف تحدث العريضة صدى كبيرا لدى المسئولين ، خاصة بعد طلبات دحروج الغريبة من الأهالى واصراره على نومهم مبكرين وتوحيد طعامهم اليومى ، على ان يتولى الطهى بيتان أو ثلاثة يوميا لكل الاسر مقابل مبلغ يتفاوت طبقا لقدرة هذا وذاك يدفع أول كل شهر الى حسين افندى متولى شخصيا ، قال بيومى إن المسئولين سوف يتدخلون فورا ، لأن العريضة سترسل بالتلغراف ، والمطلوب فقط قرشان والتوقيع ، الحاج حمزة لم يدع بيومى يكمل ، تفجر هدوء عمره كله ، « اسمع . . »

أسرع يطل من النافذة ، زعق مخاطبا اهالى الحارة ، بيومى وغيرهم مع ان بيومى يقف فى الصالة ، انه لن يوقع على أى عريضة ضد جاره القديم دحروج النمرسى ، (وهنا علا صوته تماما ، وهذا مالم يعهده اهالى الحارة) . انه غير منزعج أبدا ، ما يفعله دحروج من حقه تماما ،

سكت لحظة ثم زعق انه لا يمت بصلة الى حارة الطبلاوى ولا يعتبر من سكانها لأن مدخل بيته وشرفته الرئيسية تطل على شارع قصر الشوق ، اما النافذة التي تصله بالحارة فسيرسل في طلب نجار ليسدها في الحال ، برغم هذا فسيصغي الى دحروج وينفذ كل ما يامر به ، خاصة ان صحته وصحة الأولاد تقدمت بعد نومهم مبكرين ، انه ينصح جيرانه نصيحة لوجة الله ، الحذار ، الحذار ، من اى عمل خفى ضد دحروج ، لأن الرجل مكشوف عنه الحجاب ، وإلا . . فكيف تاتى له معرفة نص عريضة عبد المقصود افندى كاملا ؟ ؟ .

٣

● فترة تلى أذان الفجر ، يتحلل على ميل سواد الليل ، تولد ملامح البيوت وتتخلق الوانها من جديد ، من نبع خفى يظل بخار ابيض منظورا عالقا بالفراغ ، بلاط الحارة يلمع تحت ضوء الفانوس الغازى الوحيد الذى يبدو يتيما شاحبا في مواجهة ضوء نهارى وليد ، من نافذة متسعة في الطابق الأول بالمنزل الرابع تطل الست روحية مع أولادها السبعة صامتين يصغون الى ما يقوله دحروج ، ايضا عائلة أم حسنى حتى الجدة العجوز ، منذ فترة وجيزة سكت ، بدت نافذة بيته مغلقة ، بنية اللون ، لم يرها أحد تفتح ابدا ، يعرفون انه لن يكف تماما الا في تمام السابعة لهذا ينتظرون الآن استئناف الحديث في أى لحظة ، فجأة انبثق صراخ ، رفيع حاد مسنون ، عويل مستانف يبذله الجسم والنفس معا ، ممدود مقبض ، فيه خلاصة العجز الانسانى في مواجهة أمر قاهر ، بدا فرديا ثم أصبح جماعيا غليظا عبوسا ، نظر الساهرون من السكان الى منزل صالح افندى ، فتحت نوافذه بصعوبة خرجت كلمة من بين العويل . .

يالخويا . .

استعاذ اهالى حارة الطبلاوى بالله ، كلهم بدون استثناء ، بدا خوف غامض على وجوه السيدات ، ينظرن الى نافذة دحروج المغلقة وكأنها باب للفرج أوصد ، أول أمس صاحت امرأة صالح افندى في تمام الثانية

صباحا مخاطبة دحروج ، تحدثه اذ احاط بكل ما يجرى بالحارة ، مادام قد أوتى معرفة ما سيحدث ، وبعض الأهالى يقولون برفع الحجاب عنه ، فليقل لها اذن هل سيشفى ابنها تيسير ؟ وحيدها المريض منذ عام ، الذى حارت به ولفت على جميع المستشفيات ، يذكر أهالى الحارة الآن صمت دحروج ، ثم قوله المقتضب « يا أم تيسير ، لو طلعت شمس يوم الثلاثاء على ابنك ووجدته حيا سيعش مائة سنة » ثم أستأنف كلامه العادى ، الآن ، يبدو الثلاثاء جهنم لا يطاق ، تذوب الاحشاء فى العويل القاسى ، والشمس على وشك الشروق . .

(٤)

حتى مغيب اليوم التالى على ما اذاعه دحروج . لم تدر حسنية ماذا تفعل ؟ هل تذهب مع اولادها الأربعة الى ورشة الحاج بندق صانع التماثيل الخشبية ؟ تولول ، تجمع عليه الخلق ، تحكى كيف تزوج فتاة صغيرة ، ويبالغ فى تدليلها ولا يعطى بيته مصروفا كافيا ، لم تقصر فى حقه ، بداية حياتها هنية طرية ، فى سنين زواجهما الأولى رأت امراه شعثاء جاحظة ، تدفع سربا من الاطفال وتحمل رضيعا ، تقف أمام دكان موبيلياتى تطالبه بالمصروف ، تركها منذ اسابيع ، تذكر الدم المتدفق الى وجه المرأة ، عروق رقبتها النافرة الزرقاء ، يومها قالت « بندق لن يفعل هذا بى ابدا ، قبل عودته تطمئن الى نظافة البيت ، تمشط شعرها ، تتهيأ لاستقباله تروى بدنها بالأطايب حتى تبدو وريانة ، يستريح اليها من عناء يوم طويل ، الآن لا تجرؤ على الذهاب الى الورشة ، ربما يبهدلها ، ستجرى فى أورقه المحاكم ، تتوه فى طرقاتها فى نظرات الكتبة الشبان والعجائز ، تبلى فى الانتظار ، لا تقدر على العودة الى البلدة ، شقيقها لن يحتملها مع اولادها ، لن تطيق نظرات الحريم يقلن فيما بينهن « لم تنفع فى مصر » لا تدرى ما تفعله الآن ، هل ترمى نفسها من الطابق الرابع ؟؟ تتخلص من ضيقها ، تنهى أوجاعها ومصائبها ، اذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لا تصلح لعجين أو خبيز أو غسيل ، من يدرى ربما يرق قلبه اذ يراها مصابة ، يحن ويرجع الى أولاده . . جاراتها نصحنها بالمضى الى

دحروج . تقف تحت نافذته ، ترفع صوتها راجية أن يدلها أى السكك تسلك ؟ ؟

٥

. . أمام جامع سيدى مرزوق ، يقف حسن أفندى متولى ، يقرأ الفاتحة ، فيما بعد لم يدر الحاج بيومى هل تم اللقاء مصادفة أم تعمد مقابلته ، عيناه حمراوان ، لم ينم ليل الحارة ، لم يعتد النوم فى تمام الرابعة والنصف ، لا يمكنه الآن الا الاضطجاع أثناء حديث دحروج ، قال حسن افندى أنه لافائدة من أى عمل تم حتى الآن ضد دحروج ، حتى عريضة عبد المقصود افندى المشهور بصياغة العرائض وحبكها لم تأت بأى نتيجة ، بل أن احدى صورها المرسلة الى جهة رسمية أعيدت اليه لأن البريد لم يستدل على عنوان احدى الوزارات ، ثم ماهى حال عبد المقصود الآن ؟ ؟ بيته خرب بعد عمار هجرته الست وجيده بعد أن أغرقها بالشك ، قال حسن أفندى إن ما يقوم به دحروج لا يوافق عليه ، وهو لم يقصر فى سبيل ايقافه عند حده وأهالى الطبلاوى يعرفون كلهم ، الكبير منهم والصغير أنه أول من ذهب الى القسم على رأس وفد من الحارة وقدم بلاغا وقع عليه وأملى بصوت عال رقم بطاقته العائلية ، وحتى الآن لم يحدث أى استدعاء لدحروج ، فلم يره ، احد يخرج من بيته ، لم يظهر ابدا لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لا يدرون آخر العواقب ، قالوا فيما بينهم لا وجود لرجل اسمه دحروج ، والا فأين هو ؟ ؟ أما الصوت الذى يخاطب الأهالى فربما بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة ، وما الصوت الا تسجيل يضعونه بين الحين والحين وربما تتعرض لظاهرة خفية ، وأمور غير مرئية وعندما ذهب أحدهم الى بيت دحروج ، تناقش مع مسعد أفندى أكد له وجود دحروج وأمرأته غويشة وهذا أمر لا ينكره الا اجنبى عن الحارة أو مجنون ، لأنه يعيش بينهم طوال عمره ، صحيح لم يسمع له حس ولكنه لم يحتجب الا بعد بدئه الحديث مع الأهالى ، وقال مسعد أفندى إنه أدرى بوجوده لأنه يسكن

تحته ويسمع صوت تحركه بالليل وبالنهار ، وهنا ارتفع صوت حسن افندى ، هل تعلم ماذا جرى يوم أمس لشكرى أحد الشبان ؟ قال بيومى إنه لا يعرف بسبب تغيبه فى السفر ، قال حسن أفندى ، فى المساء قال دحروج كل ماتناقشوا فيه ، وحذر شكرى مثير الشكوك ، ثم أنذره بعدم الذهاب الى امتحان الكلية ، ولو خالف فسيذيع الأدلة الدامغة بانتمائه الى أحد التنظيمات السرية التى تعمل ضد الحكومة قال حسن أفندى ايضا ، إنه رجل هادىء بطبعه لا يحب الازعاج ولا يطيقه قال حسن افندى إنه يؤمن بعدم فائدة النطح فى الحجر ، وأن النقش على الماء عبث ، والنفخ فى قربة مقطوعة مضيعة للوقت ، لهذا كله ، ولأسباب عديدة ، بعضها خفى وبعضها معلن ، يرجو من الحاج بيومى سحب توقيعه من . . » قاطعه الحاج قائلا إنه ارسل العريضة فعلا ، صحيح أن السكان لم يوقعوا فعلا كلهم لكنه ارسلها حتى يحرك المسئولين ، استفسر حسن افندى عن الجهات التى ارسلت اليها العريضة وكتبها فى ورقة ، ابدى غما ، قال إنه سيرسل الى كل منها تلغرافا يعلن تراجعه ، سيكلفه هذا كثيرا لكنه سيضحى بماله ايثارا للهدوء ، قال أن الناس يحبون لبعضهم الأذى . ولا يصح للحاج ولا لغيره ارسال العريضة بدون أخذ آراء من وقعوا عليها ، احتد الحاج بيومى قائلا ، مجرد التوقيع يعنى الموافقة على ارسالها ، زعق حسن أفندى ، ابدا ، ابدا ، لا يوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول ، هو موظف الحكومة ، الذى قضى عمره بادارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس ، علا صوت الحاج بيومى موضحا ، أنه هو ايضا موظف حكومة ، أليس السائق بالسكة الحديدية موظفا رسميا يقبض مرتبا شهريا ويتقاضى علاوات أكثر من التى يتقاضاها موظف فى الدرجة السابعة ، مط حسن أفندى شفتيه احتقارا ، توقف بعض المارة ، تجمعوا حولهما .

* * *

مشاهدات الرقيب صالح عبده ، بالأمن الخاص فى حارة الطبلاوى عندما جاء يستطلع الأحوال .

« ياحاج بيومى . . ياحاج بيومى . .

كان البعض يجيب بتصفيق مماثل ، الضوء عال ، والنهار شاحب مرتحل ، هدوء ثقيل مراق بسخاء ، منذ دخوله الحارة لم ير طفلا ، أو امرأة ، عادة يتصايح الصبية حوله ، يمشون خلفه يتوقعون منه حركة عنيفة مفاجئة فيحتفظون بمسافة معينة . ربما اتقن الأهالى هنا تربية أولادهم ، حرموا عليهم اللعب فى الحارة ، توقف فى الطابق الأول أمام باب جهم المنظر ، خبط مرات ، لم يجب احد ، دق الباب بعنف ، حركة صغيرة مترددة ، صوت شبشب ، عاد يطرق الباب ، يأتى همس ، اثنان يتبادلان الحديث ، لم يدر أهما رجلان أم امراتان أم رجل وامرأة ؟ ؟ صفق مرتين ، علا صوت . .

ما هذا الازعاج الا نستطيع النوم فى راحة ؟ ؟

الحاج بيومى موجود ؟ ؟

فوق . . فوق ياعالم ارحمونا ودعونا ننام . . .

نزل الحاج ملتفا فى عباءة قديمة من وبر الجمل ورثها عن والده ، عيناه ضيقتان ، فيهما آثار نوم ، الشرطى صالح لا تزعجه مثل هذه المقابلات ، امثال الحاج يتباهون قائلين . . طول عمرنا لم نمض الى قسم بوليس ، ولم نقف أمام نيابة .

« أنت قدمت »

« لم يكمل الشرطى صالح حديثه ، قاطعه الحاج ، صوته رفيع حاد كصفير قاطرة متحشرج . .

« أنا لم أقدم ولم اشك . .

« ولكن . .

« تنازلت يا اخى تنازلت عن الشكوى والعريضة ، المصارين تتصارع فى البطن . . مابالك ونحن جيران ؟ ؟

ينظر الشرطى صالح دهشا ، قال الحاج إنه تنازل عن كل شىء وأنه

على استعداد للذهاب الى السجن بسبب ازعاج السلطات ، لكن أن يسأل سؤالا واحدا حول جاره العزيز لا . . ثم يجب على الشرطة اختيار الوقت المناسب للحضور الى الناس ، أما أقلاقهم فى أحلى ساعات النوم . . نزل الشرطى صالح الى الحارة ، نوافذ البيوت مغلقة ، تلفت حوله سائرا ، دخل بيت دحروج ، فى منتصف الليل قبل بدء الحديث اليومى ، قيل إن دحروج خرج وتحدث للشرطى فعلا ، وأن ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدركه النوم فى المواعيد المحددة ، ايضا استفسر دحروج عن بعض الأشياء ، ابدى اهتماما تجاه اسماء معينة ، ابدى الشرطى دهشة ، قال دحروج أنه يعرف هؤلاء كلهم وكبيرهم رهن اشارته ، ثم اوصاه باتمام اجراءاته على أتم وجه ، فى هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس الفران ، رآه الشرطى صالح يرفع يده بالتحية اذ يمر تحت بيت دحروج ، النوافذ مغلقة لكنهم يثقون أنه يراهم ، يعرف من القى السلام ومن لم يلقه ، يعرف من جرؤ على تناول الطعام خارج الحارة بمفرده أو فى بيته ، الحاج حمزة يفتح النوافذ يوميا قبل نومه ، وزعق بالسلام حتى بعد تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى ، وذكر بعض تفاصيل علاقاتها بمدرس الكيمياء ، أم تيسير منذ رحيل ابنها الأبدى ، بمجرد أن يبدأ دحروج حديثه تنزل مهرولة بقميص النوم ترفع ذراعيها زاعقة تحت النافذة « الله أكبر . . الله أكبر ، عليه وعلى شبابه ، دحروج بركة » أى مخلوق يجرؤ على شكواه ستناله مصائب ومحن ، وتغرقه رزايا ، حتى الحاج أحمد تاجر الورق ، المريض بأعصابه ، قال لكل من زاره أخيرا أن صوت دحروج الليلى لا يزعجه بل ينبئ بأن شفاءه سيتم قريبا وأنه قبل ما كلفه به دحروج ، من قيامه بدور الوسيط بين المتخاصمين فى الحارة ، بعد فترة ايقن رأفة دحروج به ومراعاته لظروف مرضه ، لم يعد يخاصم أحدا ، ومن لديه وجيعة ليمض بها طارحا اياها أمام دحروج ، اسند اليه أخف المهام وفى الواحدة صباحا يقف بالشرفة ويضحك ويهز رأسه موافقا ، يصيح مستحسنا ما يقال ، عند باب الحارة توقف الشرطى صالح عبده لم ير

أحدا ، لا ينوى توجيه أى سؤال ، رأى طفلا صغيرا يتجه الى مدخل الحارة ، لمعت عيناه لحظة واتجه الى الطفل انحنى حتى قارب رأسه . .

« اسمك ياشاطر ؟ ؟ »

« سعد . .

« أنت من هنا . . من حارة الطبلاوى . .

أومأ الطفل ، بدا قلقا ، الأطفال لا يكذبون ، كواجب أخير ، سيحاول أن يعرف منه . .

يعنى ألم تسمع ميكروفونا ابدا بعد . .

هز الطفل رأسه ، ابتسامة مرتعشة قلقة . .

خيالات يا شاويش . . ابدا . . ابدا . .

هل تنام يابنى . .

رفع الصغير عينين شاحبتين ، بدا متعجبا ، أى سؤال هذا ما الذى يقوله هذا الشاويش ؟ ؟ انفلت يجرى مسرعا . »

* * *

تأشيرة على المذكرة الايضاحية رقم ١٠٦ ، وعلى تقرير الشرطى صالح عبده وعلى عرائض مقدمة من بعض أهالى حارة الطبلاوى ، وشكاوى من مجهولين ، ونصوص مكالمات تليفونية ، لمواطنين رفضوا ذكر اسمائهم .

يحفظ . . . .

١٩٧١

حكـــايات الغـــريب

فى يوم السبت ٢ فبراير ١٩٧٤ بعد أن فتح الطريق الى السويس للمدنيين قام رئيس العهدة المخزنية بالمؤسسة العامة المعتمدة للتوزيع والانتشار بكتابة مذكرة يعرض فيها موقف الاسطى عبد الرحمن محمود . حيث أن المذكور قام فى تمام الساعة السادسة من صباح ٢٣ أكتوبر بقيادة سيارة نقل من طراز فورد موديل ١٩٥٦ . محملة بصحف وكتب ومجلات لنقلها الى مدينة السويس وتسليمها الى الحاج حسن السودانى متعهد التوزيع هناك . وخلال السنوات الثلاث الماضية أصر على قيامه بقيادة رحلات المؤسسة الى السويس ، واعتبر أكثر سائقى المؤسسة خبرة بهذا الطريق الصحراوى الذى تكثر فيه المنحنيات ويزدحم بالمركبات العسكرية . غير أن أخباره انقطعت تماما منذ ٢٤ أكتوبر . وأصبح موقف السيارة الفورد والبضاعة غير معروف مما تسبب فى وجود فجوة فى دفاتر العهدة .

وفى يوم الأحد ٣ فبراير . أبدى مدير المؤسسة حيرة عندما عرضت المذكرة عليه ، إذ أن الموضوعات التى يقرها دائما ذات طابع متشابه مهما اختلفت مصادرها ، لم يسبق وقوفه أمام موضوع بهذا الشكل . لهذا رفع السماعة وطلب رئيس مجلس الادارة . وبعد تفكير مشترك صدر قرار بتشكيل لجنة تسافر الى السويس وتستقصى الحقيقة حول مصير العهدة ، وفى تمام الساعة الواحدة والربع بدأت الآنسة سنية نسخ المذكرة الخاصة بتشكيل اللجنة بعد أن انتهت مكالمة تليفونية طويلة مع إحدى صديقاتها .

وبعد ثلاثة أيام صدر القرار من أصل وخمس صور . يحمل توقيعا رئيسيا لمدير المؤسسة ، وتوقيعا جانبيا لرئيس القسم الخاص بالعهدة وأسفل الصفحة إسم « سنية » التى نسخت القرار . . ضمت اللجنة الأستاذ الجواهرى رئيس العهدة وسعيد طايل الموظف بإدارة الأفراد . وشفيق نصرى الموظف بقلم التوزيع ، عقد اجتماع عاجل حيث اتفق الأعضاء على صرف مبلغ لكل منهم كبدل سفر لمدة سبعة أيام ، وطوال مناقشة هذه النقطة لم يلفظ الأستاذ الجواهرى كلمة حتى لا يقال أنه اشترك فى مناقشة أمور مالية ستعود عليهم بالخير ، إنه موظف قديم خدم من قبل فى ديوان الاطمئنان على صحة المواطنين ، عالم تماما بالأصول والقواعد . فى اليوم التالى عقد إجتماع آخر . فى بدايته ضغط الأستاذ الجواهرى زرا جاء بعده عامل البوفيه . طلب طايل افندى شايا . أما الأستاذ شفيق فطلب قرفة ، اعتذر العامل بسبب ارتفاع سعر القرفة وندرتها . أبدى شفيق افندى ضيقا وقال ان البوفيه سيىء ولابد من تغيير المتعهد ، اعتذر ، أشار رئيس اللجنة الى المهمة الصعبة التى تنتظرهم . واستفسر عن تصور كل منهما لخطة العمل الواجب اتباعها ، اقترح طايل افندى البدء من هنا ، ضرورة الذهاب الى أسرة المذكور واستجواب أمه وزوجته وأولاده واستيضاح آخر تاريخ تواجد فيه بينهم ، أشار الأستاذ الجواهرى الى ملف أزرق . قال إن الخطوة الأولى من هنا ، تعجب طايل افندى ، كيف فاتتهما الفكرة ؟ ؟ ثم استعرض محتويات الملف واتضح أنه يضم ما يلى :

● شهادة ميلاد باسم : عبد الرحمن محمود على ـ من مواليد عام ١٩٤٤

● إسم والده : محمود على أحمد ـ إسم والدته : نجيه . تم تطعيمه مرتين الأولى ضد الجدرى والثانية ضد الدفتريا .

● شهادة حسن سير وسلوك ، موقعة من موظفين اثنين مؤرخة فى ١ / ٨ / ١٩٦٧ .

● تصريح بممارسة القيادة على جميع أنواعها .

● شهادة خبرة من المؤسسة المصرية العامة لنقل الأوعية الزجاجية الفارغة تبين أن المذكور قضى خمس سنوات فى خدمة الشركة .

● شهادة معافاة من الخدمة العسكرية . نظرا لأنه الابن الوحيد وعائل أمه .

ولاحظ الأستاذ الجواهرى خلو الملف من العقوبات أو الجزاءات وطلب تدوين هذه الملاحظة ، اقترح طايل افندى الذهاب الى أسرة المذكور غدا مع احتساب المدة التى سيقضيانها بالعطوف من الفترة المخصصة للمأمورية تمهل الأستاذ الجواهرى فى الموافقة ، خاصة أن الاقتراح يعنى تقاضيهم بدل سفر يوم سيقضونه فى القاهرة . . العطوف .

■ ■ ■

بعد بحث استغرق ساعة . تخللها سؤال أصحاب دكاكين ، وصبية ، وجرسون ، وأمين شرطة ، وامرأة عجوز ، وصلت اللجنة الى المنزل رقم ١١ ، أثار ظهور الافندية اهتماما فى الحى ، وسارعت امرأة تبيع المحشى الى الاختفاء ظنا منها بأنهم من الصحة ، صاحت إحداهن على الست أم عبد الرحمن لتكلم « البهوات » خرجت امرأة حافية . تحيط نصف وجهها بطرحة . آثار خجل انثوى ما زال متبقيا مع العمر المتقدم . تساءلت عن أخبار عبد الرحمن ، من هيئتهم عرفت أنهم جاءوا من أجل ابنها ، تطلعت الى الأستاذ الجواهرى ، أدركت من سنه وحركته البطيئة وإحاطة الشابين به أنه أهم الثلاثة . تقدمتهم عبر فناء به مياه غسل لم تجف ورائحة عطن وزير يستند الى حامل معوج وسلم طويل بدون درابزين يؤدى الى مجموعة من الغرف المفتوحة المتجاورة ، أطلت طفلة إختفت عادت ممسكة بطرف رداء امرأة عجوز ، وسمع صوت أنثوى يطلب من محمد سرعة إرسال أكواب الشاى الى أم عبد الرحمن عندما سمع الأستاذ الجواهرى صوت كباس موقد

غازى صاح طالبا منها أن تحضر لأن وقتهم ضيق . لاحظ شفيق افندى صورة حجم كارت بوستال معلقة فى مواجهة الكنبة القديمة ، تشبه الصور الصغيرة الثلاث فى الملف ، عيناه واسعتان تحملقان الى الأمام ، على الاطار الأبيض أكلاشيه أزرق « ستوديو الأزهر » قالت ان أحدا لم يدلها ، فتمنت لو التقت بالبك المدير لكنهم لم يسمحوا لها بالصعود الى الباب ، قاطعها طايل افندى قائلا إن البك حضر بنفسه اليها ، قالت إن أحد زملائه كتب خطابا على لسانها الى مأمور القسم ، والمحافظ ، أخذه منها جدع طيب يرتدى قميصا وبنطلونا لم تره أبدا بعد ذلك . قالت إن عبد الرحمن هو ما خرجت به من الدنيا وهو سندها . بدا لفظ سندها لشفيق افندى كأنه عويل ، لاحظ وشما أخضر باهتا يتوسط جبهتها . تبدو فى جلستها أكثر ضآلة ، فكر أنها أم ، بحث الأستاذ الجواهرى عن ألفاظ مناسبة يصيغ بها عبارات المرأة المفككة فى المذكرة ، قالت إن ابنها كالريق الحلو ، لم يسمع حسه أبدا ، لم يتشاجر مع إنسان أبدا ، لم يدخل قسم بوليس ، أثناء ذهابها الى المصالح وأقاربها الموظفين بحثت عن ملامحه . جلست مرة بجوار شاب يقرأ الجريدة .

هل يوجد ناس فى السويس ؟ ؟ سألها ، هل أنت مهاجرة يا أمى ؟ ؟ قالت إنها لم تر السويس أبدا ، سمعت عنها كميناء يذهب منه الحجاج الى مكة المباركة ، وعرفته بأن ابنها سافر كثيرا اليها لكنه لم يعد ، قال الشاب ، طبعا هناك ناس فى السويس يا أمى ، هل تصلهم مياه ؟ ؟ قال اطمئنى يا أمى الماء عندهم أكثر من هنا ، سكت لحظة وقال إن عيونا خفية تفجرت من قلب الرمال مياهها عذبة حلوة تكفى بلدا ، أشارت بأصابعها الى أعلى ، قالت إن جدعان كثيرين ماتوا ، ولو تأكدت فلا حول لها ولا قوة .

هنا ضيق الأستاذ الجواهرى عينيه . طلب التأكد من آخر مرة حضر فيها عبد الرحمن الى البيت ، قالت إنها تذكر خروجه وكأن ساعة واحدة انقضت ، بعد نزول السلم طلع مرة ثانية ، قال « خلى بالك من نفسك » ،



نزل متمهلا نظر خلفه ثلاث مرات ، ولو أن نافذة الحجرة الوحيدة تطل على الحارة لتابعته ، لكنها تفتح على منور داخلى تغلقها دائما خوفا من الأبراص والهوام ، قالت . . مضى على خروجه مائة ليلة وخمس عشرة . . أتت بيدها حركة أيقن شفيق افندى معها انها لم تأكل وجبة كاملة منذ مدة . وإنها تعانى الحاجة بعد انقطاع راتب ابنها . وأنها ستبكى بلا انقطاع بعد انصرافهم ، إن حواسهم واهتمامهما كله من أجل استكشاف أمر ولو ضئيلا أخفاه عنها هؤلاء الأفنديه ، ينحنى الأستاذ الجواهرى لهجته بطيئة ، يقول إن السائقين يلفون ويرون الكثير من البلاد والعباد ألا يحتمل لقاؤه بامرأة لفت عليه . . أغوته . .

(لا . . عبد الرحمن ما يعملهاش) . . قالتها باختصار شديد تحاول إخفاء استنكارها كجزء من إحترامها لهؤلاء الأغراب الذين لا يمتون بصلة ما الى إبنها . . كل تصرفاته عليمة بها ، عندما حط عينه على سنية المغربى إبنة جلول بائع العطور أخبرها . طلبت منه توفير بعض المال ، واقترحت عليه النزول ليعمل سائقا على التاكسى ليتزوج ، لم يقسم له نصيب من سنية ، ينظر الأستاذ الجواهرى الى عضوى اللجنة ، لم يعد ما يقال مهما ، إن الساعة تقترب من الواحدة بعد نصف ساعة يصبح من المستحيل ركوب وسائل النقل تستمر أم عبد الرحمن لم يسكتها وقوفهم عندما فاجأت الصرعة أسامة إبن الست روحيه جارتهم استغاثوا بعبد الرحمن نزل السلم يحمله ، أيقظ الدكتور عبد المعطى الذى يسكن فوق عيادته ، قال لو جاءته مثل هذه النوبة عليهم تغطيته بملاءة سوداء وان يضعوا شيئا صلبا بين أسنانه .

ينزل الأستاذ الجواهرى . يتجمع صبية صغار . يبدو أن الست أم عبد الرحمن لا ترقبهم الآن . تتحدث الى شخص ما ، بدا هذا مفاجئا لهم بعد اعتيادهم ثبات ملامحها وجمود وجهها ، تقول أن أول مرتب قبضه جاءها به ، قال إنه يتفاعل عندما يعطيها أول خيره ، أمام البيت

تقترب منهم أمرأة تحمل طفلا . تهمس طوال اليوم على هذا الحال ، ينام الحي كله في الليل لكن صوتها لا يهدأ . تحكى عن عبد الرحمن ، مسكينة . . أصلها لم تر أبيض واسود من ساعة غيبته .

■ ■ ■

« ملحوظة »

يجب الاشارة هنا الى أن مهمة اللجنة عسيرة ، إذ لم يسبق القيام بمثل هذه المأموريات . حرص الأستاذ الجواهرى على التزام الحذر بالنسبة لأى خطوة . لهذا عقد إجتماعا فور وصولهم السويس طالبا شفيق افندى ذهابه الى المستشفى في الحال ، قرر الأستاذ طايل البقاء مع الأستاذ الجواهرى ليستريح قليلا من تعب الطريق . على أن يمضيا بعد الظهر الى مقر المحافظة ومديرية الأمن لسؤال المختصين . وبدأ الاستقصاء الرسمى قام الأستاذ الجواهرى ليطلب أسرته تليفونيا يخبرهم أنه وصل السويس بخير ويطلب منهم ألا يقلقوا وأنه في الأمان . بعد عودته أكد على ضرورة تقديم تقرير مفصل عند نهاية كل يوم مدعم بالمستندات التى تدعم صحة ما يذكر فيه من أحداث ، وتواريخ ، وأقوال شهود . .

■ ■ ■

المستشفى . .

اعترضه رجل يرتدى معطفا أبيض ، أبرز التصريح ، قال أنه يود لو قابل المدير شخصيا ، غير أن الرجل قال ، إن هذا الموضوع يصعب لأن المستشفى آوى جرحى كثيرين في بداية المعارك ، مدنيين وجنودا ، حتى الرجوع الى سجلات المستشفى لن يفيد في قليل أو كثير ، لأن الوقت لم يتح لتدوين الجرحى كلهم ، أما مدير المستشفى الذى عاش الحرب والحصار وداوى المرضى وعالج الجرحى فيشاء السميع العليم أن يموت يوم فتح الطريق وانتهاء الحصار قال إن الأهالى يعرفون الأغراب الذين احتجزهم قطع الطريق . نظر شفيق افندى الى الأرض

المبلولة . والممرضات يرحن ويجئن . ترى . . من رأى عبد الرحمن عض شفته ، سأل ، ألا يمكنه التعرف عليه لو رأى صورته ؟ ؟ إبتسم الموظف قال إن طاقم المستشفى تم تغييره بالكامل ليلة أمس وأنه منتدب من مستشفى قليوب ولا يعرف شيئا . ثم هناك إستحالة التعرف على شخص من الصورة ربما حدثت به تشوهات أو إصابات بالوجه .

ثم إن الانسان تتغير ملامحه تغيرا كبيرا زمن الحرب بتأثير المعاناة ورؤية الموت والقتال . سكت الرجل لحظة وقال . . عموما إذهب الى قسم السجلات ربما دلوك على الاسم . لكن المسئولين عن الدفاتر والسجلات إعتذروا عن تقديم أيه مساعدة لعدة أسباب موضوعية منها فقد بعض السجلات أثناء قصف مدفعى قام به العدو ضد المدينة أحرق جزءا من المبنى ، الثانى يتعلق بالوقت الذى يستلزمه حصر المستندات المتبقية والاشراف على تصنيفها . والسبب الثانى أو الثالث أن كثيرين جدا لم تدون أسماؤهم ، وآخرين قدم لهم العلاج اللازم وخرجوا بدون تقييد أى مستندات بما صرف لهم من أدوية أو علاج لعدم توافر الوقت الكافى ولانشغال الممرضين والأطباء والموظفين فيما هو أهم ، مثل تصنيف المرضى وتوزيعهم على الأقسام طبقا لنوعيات حالاتهم ، أمام باب المستشفى تساءل شفيق افندى ، هل جاء الاسطى عبد الرحمن هنا . هل خرج الى مكان ما ؟ ؟ فى الطريق الصحراوى على مسافات غير متساوية تبدو كومة حديد متداخلة ، يبرز منها إطار عربة ، أكياس قماش ، فردة حذاء ، رأى بعينى عقله الاسطى عبد الرحمن يقود عربته فى الصحراء الملتهبة ، قدماه تضغطان على دواسات السرعة ، قبضات نيران تومض ، هنا وهناك يتحرك الأفق حركة دائرية كأن اندفاع السيارة يبرز دوران الأرض . لكن يجىء الوحش المعدنى هادرا ، يدوس السيارة ، يعلوها يتجاوزها ، على جانبى الطريق لافتة عبرية صغيرة ، زجاجات الكوكاكولا وعلب طعام محفوظة فارغة منقوشة بالعبرية ربما أحد الذين شربوا هذه الزجاجات داس عربة عبد الرحمن بدبابته .

أليس من المحتمل تعرض الأسطى عبد الرحمن لمثل هذا الموقف ؟

وقتها نظر اليه الأستاذ الجواهرى ، قال بلهجته البطيئة . . هذا ممكن . . لكن من يثبت هذا ؟ ؟

● ● ●

« من التقرير اليومى لطايل افندى »

. . كما أفاد قائد عموم المرور أن نقطة المثلث بقيت تمارس عملها وتؤديه طوال يومى ٢٢ ، ٢٣ اكتوبر ، وعندما بدأت علامات الهجوم على المدينة استطاع أحد الجنود أن ينقل الدفاتر والتصاريح التى تسجل حركة المرور من والى المدينة عبر الطريق الصحراوى وبالبحث ثبت ما يلى . .

« إنه فى تمام الثامنة و٤٥ دقيقة دخلت العربة رقم ٦٧٠٧٣ نقل القاهرة يقودها عبد الرحمن محمود ، رقم بطاقته الشخصية ٢٣٨٤٨ الجمالية وحامل تصريح مرور مستديم من والى السويس ، وثبت أن هذه السيارة لم تغادر المدينة حتى صباح ٢٣ اكتوبر وسألت سيادته عن إحتمال مغادرتها بعد مجىء قوات الطوارىء الدولية لكنه نفى ذلك لأن الحركة تمت بواسطة سيارات الأمم المتحدة . وتم استدعاء الجندى سيد أحمد أهل وهو الباقى الوحيد من أفراد نقطة مرور المثلث . أفاد الجندى المذكور أنه فى صباح يوم ٢٢ اكتوبر دخلت عربة النقل المشار اليها قال إنهم يعرفون سائقها لتردده المستمر خلال الحرب وأنه صاح من نافذة الكابينة بعد تدوين بيانات العربة « شدوا حيلكم يا أبطال » عاد فى المساء . . لكن الظروف تغيرت إذ قطع اليهود الطريق فى عدة أماكن . كثرت الأخبار انهم فى الطريق الى البلدة للهجوم عليها . إشتد الطيران ، وجاء الفلاحون من الجناين وجنود شاردون ، آخر عربة ظهرت أمام النقطة هى سيارة الاسطى كمال .

وهنا استوقف الجندى سيد احمد الاهل . وبدأ استجوابه بحضور قائد عموم المرور نظراً للتناقض فى أقوله .

س : من تقصد بالأسطى كمال ؟

ج سائق اللورى المبين رقمه فى دفتر الحركة . .

س : إنه اللورى المدنى الوحيد المبين فى هذا اليوم . . هل تقصد سائقا آخر ؟

ج : أقصد سائق لورى الصحافة

س : إسمه فى الدفتر عبد الرحمن .

ج : ناداه الباشجاويش دائما . . يا كمال وعندما جاء الطيران يقفز معنا الى الخندق وسمعت الباشجاويش يقول له . . لا تخف يا كمال يا بنى ورايته ثابت الوجه متعجبا . فسألته الم ير ضربا طوال حياته . . فقال إنه جاء الى المدينة أيام الحرب لكن الأمور لم تصل الى هذه الدرجة من العنف . رفع الباشجاويش قلة ماء مكسورة الفوهة ، شرب ماء وقال . تشرب يا كمال فهز رأسه قال إنه ليس بعطشان .

س : ألم يدخل لورى آخر فى هذا اليوم ؟

ج : لورى واحد . .

س : ربما سمعت الاسم خطأ .

ج : أبدا . . فى مرة بعد إنصرافه وقف الباشجاويش ساهما وسمعته يكلم نفسه . . قال إنه شبه إبنى كمال . . اى والله الخالق الناطق . . كمال إبنى . .

س : بعد إنتهاء الغارة أين ذهب ؟

ج : عاد اللورى الى داخل البلد . . ولم تخرج ولم تدخل أى سيارة منذ هذا اليوم وحتى فتح الطريق .

● ● ●

ملاحظات الأستاذ الجواهرى :

. . ثبت أنه لم توجد سيارة نقل زرقاء رقم ٦٧٠٧٣ خلال الحصار وافادت المباحث الجنائية والمباحث العامة . والمباحث الخاصة بوجود حطام بعض السيارات المدنية المضروبة ، بعضها استخدم كمتاريس

أو عوائق . أما السيارات السليمة فمحدودة ومعروفة ولم تستخدم على نطاق واسع نظرا لقلة البنزين أيام الحصار وقمنا بمعاينة حطام نقل لم يستطع أحد الاستدلال على صاحبها وجدناها متفحمة تماما . منزوعة الاطارات . منضغطة فى بعضها لدرجة أن كابينة القيادة إندمجت بمؤخرتها . كما احترق طلاؤها تماما . وحاولنا العثور على لوحتى الأرقام لكن يبدو أن بعضهم إنتزعها إذ وجدنا المسامير القلاووظ التى تربطها مفككة وملقاة . قمت باستدعاء صاحب ورشة سيارات وهو فنى معتمد لمعاينة الحطام مقابل ثلاثة جنيهات (مرفق إيصال المبلغ) وأفاد أنها من طراز فورد . لكنه لم يحدد أى مواصفات أخرى ؟ ؟

. . بزيارتى للمسئولين بالمحافظة أفادوا أنه لم يتواجد شخص بهذا الاسم خلال الحصار . مع ملاحظة أنهم قاموا بحصر جميع الأهالى بالمدينة بعد معارك يومى ٢٤ ، ٢٥ اكتوبر . . لتوزيع المئونة عليهم . وقالوا إن الغرباء الذين احتجزوا بالمدينة معروفون وحالاتهم واضحة . .

« . . لم يتعرف أحد من المسئولين بالمحافظة . وقوة عموم المباحث على صور المذكور . ولم يدل أحد بما يثبت أنه رآه قبل أو خلال أو بعد الحصار » . .

● ● ●

شفيق افندى يحاول إستقصاء الحقيقة :

. . مساء يوم الرابع للمهمة . بعد أن أجرى الأستاذ الجواهرى إتصالا بأسرته للمرة الثانية طمأنهم وطلب من أصغر أولاده ألا يعاكس أمه كما طلب من زوجته أن تستعجل قمصانه التى أرسلها الى الكواء قبل سفره ، وبعد إتخاذ طايل افندى لعدة ترتيبات لشراء سمك الخليج الذى بدأ الصيادون فى النزول اليه ، إتخذ الأستاذ شفيق افندى طريقة لمقابلة بعض أبناء البلد من رجال المقاومة والمعروفين بين الناس باسم الفدائيين . أبدى أكبرهم سنا دهشته من هدف اللجنة . تساءل ما الذى ينتظر من سائق عربة توجه صباح يوم ٢٢ اكتوبر الى السويس ولم يعد . . حاول شفيق افندى شرح الظروف والملابسات ولمح الى القوانين الجامدة والعهدة والمخازن . خجل . بدأ يشرح أوصاف عبد الرحمن وطبيعة عمله . لم يكمل حديثه حتى قال أحد الفدائيين الأربعة « إنه يتحدث عن الغريب »

دق قلبه . رأى الست أم عبد الرحمن تكف عن حديثها فجأة . يهز الأستاذ الجواهرى رأسه . يقول بعض معارف عبد الرحمن بعد سنوات . ذهب ولم يعد . قال قناوى الفدائى ، إن الغريب جاء مع الحاج حسن السودانى متعهد توزيع الجرائد والمجلات ، الحاج يعرف عنه كل شىء لكن المؤسف أنه توكل على الله . . ذهب بطلا فى معركة قسم الأربعين . عينا شفيق افندى تحيطان بسرعة بالوجوه بكل ما فى القاعة بطاطين رمادية . صناديق ذخيرة فارغة وزمزميات مياه ، مكان إقامة مليئة بالحذر والترقب ، لوحة ملونة . . فارس يرتدى خوذة ، يشهر حربة فوق رأسه كتابة واضحة ، « أبو زيد الهلالى » آخر تنفذ منه حربة ، إختفت بقاياه مع اللوحة الممزقة . لابد أنها تنتمى الى أصحاب الشقة الأصليين . ربما لم يلحظها أحد حتى الآن برغم تواجدهم اليومى هنا .

يقول قناوى إن الغريب بدا حائرا عندما جاء الى قسم الشهداء مع الحاج حسن صاح كثيرون أن اليهود قادمون الى كوبرى الزراير . بدأ

الملازم حسن ضابط الصاعقة فى توزيع رشاشات وقنابل ، قال الغريب لقناوى « فين كوبرى الزراير » ؟

أشار قناوى الى إتجاه المكان ، سأل :

« تعرف تضرب نار » ؟

« ممكن أعرف » . .

ناوله قناوى رشاشا وثلاث قنابل خارقة للدروع . نظر الغريب الى السلاح ، هذه الدهشة الخفيفة والحذر تجاه السلاح لدى من يلمسه لأول مرة . قال قناوى ، هذه شرائط الذخيرة . حول المقبض إضغط الزناد . تتزايد حركة الناس كوبرى الزراير كوبرى الزراير . . قال الغريب .

(آجى معاكم ؟) .

رآه قناوى يمضى مع الرجال . طلب منه الملازم حسن تدعيم الكمائن عند الهويس لم ير قناوى الغريب لكنه يعرف أخباره من الذين حاربوا عند كوبرى الزراير . سأل شفيق افندى عن إمكانية اللقاء بأحدهم . نظر قناوى الى زملائه نزل ابراهيم الى مصر بعد فتح الطريق ، لكن حسن موجود ولم ينزل فى إجازة بعد ، ثم تساءل شفيق افندى عن حسن هذا ، قالوا إنه ضابط الصاعقة ، وإنه حارب عند كوبرى الزراير وصباح اليوم التالى اكد الملازم أول حسن عمار . أن الغريب لم يكن يعرف ملامح السويس لأنه سأل مرتين عن كوبرى الزراير أثناء توجه الكمائن اليه . لم يسأل خائفا أو مترددا . عندما تقدمت الدبابات رأى الغريب يتقدم . يقف بطوله فى مواجهة الدبابات مخالفا كل القواعد التى يتخذها المشاة عندما يتصدون للدبابة كان يريد الاقتراب الى أقصى حد ممكن من الدبابة . يبدو أنه صرخ بشىء ما . زعق . بدأت حركة ذراعيه عندما ألقى القنبلة الأولى ، إنفجر الجسم المعدنى ، تصاعد دخان كثيف له قام ، أزت رصاصات البنادق الخارقة فى إتجاه أفراد العدو الذين قفزوا من برج الدبابة . بدا الاضطرابات على حديد الدبابة الثانية دار المدفع الرئيسى الى الشمال إرتد مكانه ، بدأ الجسم الضخم مرتبكا قبل أن تمتد ذراع الغريب فى استقامة الى الخلف ، ألقى القنبلة

الثانية غطى الدخان كل شيء أصدر أوامره بتغيير أوضاع الكمين . بعد الأنتهاء من المعركة عادوا الى مكان الدبابتين المحطمتين لم يجدوا جثته قال إنهم ذهبوا بعد وقف إطلاق النار لأن الحركة إستحالت فى المدينة يومى ٢٤ ، ٢٥ اكتوبر بسبب الرصاص الطائش ، قال إنه سأل عنه ، من هو ، ما اسمه لقد سمع أثناء القتال أحد الرجال يزعق . . يا مجدى . . فهل هو اسمه ؟ خاصة وأن كل أفراد الكمين معروفون بالاسم ولا يوجد بينهم مجدى لكن الذين تبقوا من الرجال لا يعرفونه إلا باسم الغريب صاحب الحاج حسن السودانى .

● ● ●

ملحوظة أخرى :

قام الأستاذ الجواهرى فى اليوم الرابع بزيارة موظف كبير بهيئة الشئون الصحية أثر اكتشافه معرفة قديمة ربطت بينهما يوما وبالطبع ورد ذكر الأسباب التى اتت بالأستاذ الجواهرى ، قال الموظف إنه لا يعرف شخصا حارب فى المدينة بهذا الاسم ، لكنه سمع حكايات من بعض الأهالى عن سائق لورى قطع عليه الطريق وحارب عند كوبرى الزراير ويقال أنه واجه الدبابات واقفا ، حتى انه اعتلى إحداها ودمرها بقنبلة ودمر نفسه معها . وهنا قال الأستاذ الجواهرى إنه جاء خصيصا من أجل هذا الشاب ، تمهل صوته . بدا فيه فخر خاصة عندما بسط راحته على صدره قائلا :

« إنه من عندنا واسمه عبد الرحمن محمود » . .

فى الليل حكى الأستاذ للجواهرى لطايل افندى وشفيق افندى ما سمعه وهنا أبدى الشابان حماسا وقالا إن هذا دليل واضح لكنه هز رأسه حائرا وقال . . ربما ولكن من يثبت هذا ● ● ●

من تقرير طايل افندى :

« وأجمع البعض على ان الأهالى سجوا الغريب فى نفس ليلة استشهاده ودفنوه بسرعة بالقرب من الطريق المؤدى الى شركة شل

وأثناء الحصار قرر الحاج حافظ نقل الشهداء الى مقبرة واحدة داخل السويس . وعندما حفروا لنقل الغريب صاحوا الله أكبر ، الله أكبر ، مسحوا دمعا جرى ، وجدوا الجثمان على حاله مفتوح العينين ثيابه لم تبل ، قدماه حافيتان لأن حذاءه خلع قبل الدفن . بدت الدماء فوق قميصه طرية كأنه أصيب منذ لحظات . . »

في روايات أخرى أكد البعض أن الشخص الذى نقلوه من المدفن غير الغريب . والصحيح أن الثانى انفجرت دانة فوقه تماما ولم يعثر له على أثر ، وأكد هؤلاء أن المكان الذى استشهد فيه تفجرت منه عين ماء عذبة فيما بعد خلال الحصار . .

قالت امرأة عجوز تعيش بجوار كشك الصحف الخاص بالحاج السودانى إن الشاب الغريب اسمه خلف ، رأيته مرارا يجىء الى الحاج ، قالت إنهما ذهبا الى كوبرى الزراير وحاشا اليهود عن دخول البلد وماتا ، قالت إنها ذهبت الى الكوبرى ، قالوا لها إرجعى يا ولية لأن المكان على مرمى النظر من اليهود ، لم تهتم لأن ما يربطها بالحاج عشرة عمر ، أما الشاب فحنت عليه ، قالت إنها ذهبت لعلها تشم رائحة من أثر تركه فى مكان موته . قالت إن خلف تحدث اليها كثيرا سألها مرة ، لماذا لا تهاجر ، قالت إنها لا تطيق البعد عن السويس . أخبرته عن إبنها فى القاهرة ، متزوج وعنده أربعة أولاد ويعيش فى القلعة ، وسألها لماذا لم تذهب اليه ؟ قالت إنه لا أحد يطيق أحدا فى هذا الزمان . بدلا من أن تثقل عليه وعلى امرأته فضلت البقاء هنا تستلقط رزقها من هنا ومن هناك قالت إن خلف حن عليها وأعطاها خمسة وعشرين قرشا ، وكلما جاء أعطاها حاجة ، عندما تجولت فوق كوبرى الزراير أخبرها رجل يقيم بالقرب من المكان عن عصفورين لونهما أخضر ، ينزلان فجر كل يو ، صوتهما أحن من الحنين وأطرى من قلب الأم ، يحومان قليلا ويختفيان فجأة كما ظهرا فجأة ، لم يخلفا ميعادا . . »

وقمت بتوجيه سؤال اليها عن الاسم الكامل للشاب ، قالت إنها لم تسأله أبدا عن اسمه أو امرأته وعياله . لكنها سمته بينها وبين نفسها

« خلف » خلف ابنها الأول الذى أنجبته منذ أربعين سنة ومات بعد سبعة شهور من ولادته ، هكذا فجأة بدون مرض أو سبب . .

من حديث سوسو الحلوانى الى شفيق افندى :

سأل شفيق افندى بإلحاح ، هل رأيت الغريب عند الهاويس بعد معركة كوبرى الزراير ؟

قال إنه لا ينسى أبدا ، ولو أن الله مد فى أجل البمبوطى كفتة والباشجاويش سعد لأكدا ما يقوله الآن ، لأنه وصل الى الهاويس معهما ، قال إن الجو بدا مقلوباوكأن جزءا من طاقة جهنم فتح على الناس ، أما الهواء فثقل كدخان الجير ، مالفت نظره اليه ، إتخاذه أوضاعا تعرضه لأقصى الخطر ، حتى قال البعض أن الغريب القادم محجب ، مثل هذا لا ينسى أبدا . .

إن شفيق افندى يرغب فى توجيه المزيد من الأسئلة ، لكن الحلوانى سوسو يحملق الى الأرض ، نسى تماما وجود الافندى القادم من مصر ، سهم فجأة كنزول ليل مباغت ، لم يستطع شفيق افندى أن يخدش صمته ، ورصد دمعات تتسلل على مهل من عينى الحلوانى سوسو . .

● ● ●

ملحوظات أخيرة :

اجتمع الأستاذ الجواهرى فى مساء اليوم السادس بعضوى اللجنة ، قدم طايل افندى تقريرا بدا أثناء تلاوته منفعلا ، قال فيه أن باشجاويش شرطة من قسم الأربعين وامرأة عجوزا من الجناين لجأت الى المدينة عندما هاجمها اليهود وقتلوا أولادها واثنين من أحفادها ، وبائع قلل متجولا ، وعطارا من حى زرب ، وصياد سمك يمتلك قاربا ، أكدوا أنهم شاهدوا الغريب قبل نهاية الحصار بأيام . وأكد قارىء قرآن عجوز انتدبته وزارة الأوقاف من المنوفية الى مسجد الشهداء ليقرأ القرآن قبل الحرب بأسبوع واحد إنه التقى كثيرا بهذا الشاب ، لا يمكن أن يخطىء لأن الذين احتجزتهم الظروف تقاربوا من بعضهم ليعرف كل

منهم حكاية صاحبه ، أجمع الكثيرون أن الغريب بدا كثير الحركة لا يهدأ ، لا ينام فى مكان واحد ، بل نادرا ما رآه البعض نائما ، كل من رآه شاهده مستيقظا يؤدى عملا ، فى الليل يقف خلال نوبات الحراسة عند أطراف المدينة ذهب الى بور توفيق أكثر من مرة حفر الخنادق . نقل العديد من العوائق كالعربات المدمرة والحجارة الثقيلة ليسد بها الطريق . شوهد يحفر مع بعض الشبان آبارا للمياه قرب سيدى الغريب ، سمع يؤذن للصلاة مرة . كما أنشد بعض المواويل فى سهرة أقيمت خلال الحصار . تبرع بدمه مرات لأن المدينة عانت نقصا فى الدم . يقال أنه تسلل مرات الى قلب خطوط العدو ، استطلع الأخبار . . أثناء توغله رسم خرائط لمواقع العدو ومرابض مدرعاته وأنواع مدفعياته . وأرسلت هذه الخرائط الى مصر بطريقة خفية ، وأكد عدد من الأهالى أنه خرج فى قارب ليصيد السمك برغم علمه بوجود الغام فى الخليج . لكنه دائما يجىء الى المرسى الراكد . يسأل « فين المراكب » يحرك المياه بضربات المجداف ، وأقسمت أمرأة من حى الأربعين أن الغريب القادم من مصر جاءها عندما أتاها المخاض فى الليل وصرخت من الألم حتى لفظت الشهادة لبعد الناس عنها ورحيل زوجها وشقيقتها قبل الحصار وبقائها وحيدة . بيديه أنهى ولادتها العسيرة . تلقى الطفل عند خروجه ، وقال صاحب مقهى تهدم فى الحرب إن الغريب أصلح عربة لورى معطلة وقادها عبر شوارع البلد مرتين .

● ● ●

أصغى الأستاذ الجواهرى بهدوء . لم يفته ملاحظة الجدية المفاجئة التى نزلت على طايل افندى حتى صار يخرج من الفندق فى السابعة صباحا يستقصى ويلتقى ويجرى المقابلات ليعود فى المساء . حتى أنه جمع معلومات دقيقة عن ملامح الغريب وطريقة مشيته ، وسجلا بالأسماء التى أطلقت عليه من الأهالى . لم يبد الأستاذ الجواهرى إنفعالا . قال إنه أمر مشرف للمؤسسة أن تعلن إستشهاد أحد أبنائها فى السويس . لكنا لم نعثر على أثر ، لم نجد له قبرا ولم يجمع إثنان على

رواية واحدة . ثم ما هو موقف العهدة سيارة النقل والبضاعة ، وباعتباره موظفا قضى عمرا بأكمله فى خدمة الحكومة فما يهمه أولا الاطمئنان على أموال المؤسسة .

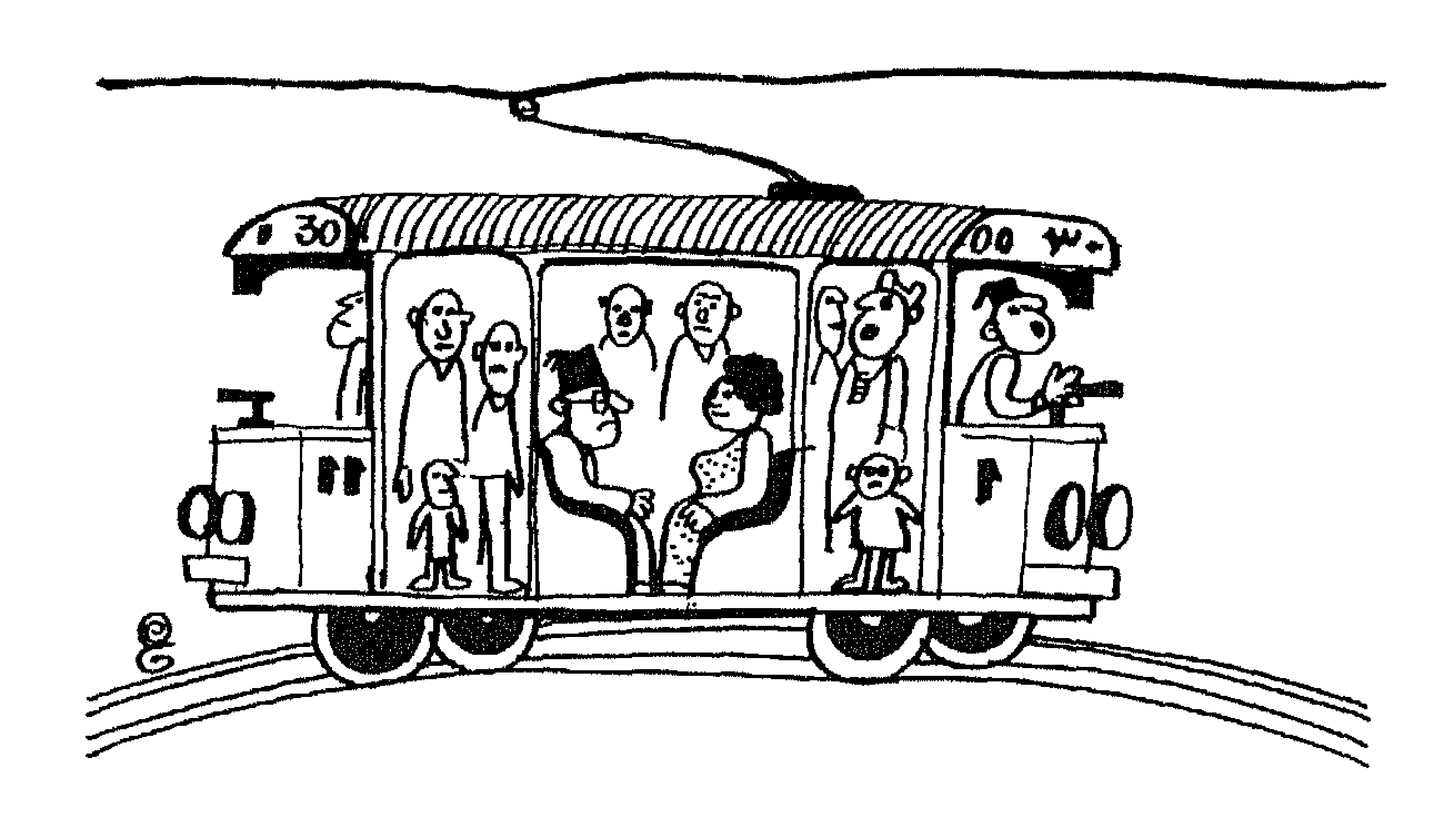
● ● ●

يصغى شفيق افندى صامتا . صباح اليوم راوده يقين أن الغريب يطوف بالطرف الآخر من المدينة . أسرع الخطى . لم يلحقه وبقى وحيدا فى هدوء شتوى يخيم فوق أنقاض البيوت . ورائحة البحر فى الخليج القريب حتما ستجىء لحظة يلتقى فيها بالغريب لا يدرى متى ، لكنه سيحكى له طويلا ، إنه على وشك اتخاذ قرار بينه وبين نفسه . أن يبقى وقتا إضافيا ولن يبالى بالأستاذ الجواهرى . طايل افندى يقول إنه طلب زيارة الاسطى عبد الرحمن . مضى اليه مع عدد من شبان المدينة قرأوا عليه الفاتحة . ماذا تبقى إذن لتقتنع المؤسسة بموته وتمنحه حقوقه . يهز الأستاذ الجواهرى رأسه . يكرر بهدوء إن هذا مشرف للمؤسسة ، لكن ما الذى يثبته . . أين الأدلة ؟ ؟

١٩٧٤

● ● ●

الـترام . . !



فى مقابلة اجرتها احدى المذيعات بالقناة الثانية ، قدمت بروح فكهة رجلا قال انه مؤسس جمعية اصدقاء الترام ، حدث ذلك خلال برنامج مسائى يقدم شخصيات يتم اللقاء بها بدون ترتيب مسبق ، تجاوز الرجل الستين ، قال انه عمل موظفا بوزارة

التموين حتى احيل الى المعاش بدون توقيع اى جزاء عليه طوال مدة خدمته ، يسكن الضواحى ويمتلك بيتا مستقلا من طابق واحد تحيطه حديقة يزرع فيها كل ما يحتاجه . ورغم سكنه البعيد وعدم اضطراره الى ركوب المواصلات فمنذ فترة لا يستطيع تحديدها بالضبط لم يكف عن التفكير فى الترام ، خلال نزوله الى المدينة اقترب كثيرا من مركبات الترام ، هاله ما رأى ، ما وصل اليه الحال من اهمال ، ولان الترام اقدم وسائل المواصلات فى القاهرة والاسكندرية ، ولانه دخل البلاد قبل سائر المواصلات الأخرى فيجب الا ندعه هكذا . سألته المذيعة عن طبيعة العمل الذى ينوى من خلاله اعادة اعتبار الترام ؟ قال إنه أنشأ بالفعل جمعية لاصدقاء الترام ، تتلخص اهدافها فى الدعوة الى ركوب التراموبات ، والعناية بها ، والارتقاء بمستوى السائقين والمحصلين والمفتشين والفنيين ، ثم وجه دعوة الى جميع المواطنين للاشتراك فى الجمعية ، انهت المذيعة اللقاء بمشاركته توجيه الدعوة ، ولابد ان المشاهدين فى هذه الليلة هزوا رؤوسهم لمدى الهيافة التى وصلت اليها برامج التليفزيون ، ربما حاولوا استعادة كلماته عندما اشارت افتتاحية الأهرام الى حديث العجوز صباح اليوم التالى ، جاء بها أن مختلف ما يجرى محليا وعالميا يجب الا يشغلنا عن أمور جوهرية فى حياتنا ، ان المتأمل فى وضع الترام يجد أنه قد وصل الى حد المهانة المؤلمة ، أى نظرة الى الترام تكشف هذا . طلاء جميع العربات لم يجدد منذ سنوات ، المقاعد الجلدية قطعتها امواس الصبية الذين لم يبث احد فى نفوسهم حب الترام ، اذ لم يضع التربويون مناهج تربط النشء بتاريخ الترام ، تبرز فوائده وأهميته ، ان المركبات متشققة متعبة خاصة القديم منها ، اما ما وصلت اليه « السنجات » فأمر يرثى له ، لا توجد سنجة واحدة سليمة تستمر معلقة الى اسلاك الكهرباء لمدة خمس دقائق ، يضطر الكمسارى الى النزول ، أو يتطوع احد العابرين باعادتها الى مكانها ، ان الترام هو المركبة الوحيدة التى يمكن ايقافها

برغم انف السائق وذلك بشد « السنجة » نلاحظ ايضا ان سائق الترام هو الوحيد فى البلاد الذى يقف على قدميه طوال نوبته . بعض الدول المتقدمة تكنيكيا اضافت مقعدا صغيرا للسائق ، وخطت دول اخرى الى ما هو أبعد فخصصت كبائن صغيرة تعزل السائقين عن زحام الركاب ، لكن تظل الغالبية المستخدمة فى بلادنا من النوع الأول ، ان الأعياء سمة مشتركة لسائقى الترام ، انحنت جذوعهم ، تقوست اقدامهم ، غلظت اطرافهم ، اضفى هذا على كل منهم ملامح خاصة توحى لمن يراهم لأول مرة بدون معرفة مسبقة بأن الماثل امامهم ، سائق ترام ، لا يفكر احد ما وصل اليه حال المرفق من تدهور ، من هنا يجب التقاط الدعوة الى تطويرها وتدعيمها . اختتمت افتتاحية الاهرام بدون حث القراء على خطوة محددة ، ولوحظ ان هذه الافتتاحية اذيعت عقب نشرة اخبار الظهيرة ، كما صدر تعميم علوى من التنظيم السياسى بمناقشتها فى جميع الاجتماعات التى عقدت خلال اليوم فى سائر الوحدات الانتاجية والأقسام الادارية والمناطق التابعة ، وحتى يظل التليفزيون محتفظا بسبقه الى الدعوة فقد خصص برنامج يومى يذاع بعد اخبار التاسعة والنصف مدته عشر دقائق ، يتضمن رسائل المشاهدين ، ولقاءات مع المعمرين الذين شاهدوا دخول الترام لمصر واحاديث مع بعض الصحفيين الذين زاروا بلادا بعيدة واطلعوا على النظم المختلفة للعناية بالترام ، كما تضمنت الحلقة الأولى رسالة من المواطن على الناقورى ، دعا فيها الى انشاء الهيئة القومية للنهوض بالترام ، وفى اليوم التالى قرأت المذيعة العديد من الأسماء التى يؤيد اصحابها الدعوة ، كما اذاعت تصريحات من وزارة الداخلية لم تبد فيها اعتراضها على تشكيل هيئة قومية للنهوض بالترام مادام نشاط الهيئة لم يتعرض لاسس المجتمع وقيمه وامنه واشترطت تسجيل العضوية فى أقسام الشرطة ، فى تلك الليلة يمكن القول ان الموضوع اثير على نطاق واسع ، بين افراد العائلات وبين رواد المقاهى ، كما تحدث بعض الأقارب والمعارف الى

بعضهم تليفونيا ، ناقشوا موضوعات عامة أو خاصة لكن الحديث عن الترام والاهتمام المفاجىء به تخلل معظم الاحاديث وعندما اطبق الملايين من أهل البلاد جفونهم استعدادا للنوم احتل الترام فى اذهان معظمهم صورة من تلك الصور التى تتوالى قبل النوم ، كثيرون تاملوا مركبات الترام صباح اليوم التالى ، لوحظ زحام غير عادى على محطات الترام ، هذا لا يعنى زيادة عدد الركاب زيادة غير عادية ، لكن المثير ان اعدادا كبيرة من المواطنين تاملوا المركبات التى تسعى فى شوارع مدينتهم منذ سنين طويلة وكانهم يكتشفونها لاول مرة ، بدت المركبات شائخة ، تهتز فى اندفاعها فوق القضبان اهتزازات خفيفة الى اليمين ، الى الشمال ، كأنها ستفلت من أسر القضبان الحديدية . الطلاء بدا شاحبا فى كثير من المواضع ، اما المركبات الحديثة التى ظهرت منذ عامين فقط فى شوارع المدينة فلاحظ الأهالى ان ثمة تغيرات طرات عليها الى جانب الأهمال ، يبدو أن الفنيين لم يحترموا الأجهزة الحديثة بها فابدلوا بعضها بأخرى اكثر تخلفا ، وربما لم يتيسر ابدالها بمثيلاتها نظرا لنقص العملة الصعبة المخصصة لاستيراد قطع الغيار ، كثير من المصابيح الزجاجية الامامية تحطمت ، مقاعد البلاستك تكسرت حوافها .

فى صحيفة الاخبار نشر تحقيق عن الجلوس داخل الترام ، وقال التحقيق ان راكب الترام يواجه الجالس امامه ، ويتلاحم بالمجاور له ، وهذا ما لا يجرى فى الأتوبيسات ، سئل بعض علماء الاجتماع الذين ابرزوا الجوانب الايجابية والآثار المترتبة ، وتعميق المشاعر الانسانية والروح الاجتماعية فى عصر توشك فيه الآلة على افساد كل ما هو انسانى وجميل ، وقال احد اساتذة الفلسفة بجامعة عين شمس ، ان الجلوس فى الترام ينفى عنصر الاغتراب لدى الانسان ، وركز علماء النفس على الاثار السيكولوجية المترتبة على تقارب الناس وشعورهم بايقاع السير البطىء وعلاقة ذلك بالحد من نسبة القلق والشعور

بالاكتئاب ، وتحدث احد اطباء القلب عن علاقة ايقاع السير البطيء للترام ، وضمان عدم توقفه المفاجيء بسلامة القلب ، وأكد ان الألانتقال بالترام افضل وسيلة لمرضى القلب ، ونشر صورتين علميتين ، الأولى لقلب مريض استخدم وسائل المواصلات كلها عدا الترام ، والثانية لقلب رجل لم يركب الا الترام .

وفى جريدة الجمهورية نشر تصريح لمدير إحدى شركات الأعلان الكبرى التى بدأت تعمل اخيرا برأس مال مصرى ـ غربى مشترك ، قال إن الترام يعد من أفضل أماكن الاعلان اذ توجد به مساحات عريضة على جانبيه ، كما يمكن تعليق لافتات بكافة الاحجام فوقه ، ويمكن ابراز الشيء المعلن عنه بوضوح . والمادة المصنوع منها جسم الترام تتقبل اى لون وتحتفظ بمقوماته الاصلية ، بالاضافة الى نقطة هامة للغاية ، انها سير الترام البطيء ، يمكن للماشى على قدميه أو الجالس فى شرفة أو المطل من نافذة أو مدخن الزجيلة امام أى مقهى من قراءة الاعلان ، فى نفس الجريدة اجرت إحدى الصحفيات مقابلة مع تاجر لعب اطفال قال إن أجمل النماذج التى يبيعها للاولاد من مختلف الاعمار هو الترام ، وقال ان رجال الجيل الحالى يتذكرون تلك اللعب الصغيرة اثناء طفولتهم والتى تمثل مركبات الترام المفتوحة والقديمة ، خلال السنوات الأخيرة ظهرت مركبات متطورة من الترام وعرض نماذج مصغرة لها فى متجره ، وقال ان الترام كلعبة يفتح مدارك الطفل ويثير فى خياله العديد من الصور ويفتح امامه آفاقا عديدة خاصة فيما يتعلق بالمجالات الكهربائية .

كما صرح قائد شرطة آداب البلاد بأن حوادث النشل تقل كثيرا بالترام وذلك لاتساع اماكن الوقوف وعدم اتاحة الفرصة لاهتزازات كثيرة تتيح الاحتكاك كما أن خدش حياء الاناث يقل كثيرا ، وقال ان عربات الترام حافظت على قيم المجتمع ومثله عندما خصصت عربة للحريم ، لا يمكن لرجل ان يركب بها أو يقف امامها ، وقال إن بعض

العجائز يجدن فيها متسعا ومكانا مريحا ، يقعدون فوق ارضية المركبات ويسندون ما يحملونه امامهم .

وفى بداية اجتماع كبير قال وكيل وزارة الاقتصاد المختص ان اقتصاديات تشغيل الترام اقل من أى وسيلة اخرى ، والتمسك بها ، وتعميمها سيؤدى الى وفر فى الميزانية يساعد البلاد على التصدى لمسئوليات أخرى جسيمة يتطلبها الموقف الذى يجتازه اقتصادنا ، فى نفس اليوم تحدث احد اساتذة التاريخ المصرى المعاصر الى طلبته ، وقال ان الدور الوطنى للترام لا يقتصر على مدى الوفر الذى يمكن ان يحققه فى ميزانية البلاد ، ان هذه نظرة قاصرة وتعزل الاقتصاد عن بقية الجوانب العلمية الأخرى ، انه بصدد وضع مؤلف يتناول الدور الوطنى للترام منذ ظهوره ، ثم تحدث عن نضال عمال ومستخدمى الترام الذين كافحوا ضد اصحاب شركات الترام الأجانب فى بداية القرن ، ثم اسهب فى الحديث عن الاضراب العمالى الكبير الذى جرى فى عام ١٩٠٨ ، وذهاب عائلات المصريين الى الورش والمركبات ومشاركتهم الفعالة ثم تكرار هذه الاضرابات « التراموية » التى ساهمت فى توعية العمال بحقوقهم من ناحية وبلورة الشعور القومى من ناحية اخرى مما أوجد رافدا هاما ادى الى ثورة ١٩١٩ ، ولا يقتصر دور الترام على ذلك فقط ، بل تصدت مركباته للانجليز عندما قلبها المتظاهرون واستخدموها كمتاريس ، ثم قدم الى الطلبة صورا نادرة تؤكد الدور الوطنى المباشر للترام .

فى اليوم التالى عقد اجتماع موسع بالمقر العام للمنظمات الشبابية ، وأعلن المقرر العام اتخاذ قرار يقضى بمشاركة جماهير الشباب الطلابية والعمالية وشباب الموظفين فى حملة واسعة من أجل اعادة طلاء مركبات الترام وتنظيف القضبان وستقدم دروع وكئوس لاقدم العاملين بالمرفق .

علق المواطنون على ذلك الاهتمام الواسع بالترام اثناء وقوفهم فى

مختلف الطوابير ، أمام مكاتب الجوازات ، الجمعيات التعاونية ، نوافذ الحجز ، بنوك العملات المحلية والأجنبية ، مكاتب السجلات المدنية ، كما جرت مناقشات هامة فى المناطق الحرة بالبلاد ، والمقاهى الافرنجية التى تقدم المشروبات الساخنة والجلاس وقطع الحلوى الصغيرة والمشهيات ، وفى المقاهى الشعبية ، ومقار النقابات المهنية ، العمالية ، وقال البعض انها محاولة لصرف انظار الناس عن المشاكل الحقيقية ، اعترض آخرون وقالوا ان الموضوع يتم بشكل تلقائى ويشارك فيه فئات عديدة ، ولا يمكن ان يصل الى هذا الشكل لو ان الأمر مدبر ومخطط له من قبل احدى الهيئات ، لكن بعض القوى المعنية التى تقوم دائما بالمعارضة من أجل المعارضة لم تخف امتعاضها ازاء تلك الأهمية المتزايدة والمواجهة نحو الترام ، حاولت تلك القوى ترويج اشاعات معينة ونكت تدور حول الترام ، وهددت المباحث العامة انه سيتم الضرب بشدة على ايدى كل من يحاول الخروج بمعارضته عن حيز القول والاحتجاج ، ولم يفهم ما المقصود بذلك كما أن موقف اجهزة الأمن المختلفة من الترام ، وقد تعود الناس ان هذه الاجهزة لها موقف من كل الامور الصغيرة والكبيرة ، موقف خفى غير معلن لكنه يعرف لدى الناس بالاحساس بوسائل ما ، ثمة حكاية تروى ربما اوضحت بعض ما خفى ، اثناء قيام رجال المباحث بالتحقيق مع خلية سرية من الشبات الصغار ، صفع الضابط المحقق احد الشبان وخاطبه قائلا : لماذا تتوجهون الى العمل السرى وامامكم العديد من النشاطات التى يمكن لكم الاشتراك فيها ، لماذا لا تعبرون عن رأيكم فيما يجرى حولكم . . حول الترام ؟

يمكن القول انه بعد ايام عدة نما شعور بين جميع الفئات بالتعاطف مع الترام ، حتى أصحاب السيارات الذين اعتمدوا على المجارى الخاصة بالترام فى وسط الطريق عندما يشتد الزحام ، وبلغ شعور التعاطف قمته فى شارع الأزهر الرئيسى الذى ازيل منه الترام منذ عشر

سنوات ، اقام أحد تجار المانيفاتورة سرادقا ضخما يتسع لالف شخص ودعا اليه ثلاثة من القراء الكبار ، وبعد الانتهاء من التلاوة الكريمة خطب التاجر في المحتشدين سمع صوته في أقصى الشارع بواسطة مكبرات الصوت المصرح له باستخدامها ، أعلن أنه يحيي الليلة ذكرى ذلك اليوم الذى ازيلت فيه مركبات الترام من شارع الأزهر ، قال ان ذلك من السلبيات التى جرت ، اثر انتهاء كلمته قام البعض بتحرير صيغة برقية على الجالسين مرسلة الى كافة المسئولين لاعادة الترام الى شارع الأزهر كما تقرر احياء ذكرى انتزاع الخط سنويا حتى في حالة اعادة الخط القديم .

ورشحت جريدة الأخبار رجلا تجاوز السبعين اطلقت عليه لقب « راكب الترام الأول » ادلى بحديث طويل روى فيه ذكرياته عن الترام التى تمتد الى نشأته الأولى لم يستخدم غير الترام وسيلة لانتقاله ، قال ان عددا كبيرا من الكمسارية والسائقين القدامى يعرفونه ، كثيرا ما تبادل معهم الحديث خلال الزمن الرائق ، الجميل المولى ، كما تبادل معهم السجائر ، قال إنه يعتبر ركوبه الترام فقط احد الأسباب التى ادت الى اطالة عمره .

وقد حكى بعضا من ذكرياته ، عندما افتتح اول خط للترام اثناء مروره امام مقهى شعبى ، قام الجالسون فزعا ظنا منهم بأن المركبة وحش غامض ، ولفترة تلت هذه الحادثة استمر رواد المقهى او أى مقهى يمر بها الترام يقومون حاملين مقاعدهم ويتوارون داخل المقاهى .

في اليوم التالى دعى « راكب الترام الأول » الى القاء محاضرة بمدرسة البنات الثانوية بشبرا ، أجاب على اسئلة الطالبات ، اقترح احد القراء تكريمه في حفل قومى يدعى اليه كبار المسئولين . ويهدى اليه درعا جديدا اسمه « درع الترام » غير ان الدولة اخذت المبادرة ، أعلن عن انشاء وسام جديد ، وسام الترام ، حددت انواعه بثلاث طبقات :

* وسام الترام من الطبقة الأولى .
* وسام الترام من الطبقة الثانية .
* وسام الترام من الطبقة الثالثة .

ويمثل شكل الوسام عربة ترام قديمة من النوع الذى استعمل لاول مرة فى العاصمة ، تشع منها اضواء جسدت بالفضة بينما جسم الترام نفسه من الذهب اما المصابيح الأمامية فمن الماس النقى ، ولا تختلف الطبقة الأولى عن الطبقتين الأخريين الا فى نوعية المعدن المصنوع منه جسم الترام ، تصاعد الاهتمام بالترام الى حد كبير فيما تلا ذلك من أيام ، عقد العديد من الندوات لاحياء دور الترام التاريخى ، أجرى عدد من الساسة القدامى اتصالات مكثفة لانشاء « الهيئة القومية العليا للترام » والتى دعت اليها ذلك الراكب المجهول والذى اختفى تماما بعد أن أدلى بحديثه التليفزيونى ، اعترض بعض الشباب على انفراد الساسة بالعمل واصدروا بيانا دعوا فيه الى ضرورة الاصغاء الى رأى المستقبل ، كما جرت مناقشات عديدة منظمة وتلقائية ، وتمت الأخيرة فى وسائل المواصلات ، خاصة القطارات التى تستغرق وقتا ، ويعى المواطنون بعض الوجوه التى تقلصت ملامحها اثناء الحديث عن الترام ، وقبضات الأيدى المضمومة الملوحة فى الهواء ، والأصابع المتوترة المشدودة اذ تشير مهددة والاسنان التى تعض على الشفاه ، وصرخات التعجب التى تتخلل الاحاديث ، كتبت مقالات عديدة يتساءل اصحابها عن المقصود بالترام ؟ الا تدخل مركبات المترو الحديثة فى نوعية الترام ؟ بل هذه المركبات الترامویة الحديثة المستوردة من البلاد الشرقية ، الا تمت بصلة الى جنس الترام ؟ والتروللى باس . . الى اى جنس ينتمى ؟ . . .

كلمات كثيرة حول هذه القضية ، تليت من الاذاعة ، والتليفزيون ، وقيلت حول موائد مستديرة وداخل حجرات مغلقة وفى اجتماعات عامة ، وفى سرادقات منصوبة من القماش ، ودون المستمعون اليها آلاف الملاحظات ، بمختلف انواع الاقلام ، وشرب قائلوها اكواب ماء كثيرة أثناء حديثهم وجربت الميكروفونات المستعملة مئات المرات بنقر الأصابع عليها أو نفخ الافواه فيها ، كما قيلت عبارات مثل « سيداتى آنساتى سادتى » . . . « مساء الخير ايها المستمعون الكرام » . . .

الاف المرات ، كما استهلكت كميات لا حصر لها من الورق ، والدفاتر ، والدبابيس التى ثبت بها البعض ملاحظاتهم المرفقة بالنصوص الاصلية ، وازداد الأمر عندما أدلى وزير التربية والتعليم العالى والمتوسط بيانا أعلن فيه دخول الترام كمادة اساسية يشترط النجاح فيها للانتقال من مرحلة الى اخرى ، حدد محتوى هذه المادة فى رسالة اذاعتها وسائل الاعلام الى ابنائه الطلاب ، وتضمنت دراسة انواع الترام واشهر المصانع المتخصصة فيه ، ودراسة اجزائه ، وشبكات الكهرباء التى تقوم بتغذيته وخلال امتحانات النقل بالمنطقة الوسطى ورد سؤال فى التعبير نصه كما يلى :

« اكتب خمسة عشر سطرا حول الترام موضحا به عدد العجلات بالمركبة الواحدة ومقدار المسافة الفاصلة بين العجلة والأخرى »

وأعلنت المكاتب الأساسية بالبلاد عن عزمها إرسال وفود متتالية من ممثلى الهيئات البرلمانية والشعبية الى مدينة شارلروا البلجيكية باعتبارها اكبر مدن العالم لصناعة الترامويات ، وفى نفس الوقت انهالت برقيات عديدة من سكان مختلف المدن مطالبين بادخال الترام ، ودعا احد الكتاب فى مجلة العلوم الثقافية الى تمجيد فكرة الترام ، وقررت مصلحة صك النقود اصدار عملة تذكارية خاصة عليها صورة الترام ، أعلن رؤساء التحرير الثلاثة معارضته وطالبوا باصدار عملة دائمة للترام ، وعد مدير مصلحة الصك بدراسة الفكرة وتأثيرها على النقد المتداول وحجمه ، كما ظهر أعلان من هيئة الاسطوانات بحذر المقلدين من تزييف اسطوانات الترام والكاسيت التى انتشرت فى البلاد وتتضمن هذه التسجيلات اصواتا مختلفة لاجراس الترام من مختلف الأنواع ، وأصوات احتكاك العجلات بالقضبان ، وصوت الفرامل لحظة ان تقبض على العجلات والصرير عند المنحنيات ، وتضمن الاعلان عزم الهيئة على طبع اسطوانات صوت سريان الكهرباء فى الاسلاك ، وهذا مالم يتم من قبل ، وتقدم أحد المشتغلين بالسياسة للحصول على

ترخيص اصدار صحيفة اسمها « الترام » لقد نظمت ندوات وأعلن أنه سيجرى مجمع اللغة العربية عن اضافة لفظ « الترام » الى القاموس الفصيح المعتمد ، وقامت بعض المصانع بصك ميداليات صغيرة تعلق الى الصدر أو تتدلى من الأحزمة تمثل الترام فى أوضاعه المختلفة ، وزعت هذه الميداليات على أعضاء الوفود الأجنبية التى بدأت فى الوصول وتدلت من صدورهم ، كما أعلن عالم مصرولوجى اكتشاف رسم على جدران معبد فرعونى قديم يشبه الترام وتساءل ، هل عرف الفراعنة الترام ؟ وقال انه سيعقد اجتماعا يجيب فيه على ذلك ؟ غير ان المعارضين بدأوا التحرك ، وفى الفترة الأخيرة وقع منشور سرى من إحدى الجماعات التى تعمل تحت الأرض فى أيدى رجال المباحث والتحرى ، دعا المنشور الى اليقظة والحذر ، وزع المنشور فى بعض مركبات الترام ، وعقد مدير هيئة قمع المعارضة مؤتمرا اذاع فيه نص المنشور ، واتهم بعض الدول الأجنبية واعترف بوجود معارضة للأهداف القومية المؤيدة للترام والتى عبرت عنها الجماهير تعبيرا أذهل العدو قبل الصديق . وقال ، ان تلك الأهداف تلقى تاييدا واسعا من شعبنا لدرجة ان كثيرا من الآباء انجبوا مواليد فى الفترة الأخير ، واطلقوا على اسم واحد « ترام » . .

١٩٧٦

● ● ●

لا أحـــد
فى وداع المســافر

١ - الحادثــة :

فى اليوم السابع لبدء العمل فى شد الونش الضخم حمولة مائة طن ، فى الرابعة وخمس دقائق ، وأثناء محاولة تحريك مكعب خرسانى يستخدم فى حفظ اتزان القاعدة ، ارتجفت ظلال ، وتحددت زوايا ، وخلقت أوضاع ، علت صرخات وحملقت العيون ، نصف جسد عمر راوى بدءا من الوجه الغائم والعينين الملتويتين ، فالصدر ، ثم الخصر ، كان نصف جسده الأعلى قد انكمش فجاة ، أزرق لونه ، وتباعدت اليدان عن الجسد الى أقصى مدى ، بدا المكعب الخرسانى أكبر من حجمه الطبيعى ، انحنى مدير الموقع الشاب ، فوجىء بالعينين المتسعتين ونظراتهما المستسلمة ، كانتا مسكونتين بمعنى غامض يبدو أحيانا لدى المسافرين الذين لم يودعهم أحد ، بعد الفزع الأول شعر مدير الموقع بضيق ، حادث غير أوانه ، كيف سيكتمل نصب الونش ؟ عاد ينظر الى الوجه الذى تضاءلت ملامحه ، هل رأى رفة رمش ؟ حركة ما ؟ الا تزال به بقية من نبض ؟ ، قام أحد العمال زاعقا ، السر الألهى لم يطلع . .

• المجلس الأول فى لحظات الوعى النادرة . .

. . مساجد صغيرة ، رفع اليدين بالدعاء ، حضور فرح الولد ، ياأولياء الله الصالحين ادعوا لى بالعيش حتى أرى الصحبة والزفة والضجة ، يد عبد الرسول تحت منديل أبيض ، منديل أبيض كبير . . فجر أيام الاجازات ، وقود الفرن ، يظن نفسه فى احدى الخيام ، كشك خشبى ، فرحة وجوده فى البيت ، فطير مقلى . .

. . ما اسم هذه المنطقة ؟ موقع العمل ، ما اسمه ؟ . . كان بودى أشوف عبد الرسول .

باقى شهر على ميعاد اجازته ، . . أنا حسبت الأيام ، سيصل بعد سفرك بيومين . .

. . كان نفسى أشوف عبد الرسول ، يأكل قلبى وأنا بعيد .

سبورة ، تبرع لمجلس الآباء ، تصفيق ، رجل بجلباب يقول كل سنة وانت طيب . .

لم يكتمل الونش . .

٢ ـ الموقـــع

أقرب طريق مرصوف يبعد سبعين كيلو مترا ، للوصول الى الموقع يجب الدخول فى مدق صحراوى قديم مهدته أقدام غابرة ، ضيق ، متعرج ، يعلو وينخفض ، على جانبيه حفر وكثبان ، وهياكل عظمية لبشر ضلوا الطريق ، وجمال نفد مخزونها فبركت الى الأبد ، بعد ثلاثين كيلو مترا تتجعد الأرض ، توشك عجلات القيادة أن تفلت من أيدى أمهر السائقين ، ثم يستوى ، لينتهى فى هذا المكان الفسيح المحدوف خارج العمار ، فوق مرتفع مجموعة أكشاك منتصبة فوق قوائم صغيرة من الخشب ، على أبعاد مختلفة تتناثر صناديق كبيرة ، أجزاء الونش موزعة عليها ، لا يتم نقلها إلا بمعرفة « راوى » ، انه الوحيد فى الشركة ، فى البلد ، الذى يمكنه فك وتركيب وتشغيل الونش ،



المهندسون الشبان يرقبونه خفية ويبدون لا مبالاة ، سائقو النقل ، والملاحظون ، والعمال يصغون اليه ، تردد صوته هنا منذ سبعة أيام منذ بدء تركيب الونش . وقبل ذلك تردد خافتا عندما جاء يستطلع المكان وانحنى فوق الأرض ، تحسس الصلابة ، واختبر الليونة ، رفع عينيه الى السماء وتشمم الجو كأنه يقيس سمك الفراغ ، ومقدار الرطوبة ، واتجاه الرياح ، كل ما سيحف أو يمر أو يلمس الونش . راوى لم يبد ضيقا من وحشة المكان ، وقال بدو عابرون إنه ما من انسان اقام هنا ، وما من احد دخل الى هذا الهو وعاد منه سالما ، والجمل اذا شرد فلا يحاول احدهم تتبعه ، ولا يقتفى قاص الأثر خطاه . عودته أو العثور عليه ميئوس منها ، الأغوار سحيقة ، والحشرات من كل جنس ولون ، العقارب فى حجم راحة اليد ، والقطط اشرس من النمور ، وذباب لا يطاق لسعه ، فى الليالى الأولى لم يغمض جفن لانسان ، عدا راوى الذى استسلم لنزول الليل ، وتمدد فوق صندوق خشبى ، احتوتهم سماء لم يشهدوا مثيلا لها ، غزيرة النجوم ، مسكونة بالأطياف . ظنوا كل صوت وحشا يسعى ، وكل همسة حشرة تنوى الأذى ، أو قدوا نارا ، وأصغوا ، وفى الصباح قالوا له ، المكان صعب ياعم راوى . قال إنه رأى ما هو أصعب ، لكن نفس البنى آدم سيكرش كل شر ، ويبعد أى أذى . .

المجلس الثانى

★ . . نصب الطابق الثانى . القاعدة الصفراء . كأن الرؤية تمر بلهب اكسجين . تنحنى القاعدة ، لو احتمل . . حركة الذراع على مهل ، دقيقة ، تفرغ أحشاء السفن ، رائحة البخر ، رغيف خبز ساخن وسمك . مرات الجلوس الى مائدة قليلة ، الذراع ، معجزة فى الفراغ ، تزيح الفضاء . .

★ . . لا تدرى نفس . .

★ . . فى هذه اللحظة تماما ، أين عبد الرسول ، الى يمينه ؟ الى شماله .

★ . يد تمسك بسيجارة . شكرا . الا تدخن ؟ ، أى سيجارة مهداة لم يتردد أمامها . لكن . . تخرج عبد الرسول من الجامعة ، عهد نفسى الا تعلو اليد يد انسان آخر .

★ . مكتب بريد ، أول الشهر ، كم يستغرق الخطاب من بورسعيد الى قبلى ؟ من سيوة الى قبلى ؟ من الطور الى قبلى ؟ من سفاجة الى قبلى ؟ من الدلنجات . . كم . . زمن الحوالة ! !

★ . . هان عليه ، الونش لم يكتمل ، لا يقدر على دفع المكسب الا هو ، خلا بى .

★ . زعيق ، هيلا ، هيلاه ثبتوا أقدامهم فى الأرض ، نفروا العروق ، بذلوا العرق ، جعير ، تضعف ، تهن ، حد يعرف فيه كل انسان . . لا فائدة . .

★ . منديل أبيض . . حواف بيضاء . . القلب . . السماء البعيدة ونجم بعيد متمهلا كضى الجبين . .

٣ - بعض من ماض مندثر . .

فى أواخر الأربعينات جاء خواجة انجليزى مع الونش الذى لا مثيل له فى البلاد ، تولى فكه وتركيبه وآخر كل شهر يقبض جنيهات انجليزية ، عمل راوى معه ، راوى قليل الكلام ، يتحمل المشقة والأسية . ما لم يعلمه الخواجة انه يلقط بسرعة ، وعندما حدث ما لابد منه وسافر بدون رجعة ، حار المسئولون ، بدا الونش كومة حديد ، لم يدر احدى جزء يلائم الآخر ؟ تفاصيل الصيانة والتشغيل ، من الضرورى مجىء خواجة آخر ، لكن راوى أكله قبله ، انه يعرف الونش كراحة يده ، يرصد الخلل من صوت الأزيز ، طلب الفرصة ، ومنذ هذه الأيام لم يفارق الونش ، عمل عند أطراف القناة ، فى دمياط ، فى الواحات ، قضى ستة شهور فى البحر الأحمر حيث الخير عند الأقدام ، السمك يسبح قريبا من الشاطىء آمنا لانقطاع رجل بنى آدم ، فقط يمد

اليد ويخرج بما يشاء من الدنيس والمرجان . ثم تفوح رائحة الشواء خطا فوق الشعاب المرجانية ، عد مائة خطوة ، ثم عشرين الى اليسار ، ثم عشراً الى اليمين ، ورمى الشباك فخرجت بكل طيب . في الليل ينظر الى النجوم محاولا رؤية النجم الذى تحدث عنه المعمرون من اهالى الناحية ، يمر كل سبعين سنة ، شاهق الضوء . ظهوره ينبىء بامور جليلة ، سافر في الصحراء واصغى الى أصوات الخلاء الغريبة ، راى مالم تدونه الخرائط ، وكباشا فى حجم الثيران ، ومقابر بها تصاوير ورمم كأنها دفنت بالأمس ، تناقلت الشركة أخبار الونش ، اذا غاب رئيسها فترة فأول سؤال يوجهه الى مستقبليه . . اين الونش ؟ أو . . أين راوى ؟ وعندما يقال له إنه في مكان بعينه يبدى السرور ، لأن هذا يعنى انجاز عملية ضخمة ، لم يخالط راوى قلب المدن أو القرى انما بقي عند أطرافها ، اعتبر انفاس السيجارة محرمة عليه الا اذا جاءته هبة ، امرأته وابنه أولى بكل مليم ، لم يجلس بمقهى الا مدعوا ، في طعام الشركة الكفاية ، وفى قرص الاسبرين شفاء للأوجاع التى تلم به من حين الى حين ، يؤرخ عمر عبد الرسول وأطوار حياته بمواقع العمل التى رحل اليها ، عندما نزل أجازة ثلاثة أيام من بور سعيد كان عبد الرسول حتة لحمة حمراء ، لا يتقلب ، لا يتحرك من رقدته ، يبكى إذا جاع ، أو آلمه البلل ، وفى الأجازة التالية طلبت منه ان يصلى على النبى قبل ان يسمع حرفا مما ستقوله لأن المال لا يحسده إلا أصحابه ، لقد استطاع عبد الرسول ان ينقلب على جانبه الأيمن ، ثم شب برأسه ، ان تركه بمفرده غير مأمون ، لابد ان تظل عينها عليه باستمرار ، عندما نزل من أسيوط في أجازة جاء عبد الرسول بكراسة ، فتح صفحاتها ، أشار الى النجمة الحمراء التى رسمها المدرس علامة على ذكائه ، ضمه الى صدره ، وتذكره عندما كان يخشى الاقتراب منه فتضربه أمه على اطراف أصابعه ، أو تضمه الى صدرها ، وتقول له ، هذا أبوك ، جاب لك حاجات حلوة ، وهدوم كانت في غيبته تقول له إن أباه هو الذى أرسل هذا الطعام ، وتلك الفاكهة فى الأجازة التى فارق أسوان خلالها ، كان

عبد الرسول فى رحلة مع فريق الكشافة ، وعندما التحق بالجامعة ورحل الى مصر بعد أن اقسم لأمه على المصحف ان يصون نفسه من شرور مصر ، وبنات مصر ، انقضت سنة كاملة لم يره فيها ، حتى أنه تخرج من الجامعة ورحل الى أوروبا لمدة شهرين ولم يلتق به حتى مجيئه الى هذه المنطقة النائية ، بعد لحظات من تمدده فوق الكنبة فى آخر مرة قالت إن الولد ابن حلال ، ويقوم بالواجب لأنه تربى من عرق حلال ، امسكت بحوالة بريدية قيمتها عشرة جنيهات ، أرسلها عبد الرسول من مصر ، همس . . الحمد الله الحمد لله ، على امتداد سبعة وعشرين عاما لم يخلف ميعاده يوما ،كان يقبض مرتبه قبل الحكومة بأسبوع ، هذا من فضائل الشركة ، يقطع أى مسافة ليصل الى مكتب البريد ، ويحول المبلغ كاملا فيما عدا جنيها ونصفا يستبقيه لنفسه ، أول ما يهمه معرفته عند وصوله الى اى موقع مكان اقرب مكتب بريد ، دارت الأيام وابنه يرسل الى البيت ، والله ما فى داعى ، قالت إنها ستشترى مفرشا جديدا للكنبة وكليما للحجرة ، ربما جاء مع بعض أصحابه فيجد ما يستره ، نظر اليها وتذكر حديثها أثناء خلواتهما الليلية ، لم يرها فى اجازاته إلا راضية ، لا تثقل عليه بهم ، رعت البيت وعبد الرسول ، صانته من أذى الدنيا ، حكى لها عما رآه فى ارض الله الواسعة ، الرمال التى لم تطؤها قدم ، والأرض الخراب التى يدب اليها العمار مع مجىء الونش ، والترع ، والموانىء التى ترسو فيها سفن كالبلاد حجما ، وكثافة النخيل كلما أوغل جنوبا ، وصفير القطارات المسموع فى عمق الصحارى ، وما يثيره من رغبة لرؤية الأهل والأحباب ، وتدعو الله أن يصونه ، وأن يقيه شر طريقه ، وتذكره بقسمه أمام عبد الرسول ألا يركب عربات النقل ليوفر أجور القطارات ، تروح الفلوس فى ستين داهية ، لكن سلامته أهم . تدعو له أن يجنبه أولاد الحرام ، وما تحمله النفوس ، وتبطنه الضمائر ، وان يجد فى كل خطوة سلامة . .

• المجلس الثالث . .

★ . ألم ثاقب بفرى الصدر ، الانحدار فى فراغ عتيم ، يروح كل شىء ، صفاء نادر ، ذاكرة من البللور ، يمد أحد المهندسين يده بسيجارة ، أى وجه ، ما اسمه ؟ ترتفع اليد شاكرة . ألا تدخن ياعم راوى ؟ . كان يقبل أى سيجارة تهدى اليه لكن بعد تخرج الولد . . والله لن أمد يدى لأى انسان . .

★ . حوالة ، كم سيستغرق الخطاب وتحويل النقود من بور سعيد الى قبلى ، كم من سفاجة الى قبلى ؟ لم يكتمل الونش ، خلابه ، والوحيد القادر على رفع الحجر الذى الغى النصف الأسفل ، تنأى السماء ، وكأن عبد الرسول لم يتم عاما ، ملامح الوجه التى حاول كثيرا تذكرها ، واضحة جلية ، لفافة حلوى ، الولد يتوارى خلف أمه ، أطل برأسه ، غزاه الم ، لكن أمه قالت . . الولد صغير وانت لا تقعد معاه . . فى الليل يمسك عبد الرسول المصحف ، يفتحه على سورة يس ، أحلف الا تركب عربات النقل على الطرق الزراعية ، حوادثها كثيرة ياببابا ، وجهه جاد ، أقسم ، غمرته حنية ، رق قلبه ، وغمره تأثر ، فى الدنيا من يخاف عليه ، فى الدنيا من يعول همه . نفسى أشوف عبد الرسول . .

سافر

أين أمه الآن ؟ عصارى الانقباض ، وجيف القلب . دخول الغريب . . راوى جرى له . . كبدى عليه . . يزعق مهندس الموقع . . يعنى لا فائدة ؟ رجال يقفون على محطات السفر ، يزحمون الأرصفة ، حقائب فوق أرفف ، الكمسارى ظهر ، جنود متعبون ، إعتلوا سطح القطار ، الوداع فى المطار ، لو ودعه . . وجوه تحملق ، لم يودعها أحد ، لو . . لم تسمح الدنيا ، تعطى عندما تأخذ . . الونش لم يكتمل . . لماذا لم يلتق صدفة يوما بعبد الرسول ؟ ؟

١٩٧٩



كشف اللثام عن أخبار ابن سلام

يارب يا ساتر المؤمنين من العيوب . . يا كاشف الغيوب . . يا من أرشدت قوما من دون الخلق اليك . ثم وفقتهم للاعتماد فى كل أمر عليك . . اللهم صل وسلم على نبيك سيد البشر . . كاشف الحقيقة وحامى الصدق العائم فوق البحور الغريقة . . وبعد ، أعلم أنى سطرت هذه السطور . . لا لشىء إلا ابتغاء مرضاة ربى . وكشفا لحقيقة إنسان عرفت أخباره عن قرب . قاسى ما لم يقاسه الأولون . . وذاق مرا وهجاجا لم يذقه الآخرون . وفى أيامنا تضاربت حوله التواريخ . فثمة من لا ينسب إليه سوى الفعال . وآخر يحمل سيرته بما لم يجر ولم يحدث وزعم آخرون أنه وهم لم يوجد . ومن يعلم ؟ ربما جاء فى قادم العصور من يرغب فى معرفة طرف من أخباره . فيكون حديثى هذا هاديا ومرشدا .

ذكر أصله ونسبه :

هو الفقير الى ربه ، يوسف بن ابراهيم بن سلام ، لا يعرف أبعد من جده الثالث ، وإذا سألته لأجاب ، أنا يوسف أبى ابراهيم وجدى سلام ، وكنيتى ابن سلام ، فلا تنادينى إلا بهذا ، كما أنه لم يقل لأحد متى ولد بالضبط ولا أين ، يقول انه سمع امه تقرن تاريخ مولده بمجىء الوباء العظيم الذى مات فيه أبوه ، غير أنه كان يطرق ثم يقول ، لكن أى السنين لم تخل من الوباء ، وأشاع عساكر العثمانية بين العامة أنه غريب عن بر مصر ، قالوا انه يطمع فى ثروات الجراكسة ، بل إن السبب فى مروره بالطرقات متوقفا بين لحظة وأخرى ، زاعقا بأعلى صوته عما جرى فى النهارمن جند بن عثمان . إنه كان يقيم فى عشة قديمة على باب حارة درب الرصاص ، وعندما شرع العسكر لازالة أبواب الحارات قوضوا عشته .

ابن سلام بلا مأوى ، فسخط وطفش فى الطرقات . ويكررون انه ليس من أهل مصر . وإلا فأين كان وقت خروج التجاريد ؟ وإلا فأين كان وقت أن علق طومانباى على باب زويلة . وإلا فليقل للعوام الذين يمشون دائما وراءه ، يرددون ما يقوله . يحيطون به إذ ينام . لماذا لم يمت إذا كان يبكى ما جرى ! لا ياقوم . لا تصدقوه فهو دجال .

■ ■ ■

حاشية :

أخبرنى من أثق به : إن بعض السوقة دفعوا عنه خطر العثمانية عندما حاولوا خطفه . وراح ابن سلام يطلق صوته الغريب الذى لا هو زعيق ولا صراخ ولا حتى بين وبين ، تراجعوا من حوله وابتعدوا فى كبكبة الزرد والسلاح لا يجرؤون على الاقتراب منه ، وأطلق العامة صيحات التكبير والتهليل .

■ ■ ■

فصل فيما جرى له عند دخول العثمانية :

. . . عندما ثارت فتنة ابن عثمان . وجاءت الرسل من الشام بما جرى . لم يعد الرجال يغلقون أبوابهم فى حارة درب الرصاص . كما أن ابن سلام لم يعد يغلق بوابتها بعد المغيب . كل من أهل الحارة أمام بيته . يخمنون ما يجرى . فالأخبار مقطوعة . والقول الذى يبدو مؤكدا فى الصباح ، يصير مكذبا فى المساء . كل هذا والناس فى كرشة عظيمة . وابن سلام لا يأوى الى عشته أبدا . وفى هذه الليلة التى جاء فيها رجل نفد بجلده من الشرقية وراح يحكى ما جرى ، واقترب منه ابن سلام وبدا أن ظهره الهرم قد ازداد انحناء . . ابن عثمان يعطى الأمان ويدخل بلبيس . . رجاله يطيحون السيف فى أهلها حتى قيل أنه قتل فوق العشرة آلاف إنسان من عربان وجند وفلاحين ، صارت جثثهم مرمية فى الطرقات . أما الأحياء منهم فخطفهم العثمانية وباعوهم بأبخث الأثمان ، حتى أن البكر بيعت بثلاثة دراهم . هنا زعق ابن سلام متسائلا عن الثمن الذى بيعت به البكر ؟ ثم سأل عن عدد القتلى . وأضاف الرجل أن سائر البلاد التى مر بها ابن عثمان كادت تخلو من سكانها ، حتى أنك لتدخل القرية وتنادى فلا يصادفك إنسان . تحسر الرجال . واستعاذ ابن سلام بربه . . سمعه الرجال يقول : والله لم يجر هذا لمصر من قديم الزمان ، إلا زمن البختنصر البابلى . وأصغوا وكأن عليهم الطيرة ، ماذا يقول عجوز الحارة؟ ومن هو البختنصر البابلى ؟ لم يكرر قوله . راحت أسئلة الناس كحجارة رموها فى بئر بلا قرار . بل أدركوا انها المرة الأولى التى يسمعون فيها العجوز . طوال سنين لم يفارق عشته . لم يدخل بيتا ولم يعبر حتى أسوار المدينة . . منذ هذه الليلة لاحظوا أنه يخرج كل نهار . رؤى فى أطراف القاهرة وعند صحراء الرميلة . وقال آخرون والله أعلم أنهم شاهدوه فى ميدان الريدانية . بل أن هناك من أقسم أنه رآه عند سبيل علان ، يسقى الجند ويحمل معهم الأتربة . . وفى اليوم السابق لدخول الخنكار مدينة القاهرة رجع الى عشته مغمورا مقهورا ممزق الثياب . بارز العظام . . حتى ظن من رآه

أن الصغار رموه بالحجارة . أما الحارة فنزل فوقها الخراب . وزع الأغنياء من أهلها ذهبهم وفضتهم وقماشهم على الأماكن المجهولة . ولجأ من يخاف على نفسه وعلى حريمه وعياله الى المزارات البعيدة وفساقى الموتى . وإن لم ينفع هذا فيما بعد . وبدا لمن تبقوا أنهم يرون ابن سلام أول مرة فى حياتهم . . عيناه اللتان دبت فيهما الحياة ، زعيقه فى جوف الليل . يا رب : وتنبهوا الى أنه لا ينام أبدا . حتى حاروا فيما جرى له وما أصبح عليه . وفى الصباح سألوا عنه . وجدوا عشته خاوية . تذكر البعض أنهم رأوه يصلى الفجر فى المسجد القريب . وطلع النهار وزادت الرجل فى الطرقات . وفجأة علا صراخ الموقعة . وكانت الكبكبة . وصول النزال والقتل والطعان . ورجفة الأرض إذ تنطلق المكاحل الكبار بالبارود . وانعقد الغبار سحابات قتيمة فى سماء المدينة . وبدت البيوت يتيمة . والدكاكين مرعوشة تنادى . . الأمان . . الأمان . . والحوارى كالمساكين فى المجاعة . كل هذا والشتاء يعمل عمله . ونظر الأهالى من خلف الطيقان المغلقة . والعصر يرمى فى الشوارع وحشة وخنقة وأغرق النفوس ألم وخمدة . هاهم جند الخنكار يطلقون البندق الرصاص فى الهواء .يصرخون كالبهائم . . همج بلا نظام . هاهم يتوقفون يلجون البيوت ، حجتهم البحث عن المماليك الجراكسة . وعلاصراخ الحريم وآلام العيال ، واستمر النهب والقتل عمالا حتى بعد مجىء الغروب ، والشمس ليس لها من أثر . . والمنادون فى الطرقات ، إدعوا بالنصر للخنكار سليم بن عثمان ، لا يخبىء أحد منكم جركسيا وإلا . . ومن ناحية سبيل علان . . وفوق قناطر السباع . خيل للناس أنهم يسمعون صوتا يقول كلاما آخر . عجوز محنى الظهر . يبدو فى حمرة المغيب . . يتكىء على فرع شجرة ، يمشى بسرعة كأنه يجرى ، هزيل لا يبين « راح الصالح بالطالح ولعب السيف فى رقاب الأبرياء . . طرش العثمانية من أهل مصر فى يوم واحد ألف ألف ألف إنسان . . الجثث مرمية تنهشها الغربان . . لا تجد من يدفنها . . أبدان بلا رؤوس ورؤوس بلا أبدان . . يا حى يا قيوم يا من لك الدوام

راح الصالح بالطالح .. » قيل أن الصوت سمع فى الباطنية . بل إن أهالى الجوانية استطاعوا تفسير ما قاله الصوت . وأى مسافة تفصل المكانين عن بعضهما . وحاروا فيمن يكون ومن يجرؤ على التجوال والزعيق وسط هذا الضجيج والعجيج قالوا إنه مجذوب . . وقيل أنه رجل قتل ولده فى الموقعة ، وذكر آخرون إنه إنسان فاض به الحزن لهول ما رأى . وأقسم ثلاثة ممن كانوا يختبئون فى فساقى الموتى قرب ضريح الامام الشافعى . . ما هو إلا عجوز معروف لأهالى قصر الشوق عامة وساكنى درب الرصاص خاصة . . إنه معروف لدينا من صغرنا نراه الشيخ العابد الزاهد ابن سلام . . وأكد شاب أنه اصطدم به أثناء جريه فزعا . إنتابت جسمه عندئذ رعشة . وأقسم بتربة أبيه أنه رأى فم ابن سلام خاليا تماما من الأسنان . فراغ مظلم يقطر دما غير أن أهالى الدرب كذبوا ما سمعوه ، صحيح ابن سلام عجوز لكن أسنانه سليمة . وقال آخرون إن فمه لم يكن به أسنان . غير أنهم تعجبوا كيف يتناقشون والموت يمشى على أقدامه فى الطرقات ، لا يأمن أحد على روحه ، الحرائق تشتعل فى عدة أماكن ، غير أنهم فجأة سمعوا صوتا واضحا أثار الرعشة فى قلوبهم ، أخذهم حتى كادوا يبكون ، لا عجب فالناس فى أسى وهم عظيم وجرحهم طرى مفتوح لا يزال ينزف . . الصوت متوحش وغريب ، ضاع الأمان . . وراح من راح . هتكوا عرض عشر نساء فى جامع المؤيد ، وقتلوا بائع خيار عند باب النصر ، أكلوا خياره . . القتل والنهب عمال . . راح من راح . . أطلوا من الطيقان التى غلقت من وقت بعيد . صاحب الصوت مضى . سمع من يردد ما قاله . . سألوا بعضهم ، فأكد رجل رأى المنادى بعينيه . . هو بعينيه ، زاهدنا وفقيرنا . . !

ذكر أخبار شعره :

أعلم غفر الله لك أن ابن سلام لم يقرض الشعر طوال عمره أو هكذا قيل حتى وقعت الشدة العظمى . وحدثت الكارثة . وعمت القارعة .

وصال جند ابن عثمان وجالوا وهاشوا على ناس مصر . وما راعوا لجوامعها ولا لزرعها ولا لنسائها حرمة . . ونهبوا دكاكينها وقصورها وما أبقوا إلا الجدران .

يذكر الناس ، أن ابن سلام بدأ عندئذ يقول الشعر ، وقد أشاع العثمانية أن الجراكسة كانوا ينظمون له هذا الشعر ليقوله فى الطرقات . . لكن أخبرنى من أثق به أن ابن سلام هو الذى قرض كل ما قاله من شعر . . ثم أن شعره الذى أبكى الناس وأجرى الدمع أنهارا من العيون ، لم يتبق منه شىء ، ولو كان واحد من الخلق كتبه لبقى منه بعض ما كنا نود أن نورده هنا . يقول القاضى بدر الدين بن زيتون ـ نفعنا الله به آمين ـ إن إلقاء ابن سلام لاحدى قصائده إستغرق مرة وقتا ينحصر بين أذان العصر ونزول صفرة المغيب . وهذا من غرائب الزمان .

فصل فيما كان يفعله ويقوله :

إفترش ابن سلام الطريق الكبير القريب من السوق . يحيط به من إعتادوا المشى وراءه ، وتساءل التجار والناس والعيال عما ينويه ابن سلام ، وفوق البيوت تجمعت الغيوم الثقال . . ولا عجب فقد أمطرت السماء طوال ثلاثة أيام . ولم يكف الرعد فى الليل أو النهار كذا البرق ، حتى أوحلت الأرض وصار المشى صعبا ، ويقسم من كانوا على مقربة من ابن سلام أنه لم يرتجف من البرد أبدا . كما أن ثيابه لم تبللها نقطة ماء . وفجأة وقبل الظهيرة ، علا دق الكوسات والطبلخانات وزعق النفير من بعيد ، وبدا من نهاية الطريق متولى حسبة القاهرة قادما من ناحية الرميلة حيث القلعة ، يمشى أمامه السعاة ، له هيبة ومهابة تكاد تحاكى هيبة الملوك .

قام ابن سلام زاعقا . . متوسطا الطريق يا حى يا قيوم . . وتردد الجميع مقدار درجة فى الاحاطة به ، غير أنهم قد أحاطوا به ، وأطل الأهل من الطبقان ، ويطل النداء على سائر أنواع البضاعة ، كفت الطبول ، سكتت الكوسات . .

زعق ابن سلام زعقة عظيمة ، أقول قد عاينت ذلك بنفسى ، إن قلب الواقف على بعد ألف متر منه لا بد أنه ارتجف هولا ورهبة ، تقدم من حصان المحتسب ، انزل يا زينى من فوق سرجك وكلمنى ، وعلى مهل نزل الزينى يتعثر فى قفطانه الحرير وجبته ، صاح عليه ابن سلام ، ظلمت العباد وفرضت من الضرائب ما لا يطيقون ، شردت العيال ، وزدت عدد الأرامل .

وفى هذه اللحظة تصايح الواقفون وراء ابن سلام ، ومعظمهم فلاحون جاءوا من أقاصى البلاد بعد أن سمعوا به ، والآخرون حاقت بهم المصائب فلزموا جانبه ، وأطرق الزينى برأسه ، يا زينى ألم تكن أنت الرجل المقرب عند السلطان الشهيد قنصوه الغورى ! وكنت تقبل يده وطرف جبته فى اليوم مرات ! ما الذى جرى يا عالم ! ما الذى فعلته ! وقمت به حتى نراك اليوم الحبيب المقرب لابن عثمان ؟ ألم تدع أنت على الخنكار قبل خروج الغورى الى الشام ؟ ألم تشرف على جمع النقود والضرائب ؟ ويا ليتك اليوم نصير لأهلك عند العثمانية . ها أنت مستمر فى فرض المكوس وترينا من المظالم أنواعا وأنواعا . قيل أن الزينى صار يتلفت حوله مذعورا . . إنتابته رجفة . ربما سمع الكلام من ينقله فى التو الى ملك الأمراء ، يا خراب دياره . . لن يمضى المغرب إلا ويشك فى الزناجير ويعدم اليوم التالى . يشك من ضلوعه كالباذنجان . . كل هذا وابن سلام لا يكف ولا يهدأ . . أنت كنت معهم عندما هجموا أمس على سكان الجزيرة الوسطى ، طفشوا فى بيوتهم ورموا عفشهم فى الطرقات وضربوهم حتى إنقطع حسهم . كل هذا وأنت معهم . لا تقول اسكتوا ولا ترفع عنهم الأذى ، كل هؤلاء شاهدوك وسمعوك واستغاثوا بك ، لكنك لم تأبه لهم وبهم يا كافر . . يا عدو الله . إنتفرت عروقه . . وكاد الدم يخرج من عينيه . . أما الناس خلفه فصاروا يصرخون ويستغيثون .

وفجأة مد ابن سلام يده وجذب الزينى بركات بن موسى من لحيته ، وخلع عمامته ، ورماها فى الوحل ، وبهدله آخر بهدلة . وهذا لم يتفق فى قديم الزمان أو حديثه أن ناسكا أو غير ناسك مرمغ هيبة رجل ذى

سطوة وجبروت خاصة كالزينى بركات بن موسى ، فقد ظل نجمه يلمع وسعده يطلع فى زمن الغورى وزمن الخنكار ، مما حير العقول وأربك الألباب ، وقيل أن الزينى وعد ابن سلام أن يكلم ملك الأمراء فى أمر هذا الخراب ، غير أن ابن سلام لم يصغ اليه .

وتزايد عدد العامة فجأة حتى أنك لو نثرت ذرات الملح فوقهم لما نفذت ذرة واحدة ، وأرعدت السماء فجأة رعدا مهولا حتى رجفت قلوب الناس بما فيهم عسكر العثمانية الذين تجمعوا عن قرب ، وتهامس العامة وسائر أهل مصر ، أن البارى عز وجل غاضب على ما نزل بعباده .

إنتابت القلوب رجفة ورهبة ، ورفع ابن سلام عصاه ممسكا بها من منتصفها . زعق نائحا على من مات . معددا من رهم قتلوا منذ دخول العثمانية ، راثيا أهل مصر الذين انتزعوهم من وسط عيالهم وأرسلوهم الى بلاد الخنكار ، حتى حدائق الفرجة التى خربت ، وإيوانات الجوامع الجميلة التى نهبت عواميدها وأحجارها .

وعندما استرسل كاد القوم يشقون ثيابهم ، كبروا وهللوا ، وانطلقت فيهم جمرة نار مهولة تقيد لا تنطفىء . صكوا الزينى ورجاله بالمقارع ، وبرغم زيادة الهول وشدة الضجيج ، فقد سمع جميع اهل المدينة صوت ابن سلام نقيا كالزئبق ، صافيا كالبللور برغم تقدم العمر ، زيادة الهم ، وشدة الضيق ، والكرب .

ذكر أخباره الأخيرة وكيف انتهى أمره :

طاف المشاعلية ثلاثة أيام . راكبين وراجلين . ينادون : بأن الكاذب اللئيم مدعى الزهد والعبادة ، سوف يدق رأسه بالطبر عند باب زويلة ظهر يوم الجمعة . ولمدة ثلاثة أيام علا النواح من البيوت . وبرغم أن الوالى قد حرم النعى بالدق على الطارات ، غير أن النساء تحت ستار الليل رحن يقمن ويضربن الطارات حتى الفجر ، لدرجة أن المدينة يأخذها الهول حتى ليشيب من حالتها الرضيع . ولم يجرؤ دركى واحد

أن يأمر بالنهى عن هذا ، وقيل أن الجنود الذين أمسكوا ابن سلام وضربوه ، قد إنتابهم الندم ، لأن النساك لا يقربون ، فرموا أنفسهم من فوق سور القلعة*، وراح خفاف العقول من العامة يقولون أن ابن سلام هارب هائم على وجهه فى الجبال . وأن الله سبحانه وتعالى سيمده بجند من عنده ، وأنهم لم يمسكوه هو بعينه .

لكن جاء ظهر الجمعة حيث خلت الجوامع من مصليها ، وخرجت النساء حاسرات ، أما نوافذ جامع المؤيد شيخ ، فقد تعلق الخلق بها ليرقبوا البوابة الكئيبة وما يجرى عندها . وعند ظهور الحمار المربوط اليه العجوز ، سرت همهمة بين الجمع خرست فجأة ، النسوة لم يطلقن زفيرا مرتفعا ، ونزل الخراب والموت حتى لتحسه فوق البيوت ، وتكاد تخال مأذنتى المؤيد فوق زويلة تميلان حزنا وقهرا ، وخلف ابن سلام سحبوا جمعا يبلغ العشرين ، قيل أنهم الذين نهبت بيوتهم فى الجزيرة الوسطى ، وشكوا الى ابن سلام حالهم ، وكان ما كان . .

طلع ابن سلام فوق المصطبة . رأسه محلوق تماما ، جسمه عار إلا من زنط قديم يحيط نصفه الأسفل ، جال بعينيه فى الجمع الذى احتشد وسكن . صاح فجأة : اقرأوا الفاتحة ، اهتزت الشفاة وترقرق الدمع خلف المآقى ، وقيل أنه التفت الى المشاعلى وقال : إعمل شغلك . وجلس القرفصاء ، بينما رفع المشاعلى الطبر الثقيل وأهوى به فوق عظام الرأس الذى انخسف ، وبدا كومة غريبة فى حجم قبضة اليد فوق الرقبة . انتفض الجسم الى أعلى ، وقيل ظل واقفا مقدار درجات وبسرعة هوى الطبر مرة ثانية . وزعق الواقفون جميعا زعقة هائلة . وكثر التحسر والأسى ، وقيل أن أحجار البوابة رمت دما ولا تزال ، وعاطت النساء عياطا مهولا ، إرتجت له القاهرة وظل جسده معلقا فوق بوابة زويلة ثلاثة أيام .

١٩٦٧

■ ■ ■



دمعة الباكى

على طيبغا منصف الشاكى

. . سبحانك يامن أنزلت الكتاب المبين على نبينا أشرف المرسلين ، وقصصت عليه أخبار المتقدمين والمتأخرين ، نحمدك أن جعلتنا من أمتك ، وحشرتنا فى زمرتك ، وبك نستعين ، فقد شغلنى أمر هذا الرجل الغريب ، المعروف بين الحاضر والغائب بطيبغا ، فصرت أستقصى أحواله ، وأحاول أن أجلو أخباره حتى وقع بين يدى من مخلفات السلف هذه النبذ والشتات ، للفقير إلى ربه (ابن الحداد) والتى عنوانها (دمعة الباكى على طيبغا منصف الشاكى) وقد فرحت بها فرحا عظيما ، لأنها تكشف بعض ماغمض وطواه الزمن . قلت فلأنسخها وأريها للأصحاب ، ربما نالنا من هذا بعض الثواب . والحمد لله رب العالمين . .

(أقول وكأن هذا يجرى أمام عينى الآن ، أن الليل كان شنيعا مهولا معتما ، حتى النوم فارق العسكر ، صاروا يزعقون ، الله أكبر ، الله أكبر ، أما الجليد فبالقطن المندوف أشبه ، وإلى ريم الصابون أقرب . ينزل من السماء ويطلع من الأرض فيكاد يغرق خيلنا وأحمالنا ، انقضى وقت طويل على حصار مولانا سلطان المسلمين لآخر قلاع الفرنجة فى بلاد الشام . صار كل منا يقول ، أما فك الحصار فالجند متعبون ، أو الاندفاع ، سرى الهمس بأن تباشير وباء بدأت ، إن لم نتداركه فسيرمينا لقمة هينة سائغة أمام الكفرة . قرب الصباح ، النهار قريب ، وارتجت الأرض رجا عظيما ، وأضاءت الوادى نيران النقوط التى سلطت على أسوار القلعة ، أخذنا ، لم نعرف ، أهجمنا أم هوجمنا ، صرنا نحن المشايخ نقرأ الاوراد والاذكار نطلب الرحمة من رب العالمين ، صهلت الخيول ، أجفلت الارواح فى الابدان ، سرى الخبر بيننا كالنار فى عيدان البوص ، اندفع صفوة من فرسان الاسلام الى القلعة للمغازاة فى الفرنجة الكفار وإنهاء الحصار ، قيل من أمامهم ؟ جاءنا الجواب ، الأمير « طيبغا آق سنقر » أول مرة أسمع فيها الاسم ، لم ينقض الكثير حتى تدافع العسكر من ثغرة كبيرة إلى داخل القلعة . أقول وقد عاينت هذا بنفسى ، إن الجنود الذين نال منهم التعب وبدأ فيهم الوباء ، رأيتهم فى لحظة اندفاعهم ، أذكر هذا طوال عمرى ، فالسماء ساعتها محملة بغيوم ثقال لها عيون وآذان ، كل التعب ضاع وراح ، رفع الفرنجة الاعلام يطلبون الأمان ، دخل سلطاننا المدينة يعرج عرجا خفيفا ، فاحدى ساقية أقصر من الأخرى . وخلفه حملة المصاحف ، يصيحون ، مكبرين مهللين ، غير انه قبل جلوسه على حجر أو دخوله إلى مكان ، نادى من حوله ، أمرهم باحضار فارس الاسلام الأمير « طيبغا آق سنقر » من اينال .

■ ■ ■

عانق سلطاننا الأمير طيبغا وضمد بنفسه جروحاته ، أعلن المنادون أنه استقر به نائبا للسلطنة ، مختصا بالمظالم والاحكام ، لهجت الألسن

بأن الناصر سوف يعقد لابنته على طيبغا ، لم يتم الزواج ، فلا أستطيع الجزم هل فكر سلطاننا بهذا أولا ؟ ؟ كما انى والحق اقول ، لست عليما بكل الأمور ولم يتبحر طيبغا معى فى حكايا النساء ، مرة واحدة فقط كنت حديث معرفة به ، شاورنى فى شراء جارية سوداء يقال لها « اتفاق العوادة » ، ضحك وقال ، فلنجرب سماع جوارى السودان .

حدث ان بعض اللئام اشاعوا أنه رتب أمرا مع تاجر الرقيق الحبشى ليحضر له صغار الجوارى السودان ، قالوا إنه يهوى ذلك ، اعود الى ماكنا فيه ، فأقول إن بعض الأمراء أدركهم الغضب وأولهم طشتمر جندار ، ذهبوا والسلطان قلاوون فى طريق العودة ، داروا فى الكلام ، تعجبوا ، كيف يأمر سلطان المسلمين باقرار طيبغا وهو مازال غضا طريا ـ كان صغير السن شابا فى هذا الزمان ـ نائبا للسلطنة ، يحكم فى المظالم الكبيرة ويكفل حقوق المؤمنين والايتام ، أصغى اليهم . دار برأسه اليهم ، قال : أهذا كل ما عندكم ؟ قالوا والله نحن نخاف سلطاننا ، قال وعيناه فى الأرض لا تحيدان ، غوروا من وجهى ، لو كررتم هذا لقطعت أجسامكم والقمتكم وحوش الأرض ، ارتجفوا ، تقهقروا ، استدركوا فارطهم وأسرعوا إلى خط التبانة ، السكون فى الدار ، العبيد يقفون فى الزوايا والأركان ، حتى نائب لها ، هز رأسه : أدعوا لنا حتى نشفى من جروحاتنا اطلبوا لنا الرحمة والمغفرة .

نزل الليل ناعما كزيت البلسان ، الصيف أنكسرت حدته ، فى كل ليلة . يتوجه أهل العلم واصحاب المعرفة من التواريخ إلى بيت طيبغا القائم عند خط التبانة ، السكون فى الدار ، العبيد يقفون فى الزوايا والأركان ، حتى بعد استقراره نائبا للسلطنة بقى فى بيته ، أبى الطلوع إلى القلعة ، هنا نكون أقرب إلى خلق الله ، هكذا قال ، حمل الخدام فوارغ الصحون من بعد أن فرغ الحضور من العشاء . قال الشيخ سراج الدين أنه جهز من الألغاز ما يعجز الجلوس عنه ، تندر يلبغا اليحياوى أمير آخور وأعز أصحاب الأمير طيبغا . الكل سيحلون الألغاز عدا أنت يا شيخ سراج ، لوح الشيخ بيده ، أنشد :

وذات ذؤابة تنجـر طـولا تراهـا فى المجىء وفى الذهاب
وما لبست مدى الأيام ثوبا وتكسو الناس أنواع الثياب

.. تحداهم الشيخ ان يحلوا اللغز ، علت الأصوات ، كثرت التفسيرات ، طيبغا هادىء ينظر إلى الجلوس ، وجهه مريح لكنه عبوس ، يفكر فى أمور بعيدة لا نعرف ما هى . أخبرنى فيما بعد انه يضيق بالكلام لو دار ولف ثم استكان ، تثقل الليالى فى نظره ، يفارقه الأصحاب فيغرق فى الخيال ، ما أصل الحياة ؟ تمضى بنا إلى أى حال ، ضحك الشيخ سراج ، صاح أقول لكم ، هى الابرة ، لم يكد يشرع فى الحديث حتى علا صوت صياح فى الخارج ، الزعيق أرجف مياه النافورة التى تنزل السكينة فى الجو . قال يلبغا اليحياوى عجيب ، من يجرؤ على الصياح ؟ .

خرج طيبغا يلتحف بعباءة حرير شاهانى أصفر .

قال العبيد : لا تؤاخذنا يامولانا ، لا شىء يعكر الهدوء ، خطا عبر الحديقة .

برز شاب يرتدى ملوطة ممزق الشباب جاحظ العينين من فزع ، انطرح ، قبل الارض ، أعانه طيبغا ، أخذه ، شاب مليح حلو الصورة صوته مرتعش ، أنا خازن السروج ، رأيتنى كثيرا ، هز طيبغا رأسه ، أخذه العجب ، يراه كل يوم يضع سرجه فوق الحصان ولم يحفظ خلقته ، ربما لم يعن بالنظر إليه ، ربت على كتفه ، بكى الشاب ، لا تؤاخذونى يامشايخ ، اندفع شاكيا باكيا ، نادبا حظه ، منذ أسابيع تزوج بنت ناس رقيقى الحال ، لكنها ذات حسن وجمال وكمال ، ويشاء الحظ أن يلمحها فى سوق الشماعين .

الأمير جنكلى ابن البابا ناهز السبعين ، عرف عنه ميله الشديد إلى صغيرات السن ، ويقال انه لا حول له ولا قوة معهن ، بمجرد أن رآها ، طاش عقله ، ضاع صوابه ، قال هاتوا لى هذه ، لا أنام حتى تكون عندى ، قام رجاله وراءها ، زنقوها عند سوق الخيل ، الوقت غروب ، أحاطوها ، لفحوها ثم ولوا .

بكى خازن السروج ، امرأته يتيمة ، مسكينة ستموت لتوها ، يحبها ، يحبها والدنيا فيها الكثير من الحريم فلماذا أمرأته من دون النساء ؟

قال الشيخ محب بن نباته ، وما تظنه سيفعله لك أميرنا طيبغا ؟ ثم أطرق طيبغا مقدار درجة ، ضاق برد الشيخ ، تعلقت عيون الباقين بوجهه ، إذا سخط على الشاب سخطوا عليه ، إذا أبدى الترفق تهونوا به ، طمانوا أرواحهم ان الأمر سيعدى ، ليست الحادثة الاولى التى ياتيها ابن البابا ، وهو صاحب سطوة وهيبة ، يخافه الكثيرون .

مال الأمير يلبغا همس فى أذن طيبغا قال له مثل ذلك . غير أن طيبغا قام فجاة ، نزع عباءته ، صاح على الشاب ، قم وجهز ركبى ، التفت ، لا ينام هادئا فى بيته وقد لجأ إليه صاحب مظلمة .

نزل الارتياع والخوف على الوجوه ، الفاعل جنكلى بن البابا . قال الشيخ سراج ، تعرض نفسك لخصومته يا أمير .

ازداد طيبغا قبحا فى هذه اللحظة مع انه فى سبيل فعله الخير ، قال لن يرضى سلطاننا بمثل هذه المظالم . قال يلبغا ، لكن حدث الكثير من ذلك ولسان حاله يقول ، لماذا تستنفرك الحادثة بالذات ؟ .

لم يجب طيبغا ، خرج لساعته ، كنت مهموما عليه ، وانصرفوا كلهم حتى يلبغا اليحياوى . ربما انقلبت الأمور فيدهم طيبغا فى بيته عندئذ يؤخذون . قلت والله لا أمضى حتى أعرف ما جرى ، وأوغل الليل فى العتمة ، عظم البرد ، خلت نفسى فى ليل شتاء عفى . .

وارتجت القاهرة رجا شنيعا ، رجفت الألسن بما جرى وكان ، صار العامة فى الأسواق والذعر وأسافل العياق ، وأوباش الناس الشلاق ، لا يلوكون الا ما جرى . ترامى الأمر بسرعة كصفير الشرر لو دب فى القش العظيم ، فوهجه وأشعله ، أقول وقد سمعت ما دار باذنى ، إن الحديث واحد فى الحوارى والطرقات ، بين الحريم فى البيوت ، فوق الاسطح ، وكلما قابلت انسانا بادرك بسؤال ، هل دريت بما كان ؟ والحق معهم ، فلم يحدث فى سالف العصور والازمان ، أن أميرا أقل

رتبة من أمير عالى الشأن ، يجبره على التراجع فى أمر أتاه ولم يعد فى حسبان .

وزاد الأمر هولا أن طيبغا وجنكلى مملوكان لسلطان واحد ، أثار هذا حفيظة أرباب الجاه ، قالوا فعلها طيبغا ، فرج علينا العوام . لكن طيبغا ذاع أمره واشتهر ، وصار كل من عنده مظلمة يقول ، هيا نذهب إلى طيبغا ، فيسأل من هو ؟ فيقال هو من رد امرأة خازن السروج إلى زوجها بعد أن خطفها أمير كبير جنكلى بن البابا . .

■ ■ ■

حكى الشيخ جلال الدين الكندرى فى تاريخه المعروف (الطريق الآمن إلى حقيقة أهل القرن الثامن) قال لما شاع أمر طيبغا قلت لم يمر على شخص كهذا ، والله لأذهبن إليه ، أراه وأحادثه بنفسى ، وجدته متواضع الثياب ، بيته قليل الرياش ، رأيته قبيح الوجه غليظ الشفة ألدغ اللسان ، بطىء الكلام غير أنى قلت ليس هذا ذا شأن .

قلت كيف تنقذ امرأة واحد من العوام وتعادى جنكلى وهو من عشيرتك وأبناء جنسك ؟ .

قال بلسان بطىء : تحرق قلبى المظالم ، السماع بها أو رؤيتها ، تمهل وتابع ، وقديما مشيت فى الركاب خطفنا العمائم من فوق رؤوس الناس . أوقع أصحابى شيوخ كبار . كنا صغار . غير أنى أرثى لحال القوم الذين يطل من عيونهم السؤال . شكوت ليلبغا صاحبى حالى ، لكنه قال ما الذى تطلبه من الدنيا وأنت فى أحسن حال ، عندك ما تشتهى من جوارى الروم والسودان ، هل ستحمل الدنيا على رأسك وتمشى تصرخ بها ؟ للكون رب يدبره .

فى ليل آخر سألت يلبغا كيف مات ألف ألف انسان فى الوباء الأعظم . قال يلبغا ماتوا شهداء . قلت وما الفرق أن يموت ابن آدم شهيدا أو غير شهيد . قال يلبغا ، أنت تحيرنى يا أمير . لم أطل معه ، سكت ، لكن قل لى يا شيخ جلال الدين وانت رجل مطلع ، كيف تنام وكل يوم يقع من

المظالم ما تنكسر منه الجبال ؟ . . أطرقت . حرت فى جوابه ، نشفت عليه فى الكلام ، هل ستعدل الدنيا يا أمير طيبغا ؟ رددت مخطوفة إلى زوجها ، فقلبت الكون وألبت الأمراء وهيجت الخواطر وأحقدت النفوس ، فما بالك لو شرعت فى فض المظالم ؟ صاح طيبغا : والله لا أسمع بمظلمة إلا وأبذل دمى فى سبيل رفعها عن صاحبها والله لا أرد عن بابى صاحب سؤال . أقول الحقيقة ، اننى قمت من أمامه وعندى رهبة زائدة وحيرة مما أسمعه لى ، غير أن الأيام جاءت بالغريب .

■ ■ ■

ضرب الأمراء مشورة اتفقوا على طلوع طشتمر الجندار وسنقر الخازندار ، إلى السلطان كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ، ركبوا خيلهم ، النهار فى أوله ، قبلا الأرض بين يدى السلطان . أخبر طشتمر والدمع يجرى من عينيه ، الأحوال فسدت والأمور اضطربت ما عاد للسادة حرمة فى الديار . احمر وجه كجك ، كان صغير السن ، لم يمض عليه منذ اعتلائه السلطنة غير أيام ، ما الخبر ؟ انخفض صوت طشتمر ، نائب السلطنة يا مولاى اتى جرما عظيما وفعلا مهولا ، منع هدم ربع قديم ، كان لابد من إزالته ليتمكن الأمير اقباى من بناء جامعه ، ولما رافعه اقباى فى ذلك ، قال طيبغا ان البيت به سبعمائة نفس ، اين يروحون ؟ تصور يا مولاى ، يحول دون قيام بيوت الله ، الادهى من ذلك ينصف العامة على اقباى ، ضاعت هيبتنا بسببه ، سهم السلطان ثم قال ، شوفوا يا امراء لا أبت حتى أشاور أهل الرأى ، صاحا ومن هم أهل الرأى ، مولاى ألسنا رجالك ؟ قال كجك بصوت خفيض : أوصانا والدنا بطيبغا ثم إنى لا أرى فيما أتاه ذنبا شنيعا . ياأمراء تذكروا انه أول من رمى نفسه وغازى فى آخر قلاع الكفار . قالا وهما جزعان : وبيت الله يا سلطان المسلمين يا حامى الدارين ! قال كجك أمنحه أرضا خلاء من اقطاعى فى الريدانية . .

هيا إلى العشاء . قام ، فى هذه الأيام ازدادت قامته طولا ، عظمت مهابته لم يسمع انسان فى بر مصر يذكره مقرونا بقبحه ، أو عدم

ملاحته ، قام إلى فناء الدار رجال الصوفية من أتباع البطل المجاهد سيدى أحمد البدوى وأتباع القطب سيدى الدسوقى وسيدى الرفاعى ، عليهم جميعا أفضل السلام ، أحشرنا يارب فى ركابهم ، وعزز بأمثالهم الاسلام ، العشاء أباحه طيبغا لكل ذى حاجة . أقول أن مطبخ الدار يذبح كل يوم مائة رأس غنم وثلاثمائة طير ، غير الفاكهة والنقل والمشموم ، يفتح المطبخ فى اليوم مرتين ، ساعة الغداء يدخل الفقراء والايتام فاذا ما فرغ الواحد منهم قام فيجىء غيره فى العصر ينفض الغداء ، غالبا لا يحضر طيبغا يكون مشغولا بالطواف فى الحوارى والاسواق يسمع أرباب الشكاوى والحاجات ، يفض المنازعات ، أما العشاء فيتصدر فيه المائدة ، ينظر ضيوفه ، يعرف واحدا أو اثنين ، الكل وجوه غريبة ، لكنهم ينظرون إليه ، عيونهم ترميه ، تغرقه بنظرات حب وحنان كأنهم يعرفونه من قبل ولادته ، من سالف الزمان ، كنت أواظب على المجىء . أما الشيخ سراج وغيره فاحتجبوا عنه وصاحبه يلبغا ، بل سمعت من يقول ، يلبغا يرمى صاحبه بالجنون . سبحانك مغير النفوس والعقول . إذ أن طيبغا عن ذلك أبعد ما يكون . مال على وقال : دعوت طشتمر الجندار . وقفت اللقمة فى حلقى . . كيف ؟ لا يمر يوم إلا ويطلع القلعة ، يحط فيك عند السلطان ، سيظن الأمر مكيدة لمسكه . قال طيبغا : وغيره كثيرون ليس بينى وبينه ما يستحق هذا ، طشتمر لم أجالسه فى حياتى . لا أذكر شكله ، قلت لكنه يعرف كل كبيرة وصغيرة ياأمير . ضحك طيبغا . ويضيف أكثر مما يعرف . قل أنت ما الذى بينى وبينه ؟ أطرقت : والله لا أعرف ، كلامك يا طيبغا بسيط ، لكنه معجز عن الجواب واعر . دعاء الجلوس فى اذنى . قلت ربما حب العامة لك أفسد عليهم حالهم . سألنى كيف ؟ قلت الناس كلها تلهج الآن بذكرك ، يقولون لو كلهم على مثال طيبغا لصار الحال ولا فى الخيال ، تراجع وبدا حشما مهيبا ، عليه حرمة زائدة ، لا أفعل إلا ما يرضى ربى ، قلت وعندى تلجلج لسان ، إذا كانوا يطلعون القلعة ويدسون عليك ويحطون فى حقك الفارغ والملآن ، اطلع أنت مرة واحدة إلى كجك ولا تقل أكثر من الحقيقة . قال بايجاز ، لم

يطلبنى . كدت أواصل الكلام ، سكت ، لم أحر جوابا ، الليل يوغل ناعما وطشتمر لم يصل . ربما قال ، يهيننى طيبغا بدعوتى للأكل مع العوام ، تزايد صوت الصوفية حتى بدا كغيم الحمام فى وجه السماء ساعة الغروب ، تربع طيبغا أغمض الجفنين بشجن يقطر من وجهة ، أصغى إلى العجوز الذى يتلو الأوراد ضاربا عصاه الحديد بقطعة صغيرة ، يخرج أحلى الأنغام ، الدنيا مركب بلا ربان ، بحار بلا شطآن ، المسافرون فيها عميان ، نزلوا القيعان كشفوا وكان ، سيدنا حبيب الندمان ، آه يا حسين عليك أفضل الصلاة والسلام . جرى الدمع من عيون الرجال . أحسست بقلب طيبغا مضيعا فى أصعب حال ، يا شهيد يا حبيبى ، يامن افتدتك أم الغلام ، ابنك مذبوح فى حجرك وأنت لم ندمان ، تطلعت حولى ، الجدران عليها مهابة ، ماء الورد فى الأركان والحجارة لها عطر سلسبيل والله فى الدماء رائحة البلسان . أود لو تعرف ما يقولون عنك يا أمير ، كان ساهما ، يصغى بلحمه بعظمه ، بحسه ، بنفسه ، ولو رآه الغريب لظن أنه فى أبعد واد . حرت فيما يفكر فيه ، آه لو أنفذ إلى عقله فأعرف ، أقول الحقيقة ، الحيرة تأخذنى أمامه ، شق جوف الليل صوت زغاريد تلعلط من بعيد ، ملت عليه ، طشتمر لم يكلف نفسه إرسال من ينوب عنه . سكت ، سكت ، قلت إنها إهانة . نظر إلى ، وكان الليل يدرك منا النخاع ، سامحك الله يا ابن الحداد . .

■ ■ ■

ركب قاضى الحنابلة فحلا قويا وقصد بين قاضى القضاة ، ترجل ودخل القاعة الكبرى ، حيث جلس قاضى الحنفية ، وقاضى الشافعية ، وقاضى المالكية ، يتصدر المجلس الشيخ عبد البر قاضى القضاة ، سلموا وتناقشوا فى أمور شتى حتى أثار قاضى الحنابلة حقيقة ما جاءوا من أجله ، منذ شهور مضت قل نصيب كل منهم من القضايا والشكاوى ، صار القاضى يجلس فى شرفته ليأمر وينهى ، فلا يجد من يجيئه ويشكو إليه ، سرقة أو خطف ، أو حتى قتل ، فيقوم الواحد

آخر النهار كيسه خال من أى درهم رنان ، كان يجىء من رسوم المنازعات . ولما استقصوا فى الأمر ، وجدوا شيئا فظيعا ، الأمير طيبغا نائب السلطنة بدأ ينزل بنفسه الى الحوارى والطرقات يطلع الربوع ويدخل الحانات يسأل أرباب الحاجات وحدث الكثيرون انه أوتى من القدرة بحيث ينهى أشد الأمور تعقيدا فى ثوان ، حتى لهجت ألسنة الناس بالسب فى حق القضاة .

قال قاضى الحنفية ، انه سمع قائلا يتهم قاضى المالكية بقبول البرطيل من الأموال فيغلب الظالم على المظلوم . صاح قاضى المالكية : انه ترامى إليه من يتهم قاضى الحنفية بأن عينه حافت فى امرأة شكت زوجها عنده . علت الأصوات ، اشتد الزعيق ، بان الغضب فوق الجباه ، نزع قاضى الحنابلة جبته ، لا أكون قاضيا بعد اليوم ، إيش دخل طيبغا فى حوائج الناس ؟ رد عليه قاضى المالكية ، لابد أن غرضه عظيم ، لم يسمع بمثل هذا فى قديم الزمان ، طيبغا يخفى غرضا لئيما هو تقويض دعائم الاسلام ، قالوا فى نفس واحد ، نقيم عليه الحجة والبينة انه جدف فى حق مولانا رسول الأنام . نجبر السلطان على الأمر برجمه . أطرق قاضى القضاة سيكون أمرا مكشوفا مفضوحا ، خاصة واللعين ، لا يفوته فرض ، يجمع حوله الدراويش ، سألوا ، ما العمل إذن والحال منقلب ، نخبره أن ما يفعله هذا يرمى إلى كسب العامة والأوباش ، عندئذ يسهل له الركوب على مولانا . هل شفتم اخبث منه ، يدعى الزهد ويعلن رجاله فى كل مكان ، طيبغا لن يبقى على مظلمة ويقتص للظالم من المظلوم ، حتى إذا استطال أمره وعلا نجمه اظهر ما عنده ، فأنهى الملك ، بالذمة يا مشايخ ، هل سمعتم فى تاريخ دولة الترك بديار مصر عن أمير يأخذ على عاتقه فض المظالم ، يفتح بيته لاولاد الحرام ، يأكلون فيه ويشربون . قالوا والله ما سمعنا بمثل هذا . صاح شيخ الحنابلة انه لوطى فاسق . همس قاضى القضاة تمسح وجهه ابتسامة لها رائحة العنبر ، ليس وقته يا شيخ أحمد . . ليس وقته . .

لم يكد يبدأ المؤذن فى الأذان حتى علت ضجة وكبكبة من ناحية جامع الحسين . ويذكر عباد الله يومئذ ان الكل قالوا طيبغا مقبل طيبغا قادم من ناحية أم الغلام ، سرى فى الجمع كالماء فى أرض الشراقى ، طيبغا وصل . مالت الرؤوس اصغت الآذان كأن الانفس فى الصدور موج علا وهاج يذكر اسمه ، وفى صحن الجامع كانت الشمس تسطع والضوء فى الفراغ يلمع ، دارت العيون ترمق الرجل الذى انتشر اسمه فى سائر جهات مصر ، حتى أن الكثيرين من الناس ، توافدوا إليه يشكون حالهم . وكثيرا ما يجيئه فلاحون ، يقول الواحد منهم ، يا أمير أخذوا أرضى وشالوا عنى حملى ومالى ، ولا أجد القوت ، فيرسل معه من رجاله ما يرد له أرضه . زعم الأمراء أن طيبغا كان يهب كل من شرق وغرب ، يستجيب للناس مهما قالوا له حتى اختلت الاحوال . لكنى أقول وأنا واثق أن طيبغا لم يفصل فى أمر الا بعد تاكده وتحققه منه . ما علينا . أقول ان اليوم جمعة ، وطيبغا يرتدى الخشن من الثياب ، حوله رجال ، خليط فقراء وعامة جهلاء . ثلاثة أو أربعة من كبار الاغنياء ـ لزموه ولم يفارقوه ، كان طول النهار يجول الطرقات ، وشاب أحدب له طلوع فى ظهره وصدره يصيح أمامه ، والعجيب ان صوته قوى جهورى حتى تخاله يطلع من غير جسمه . . من له مظلمة فليعرضها على نائب السلطنة طيبغا ، يتقدم الناس منه ، منذ يومين مشى فى شارع الصليبة ، قام بنفسه بتسعير الاجبان والبيض ، والخضار والسنبوسك . وقد أثار هذا المحتسب ، قال فى رجاله وأنا باعمل إيش ؟ لكنه لم يجرؤ على النزول ورفع السعر من بعد خفضه ، ولو فعل لأكله الناس . وهذا من مآثر طيبغا فقد كان المحتسب ظالما غشوما ، يفرض الأسعار والمكوس على هواه لعنه الله وأزال غمه عن أمة الاسلام .

لم يكد القاضى عبد البر يسلم وتنتهى الصلاة حتى التف القوم حول طيبغا يبتسمون له يبادلهم الكلام كأنه واحد من العوام ، والله كنت أعيب عليه هذا ـ قلت يا أمير أنت كبير المقام فتعامل معهم باحتشام . غير انه نتر فى وقال : كلنا أولاد لحواء وأبناء لآدم ، ثم هؤلاء العوام

عفيفو اللسان ، ولو عرفهم الواحد منا لما قيل عنهم ما قيل . وتصادف فى هذه اللحظة ، ان خرج من الجامع ثلاثة أمراء كانوا يصلون بجوار القاضى عبد البر أول الصفوف . أقول الحقيقة كانت لهم هيبة يلبس كل منهم الكلفته والعباءة المزركشة ، كانوا فى غاية الابهة . الأمير طشتمر الجندار ـ وسنقر الخازندار ، ويلبغا وكان قد انقلب على طيبغا وتباعد عنه ، تهامسوا وتساءل طشتمر بأنفه زائدة عن الزحام ، وتصادف فى اللحظة أن واحدا من شلاق الناس صاح : انظروا الفرق بين الصالحين وبين ظلمة الاسلام ، لفت القول أعناق الناس ، سمعت من يقول أليس هذا (يقصد طيبغا) من جنس هؤلاء ؟ قال آخر : أليس هذا (يقصد طيبغا) أعلى مقاما من هؤلاء ؟ .

أكفهرت وجوه الأمراء من الغضب . صار الناس يرمونهم بجمار النظرات ، تراهنوا فيما بينهم عما سيفعله طيبغا ، ثمة قائل انه سيتقدم منهم ويسلم عليهم ، وآخر يزعم انه سيدنومنهم ويقطع هدومهم ويمرمغهم فى الوحل ، بهدوء تكلم طيبغا مع الخلق ، الامراء منه على مسيرة أقدام ، لم يرم اليهم حتى بسلام ، ولابدا عليه انه لحظهم ولا سمع الناس وهم يلوحون لهم ، ويجهرون لهم بالكلام الفاحش المنكى .

■ ■ ■

. . (هات ما عندك) أطرق طشتمر ، همس بصوت خفيض : الأمير طيبغا يا مولاى ! زعق السلطان : قلت لكم طيبغا أوصانا أبونا عليه وله عندنا حرمة فما أريد سماع الكلام فيه ، الليل ناعم ، الدفء فى العروق والاوصال ، لين الحشايا يتسرب إلى الدم والمفاصل ، همس طشتمر ، صوته يزداد انكسارا اصغى الأمراء كافة : أعرف يا مولاى ، لكن نمى إلى حدث جلل . . زم سلطاننا شفتيه ، قال طشتمر ، دأب طيبغا مدعى الزهد والصلاح على السهر فى بيته يقارع أولاد الحرام كوسا من الخمر وفى ليل امس طار دماغه حتى انه وقف فى صحن داره وهو يصيح . . لا تؤاخذنى مولاى . . خيم الصمت المهول على القاعة ،

ارتجف النبيذ فى الدنان . راح السكر من العقول ، زعق السلطان : قل ما عندك ! قال طشتمر والاسى العظيم فى صوته : وقف يا مولاى ونادى بأعلى صوته هاتولى قطقط . . هاتولى قطقط . . أنا عايز قطقط . طق شرار الغضب من عينى السلطان كجك ، رمى الدورق فى الأرض ضرب جدار الرخام ، طلب من طشتمر الكف عن الكلام) .

■ ■ ■

لما شاع أمر مخطوطة « ابن الحداد » وانتشرت بين العوام والفقهاء والمشايخ ومساتير الناس قام الشيخ الجليل والعالم اللوذعى الفضيل احمد بن عبد المقصود الهندى بتاليف فصل فى الرد على ابن الحداد ، ولد فضيلته عام ١٠١٦ ومازال يدرس الفقة فى الازهر الشريف . .

« افحام أهل العناد بالرد على ابن الحداد »

أقول ولا ابتغى غير وجه الحقيقة ، وإنقاذ الصدق التائه فى الليالى الغميقة ، انه ما من موضوع طرقنى ، واخذ من الكد والجهد بقدر موضوع ذاك اللعين الدجال الأمير طيبغا آق سنقر من اينال ، فقد سمعت ما يتناقله عنه الجهال منذ ما يزيد عن مائتين من الاعوام ، ودفعنى هذا إلى استجلاء الأمر ، فتبين لى انهم يحكون عنه الكثير بلا أصل ولا سند ، من ذلك قولهم أن السلطان كجك دس له السم البطىء حتى قتله . وسبب هذا علمه أن طيبغا صاح فى احد مجالسه هاتولى قطقط . وقطقط هذه محظية السلطان السودانية . ولابد ان هذا صحيح ، فابن الحداد نفسه يذكر أول كلامه عشق طيبغا للجوارى السودان . أقول وأستغفرك ربى أنه بعد اطلاعى على مصادر كثيرة ومؤلفات عديدة ، أن طيبغا لم يكن يهوى الجوارى السودان ـ بل كان يهيم ويعشق الغلمان السودان ، كان فاسقا لعينا لا يستقيم له حال ، فكيف يتأتى له كل ما يقال من معجزات لا يصدقها عاقل ولا حتى فى خيال .

أقول هل عجز السلطان عن قتله أو شنقه حتى يدس له السم البطىء ؟ .

يقول ابن الحداد ان كجك خاف هياج العامة ، وانهم صاروا بعد موت طيبغا يلعنون كجك ، وإذا ما سمعوا بركبه متجها الى مكان أقبلوا عليه كالجراد المنتشر ، يسمعونه فاحش الالفاظ ، ويتكون عليه فى الكلام ، حتى انهم فى مرة كادوا يقتلونه مما اغضب السلطان ، وأمر بالقبض فيهم على ألف انسان وذبحهم تحت الليل ، هكذا أفسد طيبغا الرعية على مولاها ، وسبحان من له الدوام ، ثم كيف يقتله السلطان وهو أول من مشى فى جنازته ، ولا أجدنى هنا ساخر من حكايات ابن الحداد التى صاغها عن أيام الوفاة ، لخبث طيبغا . أطال الله مدة احتضاره ، فبلغت أربعين يوما كاملا ، وهذا لم يحدث لمؤمن حق فى غابر أو حاضر الأزمان .

يزعم ابن الحداد ان العامة غصت بهم الدار ، وفد الفلاحون من الأرياف جماعات جماعات ، ينذرون النذور للسيدة زينب ، يتشفعون عند سيدى زين العابدين ، وسافرت جماعات منهم الى سيدى المجاهد احمد البدوى ، يسألونه أن يشفى طيبغا .

قال ابن الحداد ، أوصى طيبغا بتوزيع إقطاعاته كلها على فقراء الفلاحين العوام بعد موته ، حتى بساتينه ، نخيله ، ما يقع فى زمامه من طرح النهر ، اقول كيف يطلب الفلاحون له الشفاء وإطالة العمر ، وهم ينتظرون موته ليأخذوا أرضه ، اليس هذا من تخليط ابن الحداد ؟ ثم يطلع علينا هذا الفقيه المجنون المأجور ، برواية غريبة عن يوم الوفاة ، إذ يقول فى الليلة التى طال احتضاره فيها ، ونفث الدم من فمه خيوطا ، قام واحد من دراويش الصوفية ، صاح فى الناس انه أغفى هنيهة ، إذ به يرى فى المنام شيخا مهيبا ، جلبابه أبيض ، ذقنه عظيمة ، يشك فى انه الخضر عليه السلام ، قال إذا كنتم تريدون لطيبغا الشفاء ، اقرأوا صحيح البخارى ثلاثة آلاف مرة ، وسورة يس أربعة آلاف مرة بصوت عال ، قال الدرويش هذا ، بسرعة تضامن العوام .

أحضروا الفقهاء بدأوا يقرأون فى صحن الدار .

يقول ابن الحداد ، ان العوام رددوا وراء الفقهاء ما يقرأون ، حتى ارتجت السماء رجا مهولا ، ارتعشت المدينة من الفزع والرهبة ، الطرقات اقفرت خيم عليها رجفة ، حتى أن القلوب غاصت فى الصدور ، وكادت ان ترمى كل ذات حمل حملها .

يزعم ابن الحداد ان كل واحد من الناس ، تمنى لو أعطى طيبغا من حياته لكن قبل طلوع النهار ، قبل انتهاء الفقراء من التلاوة ، شهق طيبغا شهقة مريعة ، انخلعت لها قلوب الخلق ، طق فى رأسه فرخ جمر ، انحبس نفسه ، وانكتم حسه . قيل ان السماء اسودت سوادا حالكا ، ساعتها ودوت الفرقعة من بعيد ، حتى ظن الحضور أن الدنيا عمت عليها القارعة ، وحانت النازلة ، وصرخت النساء وقمن ينعين طيبغا بالطارات . أقول ان طيبغا هذا لو كان صالحا فعلا ، لو كان عارفا بالأصول ، وراعيا للناس ، لكان شفى ببركة قراءة صحيح البخارى ، وتلاوة سورة يس المباركة ، وبفضل طلوع سيدنا الخضر عليه السلام فى المنام .

يزعم ابن الحداد أن الحلوانية صنعوا تماثيل لطيبغا من السكر ، علقوها فى البيوت والحانات ، ومازال الجهال يشترونها ، وان العامة بعد موت طيبغا لو حاقت بواحد منهم مظلمة ، صاح والله إنى ذاهب إلى قبر طيبغا أشكو له الحال ، ولو كان بعيدا لأرسل له الرقاع ، وهذا عين الجهل ، مما يؤكد ما ذكرناه من الأحوال . .

١٩٦٨

■ ■ ■

صدر للمؤلف

● اوراق شاب عاش منذ الف عام طبعة اولى ١٩٦٩ طبعة رابعة ١٩٨٠ مجموعة قصصية

(طبعة خاصة دار صلاح الدين - القدس المحتلة)

العنوان	الطبعة الأولى	الطبعة التالية	النوع
● أرض . . ارض ـ	طبعة أولى ١٩٧٢	طبعة ثانية ١٩٨١	مجموعة قصصية
● الزينى بركات	طبعة أولى ١٩٧٤	طبعة ثالثة ١٩٨٥	رواية
● الزويل	طبعة أولى ١٩٧٥	طبعة ثانية ١٩٨٠	قصص

(طبعة خاصة من دار الأسوار - عكا)

العنوان	الطبعة الأولى	الطبعة التالية	النوع
● وقائع حارة الزعفرانى	طبعة أولى ١٩٧٦	طبعة ثانية ١٩٨٥	رواية
● الحصار من ثلاث جهات	طبعة أولى ١٩٧٥	طبعة ثانية ١٩٨١	مجموعة قصصية
● حكايات الغريب	طبعة أولى ١٩٧٦	طبعة ثانية ١٩٨٣	مجموعة قصصية
● ذكر ما جرى	طبعة أولى ١٩٧٨	طبعة ثانية ١٩٨٠	» »
● الرفاعى	طبعة أولى ١٩٧٨	طبعة ثانية ١٩٨٠	رواية
● خطط الغيطانى	طبعة أولى ١٩٨٠		رواية
● كتاب التجليات	طبعة أولى ١٩٨٣	بيروت دار الوحدة	
(السفر الأول)	طبعة أولى ١٩٨٣	القاهرة دار المستقبل العربى	رواية

● كتاب التجليات (السفر الثانى) ١٩٨٥

● اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان   طبعة أولى ١٩٨٤   مجموعة قصصية

● أحراش المدينة   كتاب اليوم ١٩٨٤   مجموعة قصصية

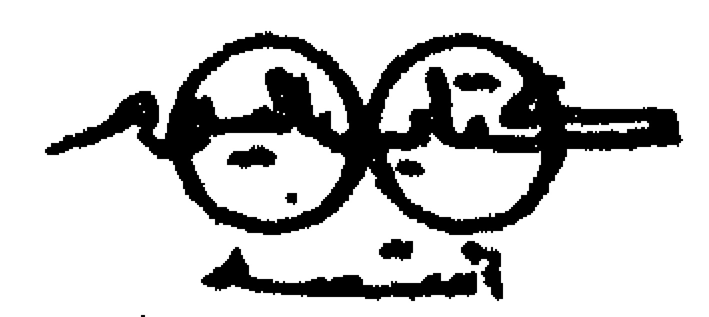
■ دراسات ومشاهدات :

● المصريون والحرب ١٩٧٤
● حراس البوابة الشرقية ١٩٧٥
● نجيب محفوظ يتذكر ١٩٨٠
● مصطفى امين يتذكر ١٩٨٣
● ملامح القاهرة فى الف عام ١٩٨٣
● أسبلة القـاهرة ١٩٨٤

■ تحت الطبـع :

● كتاب التجليات « السفر الثالث » .

● ● ● ●



أسسه

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة:

طلعت الزهيرى

نائب رئيس التحرير:

عبد العزيز عبد الحليم

مدير التحرير:

حسين فريد

العدد	رجب	١٤٠٥
٢٤٠	ابريل	
	نيسان	١٩٨٥

الإدارة: أخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس يومان ٩٢٢١٥ - سامن ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية:
قيمة الاشتراك السنوى ٦ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والإفريقى	١٥ جنيه مصرى / ٢٣ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم (أوربا وأمريكا وآسيا واستراليا)	٣٠ جنيه مصرى / ١٨ دولاراً أمريكياً

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٢٣ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

المغرب	١٢٥٠ فرنك
لبنان	٦٠٠ ق.ل
الأردن	٦٠٠ فلس
العراق	٦٠٠ فلس
الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٧ ريالات
السودان	١٢٥٠ مليما
تونس	١٢٥٠ مليماً
الجزائر	١٢٥٠ سنتيما
سوريا	٥٠٠ ق.س
الحبشة	٦٠٠ سنت
الخليج	٨٠٠ فلس
غزة	٤٠ سنت
اليمن	٨٠ بقشة
الصومال ونيجيريا	٨٠ بقشة

فى الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
باكستان	٣٥ روبيه
سويسرا	٤ فرنك
اليونان	١٠٠ دراخمة
النمسا	٤٠ شلن
الدانمارك	١٥ كرونات
السويد	١٥ كرون
الهند	٣٥٠ سنتا
السنغال	٦٠٠ فرنك
هولندا	٥ فلورين
انجلترا	١٠٠ بنس
فرنسا	١٠ فرنك
ألمانيا	٥ مارك
كندا وأمريكا	٣٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كروزيرو
نيويورك وواشنطن	٣٥٠ سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠ سنت
استراليا	٤٠٠ سنت


أحلى وأشهى مايقدم
منتجات
كورونا
Corona
بسكويت مشكل
بالشيكولاتة فى عبوات هدايا فاخرة.
الشيكولاتة الفاخرة واللذيذة
كورونا
بعين الجمل.. بالبندق
COCONILE
CHOCONILE
Corona
كورونا
إنتاج شركة الإسكندرية للحلويات والشيكو
شارع قنال المحمودية / الإسكند
٥٠ قرشا